علوان السهيمي

القار

رواية

الفارابي

القَار...

علوان السهيمي

القَـار...

(روايـــــة)

دار الفارابي

الكتاب: القَار...

Alwan_mohd@hotmail.com

المؤلف: علوان السهيمي

خطوط الغلاف: أحمد النماصي

الناشر: دار الفارابي - بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: 2012

ISBN: 978-9953-71-814-9

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

الإهداء

إلى أخي الأكبر علي، ألم أقل لك ذات يوم:
إن الضمائر لا تموت لكنها تهرم.

علوان

تنبيه

عزيزي القارئ: هذه الرواية عبارة عن ثلاثين يوماً، كل يوم في فصل مستقل، كُتبت زمنياً بشكل غير منطقي ابتداءً من اليوم الثلاثين، وصولاً إلى اليوم الأول، لكنك تستطيع أن تقرأها بطريقة منطقية زمنياً ابتداءً من اليوم الأول، وصولاً إلى اليوم الثلاثين، فكُل ما عليك هو أن تبدأ القراءة من الفصل الأخير، لكنني بصفتي مؤلف هذا الكتاب لا أنصحك بذلك.

المؤلف

شوهدت بطلة هذه الرواية لآخر مرة، وهي تقف مع مجموعة من المتظاهرين في إحدى ساحات مدينة دمشق، وبجانبها طفل أسود البشرة، في تظاهرة يطالبون فيها الرئيس السوري (بشار الأسد) بالرحيل.

أثر القُطن

نتعلم من خيبة واحدة ما لا نتعلمه من انتصارات متعددة.

سحر بيّاض

(اليوم الثلاثون)

النهايات التي لا تقدّم نفسها بشكل جيد، لا تستحق الاحترام.

لم أستيقظ من النوم إلا متأخرة. صحوت في تمام الساعة الواحدة ظهراً، وككل أيامي كان سبب تأخر استيقاظي من النوم هو وحشية عبده في الفراش، فلم ننم إلا بعد أن ولجني أربع مرات، في كل مرة أشعر فيها بأنني سأموت ألماً، وقرفاً من رائحة دخانه، فبعد أن سكب كل شهوته في داخلي، دلق على مسامعي سؤاله الأثير ذاك قائلاً:

ـ هل أنتِ مبسوطة؟

ـ نعم مبسوطة.

سمع إجابتي تلك ونام بعمق، وشخيره يملأ أرجاء الحجرة، وكأنه كان ينتظر مني جملة كهذه ليدلل بها على فحولته، وينام. تألمت كثيراً حتى أخذني الألم في نوم عميق لم أخرج منه إلا قبل قليل. نمت دون أن أستحم، فقد علّمني عبده هذه الخصلة: أن أنام وأنا عارية دون أن أستحم بعد كل يوم يجامعني فيه، أو لأكن أكثر دقة، فأنا على مدى ثلاثين يوماً عشتها مع عبده لم أكن أنام إلا عارية دون أن أغتسل، ما عدا خمسة أيام كانت أثناء فيضاني.

استيقظت وهو لا يزال يشخر، التقطت منشفتي وردية اللون التي كانت معلّقة في الخزانة بهيبة ووقار، وأخذت أقلب خزانة الملابس التي كانت تملأ شدق الجدار أمامي، تناولت منها بيجاما صفراء كنت أحبها كثيراً، وتناولت معها منشفة رأسي الصغيرة التي تشبه كل التحف التي نراها في زوايا المحلات الفخمة، واتجهت إلى الحمام لأستحم. خرجت منه بعد أن دعكت

جسدي كثيراً، وكأنني أتخفف من قذارة ذلك الأسود فوقه، شعرت بعدما أنهيت استحمامي بأنني أحلَق، وأحسست بأنني أخف مما أنا عليه، حينها شعرت بسعادة غامرة. عدت إلى غرفة النوم، التقطت مجفف شعري وذهبت به إلى الصالة، وأدرت جهاز التلفاز، وأخذت أحدق فيه وأنا أعمل على شعري بعناية وجدّية، ولا أدري لماذا كان كل هذا الاهتمام بمظهري في هذا اليوم بالذات؟. كنت أسرّح شعري وأنا أفكر فيما سأقوم به اليوم، كان صوت موسيقى أحد المسلسلات السورية يمتزج مع صوت مجفف الشعر، وعبده يغطّ في نومه في الحجرة المجاورة، وصوت شخيره يرن في رأسي ككابوس.. وقعت عيناي على هاتفي المحمول على الكنبة المجاورة، فتذكرت بأنني تركته البارحة هنا بعدما باغتني عبده، وأنا أمام التلفاز أشاهد فيلماً وثائقياً عن حياة الدلافين.. كان الفيلم يحكي حياة الدلافين بطريقة ممتعة جداً، لأنني منذ أن كنت صغيرة كنت أتوق لمعرفة السبب وراء براءة الدلفين بهذا الشكل؛ فالكائن الذي يرقص كثيراً كائن بريء، لكنه دخل عليّ الصالة وأنا منهمكة في حياة الدلافين هذه، وحملني بين ذراعيه بسرعة كلسعة دبّور، وطار بي إلى غرفة النوم من دون أن يكلف نفسه حتى أن يقول لي مساء الخير، أو يتركني أحوّل نغمة جهازي المحمول على الوضع الصامت على أقل تقدير.

بعدما انتهيت من تجفيف شعري اتجهت إلى غرفة النوم، وتناولت عبوة ماكياجي وذهبت إلى المرآة المعلقة على المغسلة المخصصة لليدين أمام الحمام، ووضعت بعض المساحيق على وجهي، ورسمت شفتي بأحمر شفاه، ووضعت ظلاً على عيني، فبدوت كدمية. فعلت كل ذلك بهدوء لكي لا يصحو من نومه، فقد كنت أبغض كثيراً أن يشاركني عبده قهوتي حينما أستيقظ من النوم، أعدت عبوة الماكياج في مكانها على التسريحة، وذهبت إلى المطبخ الذي كان مرتباً ترتيباً يليق بامرأة حسناء مثلي، فأنا حين أقول امرأة حسناء فإنني أفترض أن ينطبع الحُسن على كل الأشياء حول المرأة الجميلة: حجرتها،

ملابسها، بيتها، مطبخها؛ فمنذ أن كنت صغيرة لم أعترف بأن الحسن هو حسن المظهر فقط، فقد علمتني أمي بأن المرأة الجميلة هي التي يكون كل ما حولها جميلاً باستمرار.

لم يكن من عادتي حينما أصحو من النوم أن آكل، إنما يحلو لي أن أتناول قهوة مُرّة أجلس بعدها قرابة الساعة، ثم أعود وأصنع لي ما آكله، لذلك وضعت (كنكة) الماء على النار، وذهبت إلى الصالة لأشاهد التلفاز فيما الماء يسخن. كان التلفاز يبث إعادة لحلقة مسلسل عرض مساء البارحة، التقطت جهاز التحكم وأخذت أحلق في الفضاء. أثناء ذلك وقعت عيناي على هاتفي المحمول الملقى على الكنبة بجانبي، فالتقطته لأنظر إلى الساعة، ففوجئت برسالة قصيرة تتربع شاشته: من سيرسل لي رسالة قصيرة في هذا البلد الذي لا أعرف فيه إلا أصابع يدي؟ فتحت الرسالة، ومن هول ما صُدِمت لم أنتبه فيما بعد للوقت الذي استغرقه الماء وهو يسخن على النار، فقد كانت الرسالة من حبيب حياتي ماهر كتب فيها:

«أهلاً يا قمر، ما هي أخبارك؟ ماذا تفعلين الآن؟ وحشتني كثيراً جداً، أرسل لك هذه الرسالة بعد مضي شهر على زواجك، فأنت لا تعرفين إلى أي مدى أشتاق إليك، لكن تأكدي بأنني سأبقى أحبك إلى أن أموت.. ماهر».

إذن ها هو «ماهر خليل»، لم ينسني كما كنت أظن، فطوال هذا الشهر من زواجي لم أسمع عنه أي خبر، حتى حينما كنت أسأل أختي عنه كانت تقول بأنها لا تعرف عنه شيئاً، وكأنه هاجر من البلاد، أو لحسته السماء؛ كنت موقنة بأن العشاق أكثر الناس هرباً إذا ما تعلق الأمر بفقدانهم لحبيباتهم، لكنني لم أكن أتخيل بأن ماهراً قد نسيني فعلاً، فطوال شهر قضيت أغلبه في السعودية كان معي في كل مكان، حتى أنني كنت أتخيله معي على السرير بدلاً من هذا الأسود، وأحياناً كان يستبد بي خيالي، وأتخيله معي في الحمام يمسح ظهري، ويصب الماء عليّ، ويحتضنني، ونحن تحت صنبور الماء الدافئ نغسل عنا بقايا ليلة حب دافئة، والله من فوقنا يحرس حميميتنا.

أتذكر حينما كنا معاً في جامعة دمشق، وبعدما توطدت علاقتنا جيداً، وبعد محاضرة في يوم من أيام الشتاء، كانت السماء متخمة بالغيوم كرسمة طفل في المرحلة الابتدائية، وكان الجو ممتعاً للغاية على الرغم من برودته التي تتسرب من بين أكمامنا، طلب مني مرافقته لتناول القهوة، اتجهنا إلى مطعم الكلية مشياً، كانت ساحة الحرم الجامعي تغص بالطلاب والطالبات، فهنا طالب يثرثر باهتمام أمام فتاة يبدو أن البرد قد لفح وجهها ودماغها، فلم تعد تستوعب كل ما يقوله، فكل ما تريده أن تنفك من همّ هذا البرد، وتعود إلى البيت سريعاً، وهنالك شاب وفتاة يمسكان بين أيديهما بكوبين من الشاي، وقد وضعاهما قريباً من وجهيهما يتدفآن بهما، وهما يتحدثان بحميمية مطلقة، وفي الجهة الأخرى مجموعة من الشباب يخطب فيهم شاب يرتدي نظارة طبّية، وكأنه رجل سياسة في بلد لا يعترف بالسياسة إطلاقاً.

حينما دلفنا إلى المطعم كان مزدحماً كلجنة انتخاب برلمانية، ورائحة الطعام تنتشر مع رائحة الأجساد في المكان، لتشكّل مزيجاً لا يطاق، طلبت من ماهر أن يذهب لإحضار القهوة، وأخبرته بأنني سأنتظره في الخارج لأن قسوة البرد أرحم من سطوة هذه الرائحة، إنه صعب جداً أن تبقى تنتظر إنساناً تحبه، ومن حولك رائحة كهذه، رائحة تشبه خطاياك الأولى.

عاد بالقهوة وناولني إياها وأنا لا أدري لماذا لا يشعر العشاق بأي مذاق للأكل والشرب أثناء لقاءاتهم الغرامية؟ أصبحت مع ماهر لا أتذوّق ما أتناوله مطلقاً؛ فجبروت حضوره كان يطغى على كل حواسي، فيحدث أن نتناسى حواسنا دفعة واحدة إذا استطعنا أن ننجز فرضاً من فروضنا العشقية. تحدثنا كثيراً ذلك اليوم، تحدثنا بالشكل الذي كنا نتخيل معه أننا لن نلتقي فيما بعد أبداً، حتى فاتتنا محاضرتنا التالية التي لم نأسف على فواتها إطلاقاً.

كنت أتذكر هذه الحوادث، وكأنني خارجة عن الوعي إلى أن أعادتني رائحة بخار الماء الذي وضعته على النار. كنت أتذكر هذه الذكريات، وصورة ماهر تقف أمامي في آخر لقاء لي معه حينما قلت له:

ـ لقد خطبني شاب سعودي، وأمي مصرّة على أن أتزوجه، ما رأيك؟

ـ ما رأيك أنت؟

ـ أنا لا أريده، لكن أهلي سيرغمونني عليه إن لم تتقدم لي.

ـ لا أدري ماذا أقول لك، فأنا أحبك، لكنك تعرفين أموري المادية، فلست مؤهلاً للزواج الآن، حاولي أن ترفضي يا سحر.

ـ سأرفضه حتماً، ولن أتزوج غيرك، حتى لو اضطررت أن أهرب من المنزل، فأنا لن أتزوجه إطلاقاً.

أخذ وجه ماهر يتمدد في مخيلتي حتى استحال إلى غول ضخم، لأتيقن بأن للذاكرة سلطة تشبه الأنظمة السياسية العربية تماماً. أعددت قهوتي وأخذت أتناولها بلذة، وبقيت أمام التلفاز أشاهد ما فاتني من مسلسلات البارحة التي لم أستطع مشاهدتها. كنت طوال هذا الشهر أشاهد أغلب المسلسلات معادة، فعبده لم يكن يتركني أثناء الليل أبداً، كنت أشبه بالحراس الذين يملأون حياة رؤسائهم أمناً أثناء الليل، كنت دائماً ما أملأ حياة عبده أمناً. بقيت على ما أنا عليه، فَرِحة برسالة ماهر، وفي داخلي شهر يعج بالألم، ويعج بالحنين، ويعج بالقهر أيضاً، حتى رأيت شبح عبده يخرج من باب الحجرة عارياً لينادي ويده على إحدى عينيه: «حبيبتي ألحقيني بملابسي إلى الحمام». ذهب إلى الحمام، وذهبت بدوري إلى غرفة النوم لأختار له أجمل ثيابه، كان يحب اللون الأبيض عادة، فتناولت من الخزانة أفضل ملابسه البيضاء، واستدرت عائدة إلى الحمام، ولم أفاجأ عندما رأيت باب الحمام مفتوحاً، فهو الذي كان يقول لي دوماً «يسعدني أن تشاهديني عارياً!». ناولته ملابسه ومنشفته، واعتذرت منه سريعاً على الرغم من إلحاحه الدائم لي بأن أستحم معه، فقد كنت أعتذر عن الاستحمام معه بحجة أنني لا أحب أن أستحم إلا بمفردي، وأنا أعرف جيداً بأنه لم يكن يصدقني، أنا التي ملأت خيالاتي بذكرى «ماهر خليل» وهو يستحم معي، لكني حينما كنت أرفض، كنت لا أرفض إلا لأنني

لم أكن أقبل أن ينتهك أحدهم ذاكرتي لمجرد أن يستحم معي، أو يحب أن أشاهده عارياً.

دخلت إلى المطبخ أريد إعداد طعام الغداء، تناولت دجاجة من الثلاجة ووضعتها في قدر متوسط الحجم، وسكبت عليها ماءً ساخناً، وتركتها لفترة، وبدأت في إعداد الأشياء الأخرى. كان الغداء عبارة عن صينية دجاج في الفرن، وإدام ملوخية، وعبوتي مشروب غازي. جلسنا على السفرة وأنا أحمل همّ أسئلة عبده التي كثيراً ما أمطرني بها خلال هذا الشهر، أسئلة مليئة بالقهر والتملّك، فعندما يغدو طرح الأسئلة انتصاراً رديئاً للكائن المتملّك في داخلك، عندها تصبح الإجابات محاولة هروب بائسة لا معنى لها. كان يسألني كثيراً عن علاقتنا الجنسية مؤخراً، كل ذلك لأنه تحرر من عقدة جمالي الذي كنت على ثقة مطلقة بأنها تسبب له أزمة جلدية، فأي معنى لجمال يغدو في نظر الآخرين أزمة، ولعنة!.

كان حينما ينتهي من غدائه دوماً يستند بظهره إلى الكنبة الموضوعة خلفه، وكنت أعرف جيداً بأن السعوديين لا يأكلون إلا جلوساً على الأرض، يأكلون بأيديهم، ولا ينتابهم القرف من ذلك، أنا التي علمتني أمي أن أجيد جيداً جداً استخدام الملعقة، محاولة ألا يصدر عنها صوت مرتفع عند اصطكاكها بالأطباق، لكن يبدو أن ثمة بعض التجارب تكون لها سلطة أكبر من مجرد عادة، أو أمر علّمتنا إياه أمهاتنا في الصغر، خصوصاً بعدما تزوجت، وأصبحت الملعقة تصدر صوتاً فظيعاً جداً أثناء تناولي للطعام مع السعوديين حين أنظر إليهم وهم يأكلون بأيديهم، ويشعرونني بالقرف. أخذت ألمُّ الأطباق من فوق السفرة وهي على الأرض، وعين عليها، والأخرى تحرس هذا الأسود المستند إلى الكنبة، لم أكن أعرف السبب وراء كرهي له حينما يشبع، كنت كلما رأيته وقد امتلأ كرشه أكلاً أتقزز، فأشعر برغبة ملحة في أن أخرج كل ما في بطني عليه.

في الحقيقة لم يكن «عبده غطفان» حقيراً معي أبداً، ولم يمارس معي

دناءته في أي يوم من الأيام طوال هذا الشهر الذي قضيته معه كزوجة، لكنني لا أستطيع تفسير غضبي تجاهه؛ فهنالك بعض الأحاسيس تشبه الأقدار، تأتي أكبر من حجم إرادتنا ككرهي له تماماً. كنت في ذلك الحين أقلّب طبقاً بين يدي تحت صنبور الماء وأغسله، وصوت عبده يصلني قادماً من الصالة كصوت جبريل يقول: «إصنعي لي كوباً من الشاي يا حلوتي». كنت أمقت هذه اللفظة منه دوماً «يا حلوتي»، فكنت كلما سمعتها منه أزداد حقداً على نفسي، فأنا لست حلوته، أنا امرأة تعرف إلى أي حد يمكن أن تكون الأقدار قاسية ومرعبة، لتستحيل من فتاة جميلة عاشقة إلى امرأة تعيش تحت سلطة حيوانات منوية لعبد آبق. أعددت له الشاي وقدمته كما يحب، فهو يحب أن يضع سكّره بنفسه، وذهبت إلى الغسالة أنشغل عن وجوده بغسل الملابس؛ لأنني صرت بعد انتهاء دورتي الشهرية الأخيرة، وقبل عشرة أيام بالتحديد أتهرّب منه، لكنه دوماً ما كان يهزم هروبي ذاك بعد منتصف الليل على السرير.

بعد ساعة أو أقلّ قليلاً، كان عبده عند باب المنزل يودعني؛ لأنه يريد الذهاب للقاء أصدقائه ليحادثهم، فهو كما يقول يشعر بملل كبير هنا، وحين همّ بالذهاب سألني:

ـ أين تريدينا أن نتناول طعام العشاء؟

ـ كما ترى.

ـ حسناً سأذهب إلى بعض الأصدقاء، وحين أعود سآخذك لنتناول العشاء في الخارج.

وكعادتي كلما خرج عبده إما أن أتجه إلى التلفاز، أو أستلقي على ظهري لأقرأ، أو أقوم بالاتصال بأهلي في دمشق. تناولت هاتفي المحمول واتصلت ببيت أهلي، وبعد مدة ردت ابتهال التي أحبها كثيراً، وسألتني عن أخباري فأجبتها بكلمتي المعتادة «عايشين»، لأنني أعرف بأن وجودي على قيد الحياة بعد هذا الشهر يعد هبة من الله. تحدثنا بوفرة في هذا الاتصال، تحدثنا وكأننا لن نلتقي مطلقاً، لكنني أعرف نفسي جيداً مع ابتهال، هي التي تسرق

مني أسراري، وأفراحي، وأحزاني، وخيباتي، وهمومي كقس أركع عند قدميه وأرشيه باعترافاتي. سألتها عن ماهر، وكيف وصل إلى رقم هاتفي؟، فأخبرتني أنها لم تقابله قطّ، فضلاً عن إعطائه رقم هاتفي، وبررت بأن أخته ربما هي من تكون قد أعطته الرقم، لأنها زارتنا قبل يومين. أخبرتها بأن ماهراً أرسل لي صباح هذا اليوم رسالة وقرأتها لها، فضحكت من جنون ماهر؛ كانت تقول لي دوماً بأن ماهراً مجنون لأنه يحبني، فهو لم يختر الفتاة الصحيحة، وكانت تردف بأنها لا تعرف السبب وراء تعلقه بي إلى درجة الجنون، لأنها تجدني إنسانة عادية، وتضحك بهستيريا، وهي لا تعرف بأن الرجال لا يحبون النساء غير العاديات. إن عادية المرأة هي التي تجعل من الرجل مجنوناً، فالنساء يختلفن عن الرجال في هذه الخصلة اختلافاً مطلقاً، فإذا كانت عادية المرأة توصل الرجال إلى الجنون، فإن الرجال الخارقين هم من يدفعون النساء إلى الجنون.

أخذنا نثرثر أنا وابتهال كثيراً، وبدأت تسرد لي حكايات الأصدقاء والصديقات في دمشق، ثم عرّجت على حكايات الجامعة التي تعيد لي شيئاً من شبابي، لأنك تشيخ فجأة إذا جاءت الظروف أقوى من مستوى قدرتك؛ فزواجي من عبده يشعرني دوماً بالشيخوخة، فمعه أحس بالتجاعيد على وجهي، وبتلك الأريكة التي تهتز، وبالخيط والإبرة. كانت ابتهال تثرثر وأنا أسمع، وهي عادتها التي لم تنفك عنها منذ بدأنا نعي، فهي كثيرة الكلام بشكل لا يوصف. كنت أستمع إلى حديثها مسرورة، وأحاول أن أحلب من أحاديثها ذكرياتي الملقيّة في أزقة مدينة دمشق وأرجائها، وبينما أنا منهمكة في سماع أحاديثها دخل عليّ عبده فجأة وقال:

ـ مع من تتحدثين في الهاتف؟

ـ مع ابتهال؟

ـ اتصلت بك لأكثر من ثلاثين مرة، وهاتفك مشغول، بقيت في انتظارك عند الباب لأكثر من نصف ساعة!

اعتذرت من ابتهال سريعاً، وأغلقت خط الهاتف وأنا أسأله:

ـ ولماذا لم ترسل رسالة؟

ـ لم أكن أعتقد بأن حضرتك ستطيلين الحديث في الهاتف.

ـ أنا آسفة.

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، أفسدت عليّ بهجة أن نذهب لتناول العشاء في الخارج.

ـ إذا كنت لا تريد أن نذهب، فلا داعي لذلك.

ـ حسناً، قومي واصنعي لي شاياً لأشربه.

ذهبت إلى المطبخ، وارتمى عبده على الكنبة الحمراء وسط الصالة، انهمكت في تحضير الشاي، وشعور بالفرح في داخلي لأنني لم أضع هاتفي المحمول على خدمة انتظار المكالمات. صحيح بأنني لم أكن شغوفة بالذهاب لتناول طعام العشاء في الخارج، لأن كل زياراتك إلى المطاعم في هذا البلد متشابهة، لكنني شعرت بشيء يشبه الانتصار حين وضعت عبده في الموضع ذاته الذي وضعني فيه ذات يوم، فإنْ بقي عبده نصف ساعة ينتظرني في الخارج، فأنا وقفت على ناصية الخيبة لمدة تزيد عن عقدين من الزمن، لأسقط وتصاب ذاكرتي بالرضوض، وبينما أنا أنتظر أن يسخن الماء سمعت صوت عبده يأتيني من الصالة كالموت يقول: «سحر مع من كنت تتحدثين في الهاتف حينما اتصلت بك؟». استغربت سؤاله هذا مرة أخرى، لكنني لم أرد عليه، وبقيت منهمكة في تحضير الشاي على الرغم من الألم الخفيف الذي شعرت به بعد سؤاله هذا للمرة الثانية، وعندما انتهيت من تجهيز الشاي اتجهت إلى الصالة. نظرت إليه أريد أن أعرف مغزى تكرار سؤاله هذا، وأنا أشعر بالغيظ يتخلّق في داخلي كمسخ، ونيّة عميقة في عدم مجادلته في هذا الموضوع، لأننا لا نحترم الأسئلة التي تكرر نفسها مرتين، وفجأة رأيت الغضب على ملامحه، غضب سنين هروبه كلها، فهالني منظره، فعدلت عن رأيي في عدم الإجابة، وأجبته:

ـ قلت لك إنني كنت أتحدث مع ابتهال.

ـ وهذه الرسالة لمن؟

عندها مد لي جهاز هاتفي المحمول، وإذ برسالة حبيبي ماهر خليل تتوسط الشاشة، لم أستطع أن أجيب؛ لأن بعض الصدمات أقوى من حجم ثرثرتنا التقطت الهاتف من يده ومسحت الرسالة وهو يقول:

ـ إذن هذا هو ماهر؟

ـ

ـ كنت أعرف بأنه يحبك.

ـ

ـ هل تحبينه؟

ـ

ـ كالعادة أنت سورية، والسوريات لن ينظفن أبداً.

عندما سمعت هذه العبارة غزاني مارد ضخم كإعصار، لأن المرأة ربما تتصالح مع من يجرح مشاعرها ذات يوم، لكنها لن تتصالح مع من يمس كرامتها أبداً، أعدت ترتيب الكره الذي يسكنني تجاهه، وقلت له:

ـ ولماذا تزوجتني ما دمت تراني غير نظيفة؟

ـ

هل بنات بلدك نظيفات؟

ـ أجبني!

ـ

ـ لماذا لم تتزوج منهن؟ أم أنك لن تجد من تتزوجك!

ـ

ـ أنتم هكذا يالسعوديين: أنجس شعب على أطهر أرض.

حينما نطقت بحرف الضاد الأخير من جملتي هذه، وفي لحظة تشبه آخر

لحظة لنا في هذه الحياة؛ تلك اللحظة التي يتمدد فيها وجه عزرائيل أمامك ليملأ الأفق، سمعت دوي كفه الأيمن على خدي الأيسر، فتأكدت حينها بأن حياتي في مجملها كانت ثلاثين يوماً. سقطت على الأرض، فركلني على جنبي الأيسر بقدمه الأشبه بنيزك، فبدأت أشعر بالإغماء، وبدأت الأشياء من حولي تتداخل، وأصبح العالم من حولي عبارة عن ثنائيات متعددة، وصوت عبده في الأفق يتعالى، يتعالى.. كان يقول كلاماً لم أتبيّنه بالتحديد، كنت أشعر بثقل كفه على خدي، وثقل نفسي على رجليّ كأنبوبة غاز كبيرة، فبدا منظر الأشياء من حولي مثل أن تحدّق في شيء يفصل بينك وبينه كوب من الماء...

وبعد لحظات بسيطة، لم أعد أعي شيئاً مما حولي، فأغمضت عيني.

(اليوم التاسع والعشرون)

كالعادة بعد كل ليلة حرب أخوضها استيقظت ظهراً، قمت أريد ارتداء ما يستر جسدي العاري، اتجهت إلى الخزانة وإذ بصوت عبده يصلني كأنه مبعوث من قبر: «سنذهب اليوم لتناول الغداء عند أختي صالحة، جهزي نفسك، سنذهب بعد ساعة». لم يكن لي رغبة في الذهاب إلى أحد، كان ثمة ألم طفيف أسفل بطني جعلني أنحني قليلاً إلى الأمام لتبدو مشيتي مضحكة كمشية عبده.. لم أكن أبغض صالحة فهي امرأة جيدة، لكننا لا نريد زيارة كل من نهوى في أي وقت، حينما قابلت صالحة لأول مرة بعد زواجي بعشرة أيام عند وصولنا إلى السعودية، وفي أول يوم تطأ فيه قدمي تراب هذا البلد، قابلتها في منزل خالتي «عائشة» أم عبده؛ كانت ليلة ماجنة، عرفت حينها بأن ذوات البشرة السوداء يعشقن الطرب والرقص، ويملكن حساً جنسياً طاغياً، فهن لم يتورعن في الرقص في ليلة قدومنا، ولم يتورعن أيضاً في السؤال عن بعض الأشياء الحميمية في حياة رجل وامرأة تزوجا حديثاً، وكن يضحكن كثيراً بعد دلق كل سؤال، وهن لا ينتظرن إجابات إطلاقاً.

بعدما انتهيت من الاستحمام كأول فرض إنساني لي بعد الاستيقاظ، بالغت كثيراً في زينتي، حتى إن عبده قال لي وهو يرمقني بنظرة شهوانية: «يبدو أنك لا تريدينا أن نذهب لصالحة!».

وأخذ يضحك...

كان عبده في حوالي السادسة والثلاثين من عمره، رجلاً يملك بنية رياضية، وجسداً قوياً، وروحاً وثّابة تحب المغامرة، على الرغم من عرجته التي تؤثر في مشيته، ويغدو معها شكله مضحكاً، تلك العرجة التي كانت سبباً في

تقاعده المبكر من العسكرية كما كان يقول، فهو حين يرتدي ملابسه تظهر تقاسيم جسده لتشكل غواية حقيقية. لقد عرفت فيما بعد بأن السود دوماً ما يملكون أجساداً فاتنة، وهم أكثر الناس امتلاكاً لذائقة عالية جداً في اختيار الملابس والثياب التي تأتي غالباً لائقة جداً، وفاتنة أيضاً؛ فالملابس التي كان يقدمها لي عبده كهدايا كانت تحمل طابعاً غريباً جداً، أشعر معها بأنني فعلاً لا أجيد انتقاء ملابسي بشكل جيد، فمنذ أن عرفت أهل عبده لم أكن أتضايق من زيارتهم لي، أو زيارتي لهم على الرغم من قلّتها، كانوا يسكنون حياً فقيرا جداً يطلقون عليه حي «المنتزه»، وعلى الرغم مما كانت تتناقله أفواه الناس حول هذا الحي بأنه حي مليء بالرذائل إلا أنني كنت أسعد بزيارته، كان حياً بائساً جداً، وكان أغلب من يسكنه من السود، ومن الطبقة المعدمة جداً.

حينما صعدت السيارة مع عبده متجهين إلى منزل أخته صالحة الذي يقبع بجانب بيت خالتي «عائشة» سألته: «هل تشعر بالحياء عندما تدخل حيّكم القديم لاسيما أنك تملك سيارة فارهة؟». كنت أعرف بأن عبده كان يشعر بالضيق إذا ما ذهبنا إلى منزل أمه أو أخته، لأنه دوماً ما كان يحاول أن يتبرأ ـ وهو لا يشعر ـ من هذا الحي الذي عاش فيه طفولته وشبابه، وخرج منه رجلاً أعرج يتنكر لأيام العوز دوماً. فردّ عبده على سؤالي باقتضاب: «بالعكس هذا الحي عشت فيه معظم عمري».

كنت أعرف بأنه يكذب؛ لأن إجاباته التي يكذب فيها تأتي مبتورة دوماً، وتحمل طابعاً محايداً إزاء أسئلتي، فلم استمر في سؤاله لأنني لا أريد امتحان ذاكرته، أو وضعه في مواجهة دامية أمامها، لكنني كنت أتعجّب من بعض تصرفاته وعباراته حينما يتحدث عن تاريخه في ذلك الحي، أو عندما يتحدث عن بعض أصدقائه ممن كانوا يشاركونه بؤس الطفولة؛ سكتُّ وأخذت أقرأ لوحات المحال التجارية والإعلانات في الشوارع بصوت شبه مرتفع كما هي عادتي منذ أن عرفت القراءة. لقد كان يعجبني في مدينة تبوك

أنها مدينة متقاربة جداً. إنها مدينة هادئة، وعادة ما كنت أجيب عن الأسئلة التي تصلني عن رأيي في هذه المدينة، بأنها مدينة تعجب المتزوجين الجدد لتقاربها وهدوئها، وأنا في قرارة نفسي لا أقصد المتزوجين الجدد إنما أقصد العشاق الجدد، ومن الصعب جداً أن أبوح بهذا الأمر أمام من لا أعرفهم، فلم يكن مني إلا أنني كنت أحوّرها تماماً لتصبح «إنها مدينة رائعة جداً تصلح للمتزوجين الجدد»، وأضحك بخجل.

لم تكن المسافة من بيتنا في حي المروج إلى بيت صالحة في حي المنتزه بعيدة، فربع ساعة كفيلة بقطع تلك المسافة؛ فبِعدد الزيارات التي ذهبت فيها إلى هذا الحي كان منظر القلم الكبير الذي يتوسط الدوار عند مدخل هذا الحي يلفت نظري بشكل لا يوصف... كان منظره يشكل لي غواية لا تصدّق، فكيف جاءت هذه الفكرة في وضع هذا القلم العملاق في هذا المكان بالذات؟ وهل القلم فعلاً يمثّل شيئاً يذكر لأهل هذا الحي الذين لا يهمهم إلا أن يجدوا قوت يومهم، والا يناموا ببطون خاوية؟.

طوال الطريق كان عبده يتحدث عن اجتماعه البارحة مع بعض أصدقائه، وعن رغبته في بدء تجارة بيع السيارات في معارض تبوك، فقد اجتمع كما يقول بأحد العاملين ببيع السيارات في تبوك، وعرض عليه فكرة أن يعملا معاً في هذه التجارة بحيث يقوم بجلب السيارات من «السوق الحرة» في الأردن، ويعمل على بيعها في تبوك. كان يتحدث وأنا غارقة في قراءة لوحات المحال التجارية والإعلانات، وأتأمل وجوه الناس الذين يتكدسون خلف أجهزة تكييف السيارات التي تلفح وجوههم، وسؤال يتنامى في داخلي: لماذا لا يسير الناس على أقدامهم في هذا البلد؟

وصلنا إلى دوار القلم، هذا الدوار الذي أغواني كثيراً، أخذت أتأمله، وهواء جهاز التكييف يلفح غطاء وجهي الذي يضايقني بشدة، جلست أحدق في القلم عن يساري والسيارة تأخذ دورتها الكاملة حول الدوار، عاد عبده ليتجه شرقاً، ثم انعطف يميناً ليلج حي المنتزه من قلبه؛ كان الأسفلت في هذا

الحي مليئاً بالحفر والأحجار، وكأنك تسير على طريق غير معبّد، أتذكر عندما سألت عبده عن كثرة الأحجار والحفر في الطريق أجاب ضاحكاً «أهل المنتزه من المغضوب عليهم». سرنا بين الأزقة بهدوء مبالغ فيه حفاظاً على السيارة، بعدما تأكدت بأن ذوي البشرة السوداء يحبون مقتنياتهم كثيراً، لذا أصبحت متصالحة مع حب عبده الفظيع لسيارته. كانت الأزقة ضيقة لدرجة تشعر معها بأنك تختنق، والشوارع خالية من البشر، خالية من الكائنات، فالشمس كانت حارقة في تلك الظهيرة التي تتربع بطن السماء.

وصلنا إلى منزل صالحة ذي الباب الواحد، فقد تعودت منذ وصولي إلى السعودية أن يكون للمنازل هنا بابان، واحد يدخل منه الرجال، والآخر تدخل منه النساء، لكن منزل صالحة هو المنزل الوحيد الذي أعرفه في هذا البلد الذي كان بباب واحد؛ فالسعودية بلد يدلل التصنيف، ويربيه منذ أن تعي. طرق عبده الباب مرتين ليطل علينا رجل أسود يكتسي وجهه بالكثير من الندوب والبثور. إنه زوج صالحة بالتأكيد، كان دميماً ضخم الجسم، يحمل فماً شبه فارغ من الأسنان. استقبلنا بحفاوة ومرح غير عاديين وهو يصرخ: «أهلاً وسهلاً بنسيبي، وعريسنا الجديد». سلم على عبده بحرارة، ودعانا للدخول، وأنا لا أزال أذكر كلمته لي عندما تخطت قدمي عتبة الباب من الداخل، حينما قال:

الله يحييك يا عروسة.

وبينما كان عبده يسير برفقته أمامي، ألم يكن مني إلا أن قلت بعفوية «شكراً لك». كان منزل صالحة عبارة عن مدخل يفتح على صالة متوسطة الحجم، وعن يمينك وأنت تمر في وسط تلك الصالة حجرة عرفتُ فيما بعد بأنها مجلس للرجال، وعن يسارك باب مغلق دوماً هو باب لدورة مياه، وعن يمينه مغسلة لليدين تقبع فوقها مرآة مكسورة زاويتها اليمنى من الأعلى، ويقف قبالتك باب يفصل قسم الرجال عن النساء، حين تتجاوزه تجد صالة أخرى أكبر من الصالة الأولى من حيث الحجم، تفتح عليها عدة غرف؛ فإلى الأمام

مباشرة يقع مجلس النساء، وعن يمينك يقبع مطبخ شبه متهالك، وعن يسارك باب صغير بجانبه مغسلة يدين، وفي الركن الأيمن قبالتك تقع غرفة يبدو أنها حجرة لأطفال صالحة، ملاصقة لها تماماً حجرة أخرى هي غرفة نوم لصالحة وزوجها، لكن ما يلفت النظر حقاً هو جمال القسم النسائي في هذا البيت وترتيبه مقارنة بقسم الرجال، فقد كانت الصالة مؤثثة بكنب فاخر، وجدرانها مطلية بطريقة فاتنة، وكأن هذا القسم خارج من رسمة من تلك الرسومات التي تعطينا تصوّراً عن قناعة الناس البسطاء. حينما دلفت القسم النسائي استقبلتني رائحة السمك المنبعثة من المطبخ، وصوت صالحة الذي يتسابق مع أطفالها، وهي تقول «يا مرحباً بأم مهند عروستنا الجميلة».

كانت تحب صالحة مناداتي دوماً بأم مهند، لأنها تتمنى أن ترى ابن عبده كيف يمكن أن يكون، هل سيأتي مثل خؤولته أم مثل عمومته؟ لأتيقن فيما بعد بأن البشرة لدى السود هاجس يشكل عقدة نقص لا يمكن الخروج منها، ولأعرف بأن الزمن قذفني في تجربة لن أنساها ما حييت، فزواجي هذا لا يمكن أن يكون علاقة زوجية وكفى، إنه حياة لا يمكن أن يعيشها أصحاب البشرة البيضاء إلا استثناء.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أقوم فيها بزيارة بيت صالحة، لكنني اعتدت على أهل عبده، وعلى صالحة بالتحديد تلك التي تشبه أمها بشكل لا يصدّق حتى في الحلية الذهبية التي تعلقها في أنفها والتي يطلقون عليها هنا مسمى «زمام». قبّلتني صالحة على خدي، وطلبت مني الجلوس في الصالة أمام جهاز التكييف مباشرة، وذهبت إلى المطبخ. في تلك الأثناء دخل عليّ أطفال صالحة، فأردت أن أكون لطيفة معهم فسألت الذكر منهم:

ـ ما اسمك؟

ـ حسن.

ثم نظرتُ إلى الفتاة الصغرى فسألتها:

ـ وأنت يا حلوة ما اسمك؟

لم ترد، فشعرت لوهلة بأنها لا تجيد الحديث، أو أنها تخجل من مخاطبة الغرباء، أولئك الذين لا تشعر بانتماء حقيقي لهم مثلي أنا البيضاء تماماً، لكنني مدركة بأنها كانت مدهوشة من فتاة بيضاء جميلة ربما تكون هي المرة الأولى التي ترى مثلها، فرد أخوها حسن عليّ بقوله: «اسمها آمنة». كنت أعرف أسماء ولدَي صالحة، لكنه لم يكن أمامي بعدما ذهبت صالحة للمطبخ إلا أن أختلق مثل هذه الأسئلة السخيفة لأسوّغ لهما وجودي، مثل من يكذب ليجد لنفسه مقعداً في مكان ما يثرثر فيه. دخلت عليّ صالحة بعد ذلك، وأنا ألاعب ابنتها آمنة التي كانت خجلى أكثر مما ينبغي، كانت تحمل في يديها طبقاً كبيراً فيه ثلاجة تمتلئ بالقهوة العربية، وطبقاً صغيراً فيه بعض من تمرات.

تآلفت كثيراً مع الطريقة السعودية في التعاطي مع الضيوف، صبّت لي صالحة فنجاناً من قهوتهم العربية، ومدته لي بيدها السوداء التي تظهر فيها عروق خضراء بطريقة غير منطقية، وسألتني: «هل تعوّدت على أجوائنا الحارة مقارنة بدمشق؟»، وكأنها كانت تدرك إلى أي مدى أمقت الأجواء الحارة التي تجعلني أكره نفسي وأعضائي؛ ففي الجو الحار فقط تشعر بأن أعضاءك حملٌ زائد يجب التخفف منه. قلت لها مبتسمة:

ـ لا يختلف كثيراً طقس تبوك عن طقس دمشق. ربما لتقارب المسافة.

ربما كانت تعرف بأنني أكذب، فقد لمحت هذا الشيء في عينيها لأنها لم ترد، ولا يمكنني أن أكون قاسية على أناس حتى أنّ الطقس قاس عليهم. أخذنا نتحدث بحميمية وبهجة إلى أن سمعت صوت الباب الفاصل بيننا وبين الرجال يدق، قامت صالحة لتفتحه، وحينما انفتح كان زوجها بجسمه الضخم يقف قبالتي، رمقني بنظرة غريبة، وطلب منها كوب ماء، فصكّت الباب خلفها واتجهت نحو المطبخ لتلبي طلبه، وحينما توارت في الداخل رأيت الباب ينفتح رويداً رويداً، وعيون زوجها تطل من ورائه كوحش من وحوش الرسوم المتحركة. أخذ يحدّق بي بدهشة، فلم يكن مني إلا أن طأطأت رأسي خجلاً، وارتشفت من فنجان القهوة بين يدي، وبعد لحظة رفعت رأسي لأنظر إليه،

لكنني لم أره خلف الباب. عادت صالحة وفي يدها اليمنى كوب كبير مملوء بالماء، وفي يدها اليسرى كوب صغير فارغ.. كانت تمشي وقميصها البيتي الوردي ملتصق بجسدها، وأكثر من ثلاثين عاماً تمتلئ أنوثة، فذوات البشرة السوداء يحملن من الأنوثة ما يعوض عنهن دمامة ملامحهن، فهن دوماً ما يتهمن الفتيات اللاتي يحملن بشرة بيضاء بأنهن خاليات من الأنوثة، وباردات في الوقت ذاته، مثلما قالت امرأة سوداء في عرس حنان قبل أسبوع:

ـ سيفرح زوج حنان بها كثيراً، فهي فتاة حارة منذ أن ولدت، ليست كالبنات البيض الباردات اللاتي يجبرن أزواجهن على الخيانة.

عادت صالحة وهي تطلب مني أن أتناول قهوتي، وتحثني على أكل تمرة ناولتني إياها بيدها... كنت أعرف بأن صالحة تريد أن تبيّن لي مدى ما تكنّه لي في داخلها من حب، لكنني لم أفش لها هذا الأمر على مر هذا الشهر الذي عرفتها فيه، كنت أتأمل حركتها وهي ذاهبة من أمامي إلى المطبخ، وعائدة منه نحوي، وبين فينة وأخرى تتصل بأختها الصغرى حسينة وتخبرها بأنني وصلت، وتحثّها هي وأمها على المجيء سريعاً، فهي مشغولة بتجهيز الغداء، ولا تريد أن تتركني بمفردي. كنت أتابع حركة شفتيها وطريقة وضع يدها على خصرها، وهي منهمكة في الحديث مع حسينة تتساءل عن سبب تأخرهما، وتطلب منهما الحضور في أسرع وقت ممكن. كانت صالحة تملك روحاً جميلة على الرغم من أنني أشعر بأن سواد بشرتها يشكل لها عائقاً نفسياً في التماهي مع الحياة كأنثى فاتنة، ففي حضوري أشعر بأنها تبالغ كثيراً في الوقوف أمام المرأة، وتكثر من الأسئلة التي تدلقها عن جمالها.

مع الوقت أيقنت بأنني في المكان الخطأ كزهرة نبتت على الأسفلت، فالمرء لا يشعر بأنه في المكان الخاطئ إلا إذا تيقن بأنه في وسط لا يمثّله البتة. في بداية الأمر شعرت بأن جمالي سيكون دافعاً لهن لاحترامي فوق العادة، لكنني ومع مرور الوقت تأكدت إلى أي مدى يمكن أن يكون الجمال لعنة، فما أصعب أن تستفز أقواماً في دمامتهم!. صحيح أن عبده وأسرته لم يعاملوني

بجفاء إزاء جمالي يوماً، لكن ما أقسى أن تجد امرأة بين الفينة والأخرى تردد عليك سؤالاً واحداً لا غير: «هل تعتقدين بأنني جميلة هكذا؟».

خرجتُ حينها من جوهر هذياني على أصوات الكعوب التي تحدث دوياً على بلاط البيت لألتفت وأجد خالتي أم عبده وابنتها الصغرى حسينة قبالتي، كانتا في أجمل ثيابهما، متأنقتين بشكل مهيب جداً، قبّلتهما مبتسمة، وحين طبعت قبلة على خد حسينة البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً أو تزيد قليلاً همست في أذنها «أنت جميلة جداً». نظرت إلي فَرِحة، نظرت إلي كطفل سعيد بهدية، ولم يكن منها إلا أن قبّلتني مرة أخرى على خدي بقوة لدرجة شعرت معها بأثر هذه القبلة بعد منتصف الليل حينما أردت أن أنام، فأكثر ما يبهج المرأة أن تدلل جمالها بعبارات مقتضبة، فإن كانت الدمامة شيئاً يدخل الحسرة في النفس، فالإطراء على الحسن شيء يدخل في النفس بهجة لا تضاهى.

بدأ توافد الضيوف، وبين الفينة والأخرى تدخل امرأة أو اثنتان حتى امتلأت الصالة، وبدأت اشتمّ رائحة النميمة، لقد كن على العموم من جيران صالحة وأم عبده. لم يكن العدد لافتاً، لكنني كنت على ثقة بأن الله يغفر للنساء نميمتهن، لأنهن خلقن هكذا، لذا لم أكن أشعر بأن الأحاديث التي يدلقنها النساء في مجالسهن سيأخذها الله على محمل الجد. بقينا نتحدث لأكثر من ساعة، أنا البيضاء الوحيدة في هذا السائل الذي يشبه القار، لكن ما كان يدهشني حقاً أناقة النساء آنذاك، وطريقتهن في اختيار ملابسهن، على الرغم من التكرار الفظيع جداً للون الأبيض في كل ما يلبسنه.

جاءت صالحة بالأطباق بعد أن ناولت زوجها الطعام من خلف الباب، وبعدما فرشت أختها الجميلة حسينة سفرة على الأرض في الحجرة المجاورة.. أردت أن أساعدهن في تحضير الغداء لكن خالتي أم عبده أقسمت عليّ بألا أقوم، فالبنات كما تقول سيحضرن الطعام. كان الغداء عبارة عن طبق سمك كبير، وأرز أسود يطلق عليه السعوديون اسم «صيادية»، وعدد من الإدامات،

وأكلة شعبية يعجنّ فيها الخبز مع الموز يطلقون عليها مسمى «معصوب». وكان ثمة فواكه متعددة، وعبوتان كبيرتان لمشروب غازي، وحشد هائل من النساء. بعدما تم تجهيز السفرة، دعتنا خالتي للجلوس، وتناول الطعام، وطلبت مني أن أسمي الله، وأبدأ في الأكل، فترددت قليلاً، فعرفت صالحة أنني أواجه أزمة يصعب عليّ الخروج منها، فأنا لا آكل بيدي، فقفزت إلى المطبخ وجاءتني بملعقة مغسولة بشكل جيد. أخذنا نأكل ونتحدث، لكنني لا أنسى ما قالته إحدى الموجودات موجهة كلامها لي:

ـ لا داعي لأن تتكلفي في الأكل، كوني على سجيّتك، بإمكانك أن تأكلي بيدك، ووضع هذه الملعقة جانباً.

وحينما أردت أن أرد عليها سمعت صوت صالحة يأتيني ضاحكاً:

ـ يبدو أنها المرة الأولى التي تأكلين فيها أكلات شعبية سعودية يا سحر.

فنظرت إليها مبتسمة، وقد عرفت بأنها تريد تغيير مجرى الحديث فقلت:

ـ نعم هي المرة الأولى، لكنه أكل لذيذ فعلاً، أنت تجيدين الطبخ بشكل لا يقاوم.

وابتسمت. عندها قالت إحدى الحاضرات:

ـ تعالي لزيارتي في أي وقت، وستدركين بأن طبخ صالحة غير لذيذ مقارنة بما أطبخه.

ـ أتشرف بذلك.

فردت عليها صالحة بطريقة لا تخلو من الضيق قائلة:

ـ لو أن طبخك لذيذ كما تقولين ما كان زوجك دائم التواجد عند حسين – تقصد زوجها – لاسيما في أوقات الوجبات!

فقالت تلك المرأة متعجبة:

ـ ماذا تقصدين؟ وما دخل تواجده عندكم بما أطبخه؟

فقالت صالحة:

ـ اسألي نفسك!

عندها لم يكن من خالتي أم عبده إلا أن قالت:

ـ استعذن من الشيطان، ودعونا نأكل!

بعدما تناولنا طعام الغداء، جاءت صالحة بقالب كبير من الحلوى، وبدأت بتوزيعه على الحاضرين، فتناولته بلذة بادية. صدقاً كان لذيذاً بشكل لا يمكنني نسيانه، وفي أثناء أحاديثنا وثرثراتنا سمعت صوت أغنية صاخبة من الغرفة المجاورة التي كانت غرفة نوم صالحة، كانت الأغنية راقصة بشكل جنوني. التفتّ لأجد حسينة مع فتاتين أصغر منها سنا يتراقصن في الحجرة بطريقة فاتنة، فكن يتمايلن بأجسادهن بطريقة سلسة ورائعة، لكنني تفاجأت حقاً حينما طلبت صالحة من حسينة أن تقوم برفع صوت جهاز التسجيل. رفعت هذه الأخيرة الصوت عالياً، فقامت صالحة بالتراقص أمامنا وهي تضحك بهستيريا وتقول: «هيا قومي وارقصي يا سحر». حاولت أن تمسك بيدي، لكنني رفضت بشدة، وخجل ضخم غير مرئي يتربع كياني، وقلت:

ـ أتمنى أن تعذريني، فأنا لا أجيد الرقص الخليجي.

كنت أعرف بأنها حجة واهية، لأن الحقيقة كانت في أنني لا أريد تهشيم الإطار الجميل الذي صنعته لنفسي برقص رديء مقارنة برقصهن، فأحببت أن أبقى محافظة على كبريائي وجمالي في أعينهن، لأنه ليس هنالك أسوأ من السقوط من عينيّ امرأة. بدأ بعض النساء في الرقص تجاوباً مع صالحة، أخذت أنظر إليهنّ بغبطة، كن يرقصن بشكل فاتن حقاً، فقد سعدت كثيراً بذلك، وأم عبده تنظر إليهن، وهي ترتشف من كوب الشاي الذي في يدها، وبعد رقص طويل، وثرثرة أطول سمعت صوت عبده من خلف الباب ينادي:

ـ هيا يا سحر.

انطلقت صالحة نحو الباب تطلب من عبده أن يبقيني حتى المساء هنا، لكنه رفض بحجة أن لديه عملاً، فسيصطحبني إلى البيت، ومن ثمّ سيذهب، ولن يعود إلى المنزل إلا في وقت متأخر من الليل كما يزعم. عادت إلي

وطلبت مني الانتظار حتى تأتي بعباءتي التي لم أعرفها في حياتي إلا لشهر واحد، وأنا أتساءل الآن: كيف تستطيع النساء هنا تحمل هذا اللباس الأسود على أجسادهن إلى أن يمتن؟!. ناولتني صالحة عباءتي وغطاء وجهي الذي لا أُحسن وضعه، ثم ودعتها، وقبّلت حسينة وخالتي أم عبده، وصافحت المتبقيات من النساء، عندها همستْ صالحة في أذني ضاحكة:

ـ يبدو أن مفعول السمك بدأ يتحرك في داخل زوجك!

(اليوم الثامن والعشرون)

ـ لدي موعد مع أصدقاء لي، يبدو أننا سنتشارك في مشروع تجاري، سأنتهي بعد صلاة المغرب وسنتناول العشاء في الخارج.

ـ سأكون في انتظارك.

أغلقت الباب وراء عبده بعدما ألقى هذه الكلمات على مسامعي كجندي أَمْنٍ، وعدت إلى الصالة أقلّب القنوات الفضائية، وأتابعها بدون شغف في الاستمرار. شعرت بالملل، فتناولت جهاز كمبيوتري المحمول، وبدأت أفتش في الانترنت. كان الملل ينتاب كل أعضائي، ملل دفعني للكتابة في محرك البحث كلمة «العبيد»، فخرجت لي آلاف الصفحات، شعرت بشغف يتسرّب إلى داخلي بتؤدة؛ ذلك الشغف الذي يغدو معه الملل حامضاً، بدأت أقرأ وأنا مندهشة حقاً، هل إلى هذه الدرجة يشكّل الرق همّاً إنسانياً على البشرية؟ كنت على ثقة مطلقة بأن أجداد عبده كانوا قبل عشرات السنين عبيداً، ليس لبشرتهم السوداء فحسب، إنما لأن الرق يشيع في النفوس شعوراً بالدونية، وحباً للتملك فيما بعد، فعبده دائماً ما يشعرني بأنني مملوكة له فعلاً، وفي أحيان كثيرة أشعر بدونيته التي تؤلمني حد الاشمئزاز من نفسي، مثلما حدث البارحة حينما عدنا إلى المنزل، فكان لا يجامعني إلا بعد أن يمصّ أصابع قدمي كلها، عندها أتأكد من أنني مقبلة على فصل جنسي عنيف لا يقاوم!.

كل ما كان مكتوباً في الصفحات يثير الدهشة، فالرق سمة إنسانية لم تكن حكراً على العرب فقط، وهذا ما يجعل الناس يتقاطعون معها في كل الأرض.. كنت أقرأ وأنا لا أدري ما صحة ما هو مكتوب، فما يكتب في صفحات الانترنت يعد وجهة نظر لا تعني الحقيقة أبداً، قرأت كثيراً إلى أن

بدأت أشعر بهمّ هذه الصفحات يثقل على روحي، ففتحت بريدي الإلكتروني هرباً من ذاكرتي التي ستمتلئ بكل ما كان مدوّناً؛ فأن تصبح أسيراً لذاكرة معبأة بالصدأ، فحتماً سيأتي اليوم الذي ستتآكل فيه روحك شبراً شبراً. لم أجد في البريد أية رسالة ذات أهمية، وجدت رسائل عدة من شركة إعلانات تسوّق لمنتج جديد لها، فأغلقت البريد، وفتحت موقع جريدة الثورة السورية، مع أنني كنت أمقت التزلف الواضح للنظام السوري في بلد يدّعي بأنه ديمقراطي، فتحت صفحة الثقافة في الجريدة فوجدت نصاً قصصياً بعنوان **«شيء يأتي ويذهب»** لكاتب سوري شاب، كان النص يحكي قصة شاب وفتاة أحبا بعضهما بعضاً في إحدى المحافظات السورية، لكن قسوة الحياة حوّلت ذلك الشاب النزيه إلى مختلس بعد أن التحق بوظيفة حكومية، ومن خلال التحقيقات أجاب بطل القصة عن سبب اختلاسه قائلاً: «إن الدافع الحقيقي وراء هذا الاختلاس هو أنني كنت سأضمن من خلال هذه السرقة أن يكون لي مكانة في هذا البلد فيما بعد!»، وأنهى الشاب قصته، وسؤال يلح عليّ: هل صحيح بأننا كسوريين نعاني من أزمة في ضمائرنا تجاه الماديات؟. في تلك الأثناء بدأت أتذكر ماهراً، حبيبي الذي هجرته منذ أكثر من شهر، فهل حاولت اختلاس نبله، ووفائه، وحبه، وهاجرت إلى بلاد النفط؟ وهل أنا حقيرة فعلاً لأنني وضعت نفسي تحت إمرة رجل لا يمكن أن يرقى إلى مستواي لمجرد أنه يملك حفنة من النقود؟ وهل المال هو كل شيء في هذه الحياة؟ يا الله كم هو قاس أن تدرك فجأة وجع قراراتك الخاطئة، وأنت في غمرة نتائج هذه القرارات، لكنك لا تستطيع أن تغير شيئاً!. ماهر ذلك الشاب الوسيم، اللذيذ الوعي، الذي حمل حبه لي لأكثر من خمس سنوات، فأنا متأكدة من أنني كنت قاسية معه لدرجة بدأت أشعر معها بأنني قاسية مع نفسي أيضاً، حينما قلت لأمي بعد إلحاح غير طبيعي «حسناً يمكنكم أن ترتبوا أمور الزواج، فأنا موافقة»، فهل يمكننا نحن البشر أن نستمر في القسوة على أنفسنا بهذا الشكل؟

أغلقت جهاز الحاسوب الذي يشبه حبلاً دائماً ما يشنق ضميري لدرجة أشعر معها أن ضميري سيموت حتماً، لكنه في آخر لحظة يكشر عن لؤمه، ويتركه مترنحاً يسعل، ويستفرغ دماً من دون أن يموت؛ فهنالك مواقف في الحياة تصبغنا بخبثها، ودناءتها، وإفرازاتها القذرة لمجرد أنها تذكرنا برداءتنا كزواجي من عبده بالضبط، وكتعامل خالي مع زواجي هذا على أنه صفقة تجارية، حتى حينما وجدني أبكي في حجرتي بعد أن ضغطت عليّ أمي بقبول عبده كزوج، فقد قال لي:

ـ يا سحر، يا حبيبتي، أنا أريد لك الخير، ولو لم أر في زواجك من هذا الرجل خيراً ما سعيت فيه.

ـ لكنني لا أريده، أنا أحب ماهر، ولن أتزوج سوى ماهر.

ـ وماذا سيقدم لك ماهر؟ فالحب وحده لا يكفي لمواجهة الحياة يا سحر.

ـ أنا لا أحب هذا الرجل، وهو فوق هذا رجل أسود، فهل يرضيك أن أتزوج من رجل أسود؟

ـ هذا الرجل الأسود سيقدم لك ما يعجز عنه حبيبك ماهر، يمكنك أن تطلبي منه أي شيء ليوفره لك.

ـ أرجوك كفى يا خال...

وانخرطت في بكاء حامض مثل من يلعق دمه، وأنا أتذكر كلمة خالي وصفي «الحب وحده لا يكفي لمواجهة الحياة يا سحر»، فهل ما قاله صحيحاً؟ أم أن الخيبات تجعلنا نعيد النظر في العبارات التي يدلقها علينا الآخرون ولا نتنبه لها؟ لا أدري بالضبط. كان الوقت عصراً، ودوماً ما تغزوني مرارة ذكرياتي في هذا الوقت؛ فالعصر هنا طويل جداً، وليس لديك من عمل إزاء طوله هذا إلا أن تتجرع هزائمك، وتلعق جراحك. اتجهت إلى الحجرة وخلعت كل ملابسي وتناولت منشفتي من الخزانة، وسرت عارية إلى الحمام.

ملأت حوض الاستحمام ماءً حاراً، وتمددت في الحوض مسترخية أتأمل جسدي تحت الماء، وأطراف شعري تعوم فوق صفحته، وبين الفينة والأخرى أحرك ساقي لأنني لا أحب أن أشاهد عانتي بوضوح بعد أن ولغ منها ذلك الأسود. بقيت لأكثر من نصف ساعة ممددة في هذا الحوض، وكنت خلالها أتذكر عدة مواقف حصلت لي مع ماهر، فذات يوم خرجنا عصراً من الجامعة، وطلب مني الذهاب معه للتسكع في أرجاء دمشق، هذه المدينة المتهالكة مدنياً مقارنة بالإرث التاريخي العظيم الذي تحمله، تلك المدينة التي أحبها، أحبها لأنها المدينة التي حفظت طفولتي، وربّتها، وتمددت فيها مراهقتي، ليشتد عودها، وتصير أكثر فتنة، فالمدن مثل البشر دوماً ما تحمل في داخلها جوانب نبيلة.

ركبنا (السيرفيس) متجهين إلى سوق «الحميدية»، كان يمتلئ بالناس الحقيقيين غير المزيفين، كنت أشعر بأنني إنسانة حقاً حينما أسير هناك، فنحن لا نشعر بإنسانيتنا في الأماكن الفاخرة المليئة بالزيف، إنما نحس بها حين نسير في الأزقة الضيقة. كان منظرنا غريباً وسط السوق، ونحن نحمل مذكراتنا الجامعية في أيدينا، وننظر هنا، ونضحك لرؤية ذاك. كنا نقلب البضائع بين أيدينا، ونسأل عن أسعارها، ولا نية لدينا في الشراء؛ فثمة شعور يلازمني حينما أسأل عن أسعار البضائع ولا نية لي في الشراء مثل شعور الممثل الكوميدي حين يقف على خشبة المسرح ليُضحِك الآخرين، وهو لا يثق بوعيهم، وعقولهم. سحبني ماهر من يدي، ودخلنا إلى محل لبيع البوظة، اشترينا منها وجلسنا في زاوية المطعم نتناولها بلذة، ولا أنسى أنني أكلت آخر ملعقة من صحن ماهر بعدما مدها لي بيده.

كانت ثمة حكايات كثيرة تنبعث من ذاكرتي كخيط من الليزر، وليس هنالك أصعب من البقاء مع الذاكرة في حوض استحمام!. قمت من الحوض أتقاطر ماء وذكرى، توجهت إلى حجرة النوم دون أن أكلّف نفسي عناء أن أنشّف جسدي، كنت أسير حافية القدمين على ذلك السيراميك البارد الذي

يشبه وخز ألم الأسنان. وقفت عارية أمام المرآة أنشف شعري، بعدها بدأت في ارتداء ملابسي، ووضع زينتي بهدوء مطلق؛ فالحياة علمتني كامرأة بأن التزيّن بالنسبة للمرأة يشبه الطبخ تماماً، يحتاج إلى نار هادئة في كثير من الأحيان. لا أذكر بالضبط كم بقيت أمام المرآة أرتدي ملابسي، وأتزيّن، لكنني على يقين من أنّ الوقت الذي استغرقته يتجاوز الساعة والنصف. عندها التقطت هاتفي المحمول الذي كان على (الكوميدينة) لأجد رسالة من أم حسين جارتي التي تقطن الطابق العلوي كتبت فيها:

«مساء أبيض يضمّك حيل بأحضانه...

مساء يهدي أمل وردي لأجمل وأعذب إنسانة».

تذكرت زيارتي لها مساء البارحة. لقد كانت امرأة جيدة، لكنها لم تخفِ كونها سعودية تملك الحقيقة المطلقة للأشياء، فالسعوديون يشعرونك دوماً بأنك غريب عنهم بسبب تلك الدهشة التي لا تفارق أعينهم إذا رأوك، أو تعاملوا معك، أو بدأوا ينصتون إليك حينما تتحدث. كنت أنوي أن أرد عليها برسالة، لكنني أجّلت ذلك لوقت لاحق. فتحت رسالة جديدة وكتبت لعبده **«لقد مللت وأنا أنتظر في المنزل، حاول أن تعود سريعاً، فأنا جاهزة في انتظارك»**. انتظرت لأقل من ثلاث دقائق لتصلني رسالة من عبده كتب فيها **«أنا آسف يا حياتي، سأكون عندك بعد نصف ساعة، اشتقت إليك»**.

كنت بكامل زينتي وسط الصالة كامرأة في بداية ليلة حب، مددت يدي إلى كتاب كان فوق الرف الذي يحتضن مستقبل القنوات، كنت أقرأ فيه عصر أمس، فدوماً ما يشعرني وقت العصر بأنه أثقل أوقات اليوم، فهو يشبه حضور السياسيين ثقيلاً، ومملاً، ومليئاً بالزيف. كان الكتاب عبارة عن رواية لروائية صينية شابة، فتحتها من حيث انتهيت البارحة وبدأت أقرأ، غرقت في عالم «شنغهاي» الذي كتبت عنه تلك الروائية إلى أن أعادني رنين هاتفي المحمول بجانبي، لقد كان المتصل عبده، رددت عليه:

ـ أهلاً.

ـ أهلاً يا حلوتي، أنا أنتظرك عند باب البيت.

ـ حسناً، سألبس عباءتي وأوافيك.

أغلقت الخط لأكتشف أنني انتظرت عبده لمدة تزيد عن ساعة منذ وصول رسالته الأخيرة، سارعت في ارتداء عباءتي التي كنت أشعر معها بأنني فتاة مسيحية مجبورة على حضور قدّاس الأحد أسبوعياً، خرجت لأجد عبده في السيارة أمامي، أحكمت إغلاق الباب خلفي ورأيته يمد يده من مكانه ليفتح لي الباب عن يمينه، ويدفعه جهتي، ولجت السيارة وحينما استقررت في المقعد كان هواء التكييف ينبعث بشدة ليصدمني، وكانت تنبعث كلمات غزلية من فم عبده، تزامن ذلك كله مع صوت أغنية كانت تخرج من جهاز التسجيل في السيارة، وصوت مؤذن مسجد الحي يقيم لصلاة المغرب.

لم يكن ثمة خيارات عدة أمامنا للعشاء، فتبوك مدينة تعرف كيف تربي أهلها على تناول عشائهم في المنزل، لذلك كان مطعم «ميس الريم» هو أول خيار مطروح أمامنا، لأنه يمنحنا خصوصية تامة كما يدّعي عبده، فثمة بعض البلدان تجبرك على التخفي واللصوصية كالسعودية تماماً، فأنا منذ عرفت هذا البلد لم أشعر يوماً بأنني أمارس حقي الطبيعي في التعايش كامرأة، فهو بلد يسلب من المرأة حرية التعايش والتماهي مع المجتمع بحجة أن المرأة جوهرة ثمينة ينبغي أن نصونها.

لا أنكر أنني كنت أبذر الريبة في وجه كل من يصادفني برفقة عبده، سواء في السوق، أو في المطعم، أو عند إشارة ضوئية، ولا أنكر ابتسامة النادل يوماً حينما دخلنا إلى مطعم لتناول العشاء، فلم يكن منه حينما رأى عينيّ البيضاوين، ويدي وهي تخرج من أكمام العباءة برفقة رجل أسود كهذا إلا أن ابتسم ابتسامة مروجي المخدرات الذي نراهم في الأفلام السينمائية، ووضعنا في زاوية قصيّة من ذلك المطعم؛ لأنه يريدنا أن نمارس أشياءنا بشكل مريح. ولأن الوقت لا يزال مبكراً على العشاء أخذ عبده يتسكع بي في مدينة تبوك، ويعيد نفس الأحاديث المكرورة ذاتها التي اعتدتها:

ـ أحس وأنا معك بأنني أسعد مخلوق في هذا الكوكب.

أو:

ـ تأكدي يا حياتي بأن كل ما أفعله لأجل إسعادك؛ لأن سعادتك تهمني كثيراً.

أو:

ـ ماذا هنالك؟ لماذا كل هذا السكوت؟ تكلمي، قولي شيئاً.

وأنا منهمكة في قراءة لوحات المحال التجارية، أو الإعلانات في الشوارع بصوت خفيض، ولكن عندما يصل إلى هذا الحد من الحديث أمسك بيده، وأقوم بالضغط عليها برفق، ومثل كل مرة يحاول أن ينفث ذكاءه أمامي كلاعبي الخفّة فيقول «أدرك حجم الخجل الذي تشعرين به من جراء كلامي هذا، حسناً لا تتكلمي!»، فيقوم بعدها بلعبته المشهورة فيقول: «هيا يا حلوة دعينا نلعب، أريد أن أرى مدى قوة ذاكرتك». عندها يبدأ بسؤالي عن معالم المدينة التي نتجوّل فيها، عن أسمائها، وبعدما عرّفني بمعظم معالم مدينة تبوك، قال:

ـ ما هذا المَعْلم عن يمينك؟

ـ إنه معلم معروف، فهو مصلى العيد.

تقدمنا قليلاً إلى أن وصلنا إلى الإشارة الضوئية، فسكتُّ قليلاً فأضاءت خضراء، فسار بهدوء وسأل:

ـ عند الإشارة التي أمامنا الآن ماذا سيكون على يميننا، دون أن تنتظري لتقرأي اسم ذلك المعلم؟

ـ أعتقد أنه مستشفى الملك فهد.

ـ والحي الذي يقع فيه هذا المستشفى ما اسمه؟

ـ لا أعلم.

ـ حي شمال الجمرك يا ذكيّة.

وقفنا عند الإشارة الضوئية التي كانت في مواجهة مستشفى الملك فهد، وحينما أضاءت الإشارة باللون الأخضر انعطف عبده يساراً، وسألني:

ـ هذا المبنى الذي يقع عن يمينك ما هو؟

ـ لم أره جيداً.

ـ هذا مبنى الأحوال المدنية بمنطقة تبوك.

دخلنا إلى شارع متوسط الحجم، ولا أدري ما سر الرهبة التي تملكتني حينما دخلنا إلى هذا الشارع، لكن عبده فسر لي هذه الرهبة دون أن يعلم بها حينما قال:

ـ هل ترين هذا المسجد عن يسارك، هو مسجد الملك فهد، وفيه مغسلة الموتى، وعادة ما يصلون على الموتى في هذا المكان.

وكمن صفعني على وجهي أخذت أحدّق في هذا المسجد، والموت يتعملق في مخيلتي، فدوماً ما كنت أخشى الموت وأنا بكامل زينتي، لأن كائناً مثل الموت مرعب بهذا الشكل لا ينبغي أن يتمتع بالجمال أبداً. بقيت صامتة في السيارة وعبده يثرثر، شعرت بضآلة حقيقية، فنحن حينما نتذكر الموت نصمت؛ ليس لأن الموت مرعب، إنما لأننا نكتشف إلى أي مدى نحن ضعفاء حينما يأتينا كائن غريب وخفي، ليأخذنا على حين غرّة ويمضي. أخذني هاجس الموت كثيراً إلى أن عدت إلى وعيي بعد إلحاح عبده عليّ بالسؤال:

ـ هل تريدين أن نذهب إلى أحد المقاهي لتناول القهوة حتى يحين موعد العشاء؟

ـ لا فأنا جائعة، وأعرف بأنني لو شربت قهوة فستسد نفسي عن تناول العشاء.

اتجه عبده شرقاً ناحية الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة بعدما سمع ردي هذا، وكنت طوال الطريق أحدق في لوحات المحال التجارية

والإعلانات في الشوارع، واقرأها بصوت أعلى من السابق، وعندما وصلنا إلى دوار «الرمانة» على مشارف مدينة تبوك شرقاً قال عبده:

ـ لقد كان هذا الطريق ملاذي الوحيد في هذه المدينة، فحينما أشعر برغبة في العزلة كنت استقلّ سيارتي وآتي إلى هنا، أقود السيارة صامتاً، وأتحدث مع نفسي.

كنت أعرف بأن كل البشر في هذه الحياة يحتاجون إلى أن يختلوا بأنفسهم يوماً حتى السود منهم؛ فضغط الحياة أحياناً يشعرنا بتقزمنا وضعفنا، لذا نرغب دوماً في البقاء وحدنا ولو للحظات. كان عبده يقود السيارة في هدوء، قابلتنا إشارة ضوئية فتوقفنا أمامها، وسألت عبده سؤالاً دون معرفة ما السبب وراء امتطاء ذلك السؤال قلت:

ـ لماذا تزوجتني يا عبده؟

نظر إليّ باهتاً للحظات، ثم بدأ يضحك، وأجاب:

ـ طبعاً لأنني أحبك.

ـ أنت لم تعرفني مسبقاً بالشكل الجيد، لماذا لم تحب امرأة من بلدك وتتزوجها؟

ـ لم يخطر ببالي أن أتزوج من بلدي.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

سكتّ مترددة قليلاً بعدما سمعت إجابته الأخيرة هذه، بقيت تحت وطأة الضمير في أن أجرحه بسؤال آخر، لكنني تجاسرت وقلت:

ـ هل من الممكن أن أسألك سؤالاً، وأتمنى ألا تفهمني خطأ؟

ـ تفضلي يا حياتي.

ـ هل لون بشرتك له دخل في اختيارك لامرأة من خارج هذا البلد كزوجة؟

ـ لا أبداً، كان بإمكاني أن أتزوج امرأة من هنا من دون أية مشاكل.

ـ يعني لو تقدمت لامرأة بيضاء هنا لتتزوجها، فهل سيوافق أهلها عليك؟

ـ هل تريدين الصدق، لا أعتقد لأنه التفكير يختلف إذا تعلّق بلون بشرتك.

عندما سمعت هذه العبارة تبادر إلى ذهني كلام أم حسين مساء البارحة، فَلُذت بالصمت، وأخذت أحدق فيما خلف الزجاج بجانبي دون أن أميّزه إلى أن وصل عبده إلى مجمع تجاري ضخم، وقف وطلب من أحد العمال أن يملأ السيارة بالوقود، وأثناء ذلك سألني مرة أخرى:

ـ هل تريدين شيئاً من هذا الكوفي شوب الذي بجانبنا؟

ـ أريد ماء فقط.

بعدما نقد عامل المحطة حساب الوقود اتجه إلى محل القهوة الذي كنا بمحاذاته، وطلب منه قهوة تركية بالحليب، وقارورتي ماء. أخذنا نسير في الطريق الموصل إلى المدينة المنورة حتى غابت عنّا أضواء المدينة، وبدأت العتمة تتمدد في المكان كبقعة زيت عملاقة، وعبده يثرثر، ويلح عليّ بأسئلته وحكاياته. كنت دوماً ما أطلب منه أن يرفع صوت جهاز التسجيل في السيارة إذا ازدادت حدة أسئلته، فعندما طلبت منه رفع صوت جهاز التسجيل هذه المرة خرجت أغنية عبدالمجيد عبدالله «هلا بش» بلحنها الراقص، فلم يتمالك عبده نفسه وأخذ يتراقص في المقصورة، فابتسمت جرّاء ذلك ابتسامة تشبه ترضية طفل، فلم يعد يذهلني منظره وهو يتراقص، فقد تآلفت مع هذه الخصلة، لأن كل من يملك بشرة سوداء ذو خصلة فرائحية عالية الجودة.

عدنا إلى المطعم، وتناولنا طعام العشاء، ومن ثم اتجهنا إلى المنزل، وفي الوقت الذي رمى فيه عبده شماغه وعقاله في الصالة، دخلت أنا إلى غرفة النوم لأبدل ملابسي، وحينما نزعتها لارتداء قميص نوم مناسب سمعت صوت باب الحجرة يُفتَح، ويدخل عبده مبتسماً بشهوانية غريبة، احتضنني بشدة، وأخذ يقبّل خدي ورأسي وفكي الأسفل، ويده اليمنى موغلة في أحلامي،

فبدأت أدوخ، وشعرت بغفوة طويلة.. لم أكن أشعر بجسمي حينما دفعني على السرير، ولم أشعر بأي شيء آخر، كانت تلك اللحظات تشبه التأمل في الجنة، لم أخرج منها إلا حينما ولجني بقوة وعنف، شعرت حينها بأنني سأموت، وعدت إلى وعيي لأكتشف بأن من فوقي هو هذا الأسود الثقيل كبرميل نفط، كان عنيفاً، وعنفه هذا يؤلمني لدرجة أشعر معها بأنني معتقلة في سجن سياسي، ولم ينتهِ فصل العذاب هذا إلا والدموع تجري على خدي. الغريب أن سلوكه السادي هذا كان يتكرر دوماً.

(اليوم السابع والعشرون)

ككل يوم أبدأه، صَحوتُ على أشياء لا أحبها.

استيقظت على وجه عبده وهو يتأملني، ويده اليمنى تداعب خصلات شعري، كان يحدّق بي برقّة السواد، كان يتأملني وكأنه في عالم آخر يثرثر فيه. فتحت عيني وهالتني بوذيته تلك، كنت مستلقية على ظهري، وعندما رأيته بهذا الشكل لم أُخفِ ارتياعي من منظره. سحبت جسدي إلى الأعلى، وأسندت ظهري إلى حافة سرير نومنا الفاخر ذاك وسألته:

ـ ماذا بك؟

ـ يعجبني أن أنظر إليك وأنت نائمة.

أخذت نفساً عميقاً كان يتسكع أمام أنفي، ونفثت بقايا الخوف الذي كان يتربع رئتي، وقلت:

ـ فقط؟!. لقد أخفتني.

حاول أن يكون ظريفاً معي فقال:

ـ يبدو أن هنالك قطاً يسكن في داخلك!

قمت بعد أن سحبت قميص نومي الملقى على طرف السرير، ولبسته، وفتحت خزانة الملابس أفتش عن ثياب لارتدائها بعد أن أستحم. كانت الساعة قرابة الواحدة ظهراً، فسألته:

ـ لماذا لم تستحم؟

ـ أنتظرك.

سكتُّ بعدما سمعت جوابه هذا، تناولت الثياب من الخزانة، واتجهت إلى الحمام، وأنا أدعو الله ألا يأتي ليستحم معي، لكن الله لم يستجب لدعائي؛

فما إن أغلقت الباب خلفي حتى فتحه ودخل. فتح صنبور الماء، فانهمر الماء على جسده الفارع الممتد أمامي كمنجم فحم، اغتسلت على عجل أمامه، لم أكن أنوي البقاء أكثر، فكلما بقيت أكثر كلما شعرت بالضآلة والتلاشي، فهممت بالخروج بعد أن غطى الماء كامل جسدي فسألني:

ـ إلى أين؟

ـ سأذهب لتحضير الغداء.

ـ ما رأيك لو طلبنا غداء من المطعم؟

ـ كما ترى.

ـ إذن ارجعي وأغلقي الباب، وحينما ننتهي سأطلب غداء من المطعم.

عدت على مضض، وما أقسى أن تحاول الاغتسال من همّ ليلة صفراء على مشارف ذكورة دمرتك جنسياً. كنت أحلم دوماً بأن استحم بعد ليلة حمراء مع من أحب كماهر مثلاً، لكن عبده بدد طموحي هذا، ودمّر أحلامي، فنحن ربما نتآلف مع من نكره إذا عشنا معهم تحت سقف واحد، لكننا لا يمكن أن نتآلف مع من بددوا أحلامنا أبداً. فالأحلام مثل الشرف لا تتكرّر مرتين!. عندما خرجنا من الحمام سارعت في ارتداء ملابسي، فاتجه عبده إلى الهاتف، واتصل بالمطعم المجاور، وأخذ يثرثر معه. كنت أسمعه يقول: «نعم، الرز لنفر واحد، نعم، انتظر قليلاً»، ثم ناداني قائلاً:

سحر: هل تريدين بيبسي أم سفن أب؟

ـ سفن أب.

أجبته وأنا أحاول ربط بنطالي الجينز الذي بالكاد دخل في جذعي الأسفل، لقد كان، أي ذلك البنطال يعرف كيف يرسم ملامح جسدي وكأنه رسّام شهواني، ثم عاد صوت عبده مرة أخرى: «نفر كباب، ونفر أوصال لحم، ونفر رز، وورق عنب، وحمص، وواحد بيبسي، وواحد سفن أب، رقم اشتراكنا 105 بحي المروج». عاد عبده، ودخل عليّ الحجرة كمحقق، كنت قد انتهيت من ارتداء ملابسي في ذلك الوقت، فخرجت مسرعة من الغرفة،

ولم يكن منه إلا أن قرص مؤخرتي. تمددت على الكنبة في الصالة، وأخذت أقلّب القنوات الفضائية. في تلك الأثناء دخل عليّ عبده الصالة وهو يرتدي قميص نوم بنّياً، فقلت له:

ـ هل تريد قهوة؟

ـ لا.

ـ سأصنع لي قهوة لحين مجيء الغداء.

ذهبت إلى المطبخ لأنني كنت أود الهروب منه فقط، أخذت أصنع قهوتي بآلية مفرطة. أضع الماء في (الكنكة)، وأضعها فوق النار حتى تغلي، ثم أخفّض النار قليلاً وأضع القهوة، وأحركها مراراً مراراً، ثم أتركها لدقيقة أو دقيقتين، ثم أطفئ النار، وأسكبها في فنجان القهوة وأستلذ بمذاقها المرّ. في ذلك الوقت كنت أفكر كيف لي أن أطلب من عبده نقوداً لإرسالها لأمي، أنا التي أخذت منه نقوداً قبل عشرة أيام فقط؛ فأن تشعر بأنك مصدر دخل ثابت لأناس آخرين شعور مرهق حقاً، فالمرء يشعر بأن نفسه عبء عليه أحياناً، فكيف يحس إذا ما عرف بأن هنالك أنفساً أخرى تعوّل وتكون عبئاً إضافياً عليه؟ فأهلي أدخلوني في مقامرة رديئة مع عبده، سلموني إياه بغرض أن أكون لهم ماكينة صراف أغدق عليهم من مال هذا الأسود البائس، الذي لم يدر بخلده يوماً بأنه بالنسبة لنا مموّل ساذج، وأن خالي وصفي عرف كيف يلتقطه من بين كل أولئك السعوديين الذين يترنحون في دمشق، فقد سمعته يتحدث مع أمي بعد يوم من مفاتحته لها بموضوع زواجي من عبده قائلاً:

ـ إنها فرصة لأن تعيش سحر بشكل أفضل، فهي تستحق ذلك، وهذا الرجل على الرغم من سواده إلا أنه يملك الكثير من المال، وسيوفّر لكم كل الأشياء التي تحتاجونها.

ـ لكنها سترفض يا وصفي، فأنت تعرف بأنها تحب ماهرا ابن الحج خليل، وستتزوجه، ولن تقبل بهذا الرجل.

ـ حاولي إقناعها بأي شكل كان، فلو تزوجت ماهراً فلن تعيش بالرفاهية ذاتها التي ستعيشها مع هذا الرجل.

والآن أنا أشعر بأنني دخلت في مقامرة رديئة فعلاً. فأنا لا أعرف كيف أبتدئ معه في موضوع كهذا، لأنني لا أريد منه أن يشعر بمدى الخسّة الرديئة التي يحملها خالي وصفي، ولا أدري كم كانت تملك أمي من الجرأة حينما فاتحتني عصر البارحة في موضوع النقود هذا، صحيح أنها لم تصرّح بحاجتها للمال، لكنني أعرفها جيداً؛ فدوماً ما ترمي لي بأطراف رغبتها لألبيها ككلب مطيع. ما كان يثير ضيقي فعلاً مستلزمات ابتهال الجامعية، هي التي تريد أن تكون فتاة جامعية بامتياز.. فليس المهم بالنسبة إلى الفتاة الجامعية هو أن تذهب للجامعة كل يوم لحضور دروسها، ونيل الشهادة في النهاية، إنما المهم أن تستطيع التخرّج من الجامعة بشهادة وقلب رجل؛ فالنساء لا يُعتبرن ناجحات في الشرق إذا لم يستطعن الحصول على قلب رجل على أقل تقدير.

عدت إلى عبده وحينما رأيته تبادرت إلى ذهني لعبة بشعة، فقلت له:

ـ السكر يكاد ينفد.

ـ اكتبي لي كل أغراض المنزل التي تريدينها، وسأشتريها الليلة.

صمتُّ قليلاً، ثم قلت:

ـ أتعرف يا عبده بأن توفير السكر في بيتنا في سوريا كان يسبب لنا مشكلة.

ـ معقولة؟

ـ نعم، البارحة اتصلت بي أمي، وجلست أداعبها قائلة «هل لديكم سكر في المنزل؟» فتوقع ماذا قالت؟

ـ ماذا؟

ـ لا يوجد لدينا سكر، وأغلب الأغراض الأساسية لم نرها منذ أكثر من أسبوع.

لم يرد، وطال سكوته، فقلت متداركة الأمر:

ـ أتمنى أن أكون قريبة منهم، لأوفر لهم تلك الأغراض.

ـ يا حبيبتي أعرف مقدار وفائك؛ فأنت امرأة بارّة بأهلك، سأحاول أن أرسل لهم نقوداً الليلة، وليشتروا كل ما يريدونه، ليس السكر فقط.

بدأ شيء في داخلي يتنامى حينما شعرت بأنني كسبت هذه الجولة دون أن أجرحه، أو أخدش نفسي. شربت قهوتي على مهل وبتلذذ، فالمرأة تحس بأنها أنثى حقيقية حينما تستطيع التحايل على رجل ما طوعاً منه. جاء الغداء، تناولناه بهدوء ولذة، وحالما انتهينا سارعت لأصنع لعبده كوباً من الشاي، تناوله وهو يشاهد فيلماً تاريخياً، عندها سمعت صوت الأذان في المسجد المجاور فقال عبده:

ـ بماذا تشعرين حينما تسمعين الأذان؟

ـ أشعر بعظمة الله.

ـ وماذا يتبادر إلى ذهنك؟

ـ أول ما يتبادر إلى ذهني أنني استطعت التآلف مع إغلاق المحال التجارية وقت الصلاة هنا.

ـ وهذا هو الفعل الصحيح.

ـ لا ليس صحيحاً كما تظن.

ـ نوّريني يا فاهمة.

قال هذه العبارة بشيء من السخرية. كنت أدرك أن السعوديين يشعرون بأنهم الوحيدون الذي يملكون حقيقة الدين، بينما الآخرون كلهم على خطأ، لكنني ابتلعت مرارتي، وقلت:

ـ لم يُشر أي نص ديني إلى إغلاق المحال التجارية أثناء الصلوات ما عدا صلاة الجمعة، ولهذا لا تقل لي بأن إغلاق المحال التجارية هو الصحيح.

ـ إذا لم يغلق الإنسان محله أثناء الصلاة كيف يمكن أن يصلي؟

ـ وإذا أغلقه هل سيصلي فعلاً؟ هنالك الكثير من الناس يغلقون محلاتهم التجارية، لكنهم لا يصلون، وأنت تعرف هذا.

ـ نحن لا علاقة لنا بالمرء إن كان يصلي أم لا؟ الدولة فرضت هذا النظام على كل المحال التجارية لأجل الصلاة، ومن لم يصلِّ فهذا الأمر بينه وبين ربه.

ـ أعرف ذلك، لكن لا تقل لي بأن إغلاق المحال التجارية أثناء الصلاة هو الصحيح، من يريد أن يصلي سيصلي حتى لو لم يفرض عليه إغلاق محله، لكنكم شعب يحب التمظهر بالدين.

ـ بدأ الكلام الفارغ، سأذهب للصلاة أفضل.

ذهب عبده لارتداء ملابسه والذهاب إلى المسجد، وبقيت صامتة وقد أرهقني كلامه هذا، فلماذا يشعر السعوديون دوماً وحدهم من يعرفون الدين بالشكل الصحيح؟ ولماذا يفترضون في غيرهم أنهم غير متدينين؟ هل لأن مكة المكرمة والمدينة المنورة مدينتان سعوديتان؟. لا أدري، لكنني موقنة بأن الأشياء الخاطئة إذا ما تكررت على مسامعنا على مدار أكثر من نصف قرن ستستحيل مع الأيام إلى حقائق ثابتة، فهذا ما حدث للسعوديين بالضبط. لم أصحُ من خيالاتي إلا على صوت رنين هاتفي المحمول في حجرة النوم، انطلقت إليه والتقطته، كنت أريد أي شيء يشغلني عن أسئلتي وأفكاري هذه، كان المتصل «أم حسين» جارتي التي تسكن فوقنا في الطابق العلوي، رددت عليها:

ـ أهلاً أم حسين.

ـ أهلاً سحر كيفك حبيبتي؟

ـ بخير، كيفك أنت؟ وكيف هو طفلك الجميل؟

ـ بخير ولله الحمد.

ثم أردفتْ:

ـ أين أنتِ لا نراكِ؟ أنا لا أتصل عليك محرجة منك؛ لأنك لا تزالين عروساً، أريد أن تأخذوا راحتكم.

ـ ولو يا أم حسين، لكن بكل صدق لا أجد وقتاً لأتصل، فاعذريني.

ـ معذورة، هل لديك عمل هذه الليلة؟

ـ لا أعرف، لماذا تسألين؟

ـ ستأتي أمي لزيارتنا الليلة برفقة أخواتي، وكذلك بنات خالتي، وأريد أن أعرفهن إليك، فإن كان لديك متسع من الوقت شرفينا بالحضور.

ـ أتشرف بذلك، سأسأل زوجي وسأرد عليك.

ـ وأنا في انتظارك.

أغلقت الخط، وبقيت في انتظار عبده لحين عودته من المسجد.. كنت أسمع صوت إمام المسجد، وأتخيل هيئته وهو مع زوجته «أم حسين» يتحدثان بحميمية، فدوماً ما كنت أشعر بشغف للحديث مع رجل ملتح، كنت أحس بأن الحديث معهم ممتع حقاً، فهؤلاء الملتحون يملكون أفكاراً مختلفة، وأتوقع أن طريقتهم في الحديث مختلفة أيضاً، على الرغم من أنني لا أنفي شعوري بأن صراخهم سيرتفع حينما يتحدثون، مع كرهي الفظيع للصراخ في الحديث. عاد عبده من المسجد، فاستقبلته في الصالة، وسألته:

ـ أين ستذهب الليلة؟

ـ لم أفكر بعد، لكن لماذا تسألين؟

ـ اتصلت بي جارتنا أم حسين، وطلبت مني تناول العشاء عندها؛ لأن أهلها سيزورونها.

ـ يمكنك الذهاب، وسأتدبر أمري.

ـ اذهب لصديقك «يحيى أبو جركن».

ـ كنت معه ليلة البارحة، أم أنك نسيتِ؟

ـ لم أنس، لأنك لم تخبرني بذلك، فقد ذهبت ولم تخبرني إلى أين ستذهب!.

كنت أنحاز إلى يحيى كثيراً، فهو أحد الأشخاص الذين تعجبني حكاياتهم وقصصهم، فقد حكى لي عبده أجزاء من قصصه، فهو أسطورة الحارة كما يقول، كنت أتمنى أن أقول لعبده «ليتني كنت معك»؛ لأنني فعلاً

أتوق لمقابلة هذا الرجل، فهنالك بعض الأشخاص تشعر بأن وجودهم في الحياة وجود حصري لا يتكرر كيحيى تماماً، ليس لأنه بطل، إنما لأنه يعرف جيداً كيف يعيش هذه الحياة، فقليلون جداً من يجيدون عيش الحياة كما ينبغي.

اتجه عبده إلى غرفة النوم، وشرع في ارتداء ملابس غير التي كان يرتديها، فهو يكثر من تغيير ملابسه، ارتدى ثوبه الأبيض المكوي بعناية، وغترته البيضاء الناصعة، وضع عقاله على رأسه بطريقة توحي للناظر بأنه محترف في اللبس السعودي، ورش عطراً فاخراً على جسده، وخرج من الغرفة يتهادى بجسده المتناسق إلا من عرجة واضحة، وحينما وصل إليّ سألني عن حذائه الأبيض، فأخبرته أنه سيجده خلف باب حجرة النوم، عاد إلى الغرفة، ولبس حذاءه، ووقف أمامي بملابسه البيضاء، وحذائه الأبيض كملاك ذي بشرة سوداء، وعرجة مضحكة، وودعني وذهب، وقبل أن يصل إلى الباب قلت له:

- لا تنس أن ترسل النقود إلى أهلي.
- إن شاء الله.

عندما سمعت صوت قفل الباب، تناولت هاتفي المحمول، وكتبت لأم حسين رسالة قصيرة: «**سآتيك الليلة، وأتشرف بمعرفة أهلك، وشكراً لك يا أم حسين**»، ورميته بجانبي على الكنبة، واتجهت لمتابعة رواية صينية التقطتها من فوق الرف في الصالة، وأخذت أقرأ فيها طوال فترة العصر، لم يكن يقطع قراءتي إلا ذهابي إلى المطبخ لصنع قهوة، وتناول بسكويت ابتاعه لنا عبده قبل أيام، ولم أنتهِ من القراءة إلا على صوت مؤذن الحي يؤذن لصلاة المغرب.

ذهبت لإنجاز ما يتوجب عليّ، وبدأت أعد العدة لعشاء الليلة، ثم وضعت قليلاً من المساحيق على وجهي، تناولت أحمر الشفاه ورسمت شفتيّ كما يجب، ووضعت ظلاً خفيفاً فوق عيني، كنت أعمل على وجهي بآلية صرفة

كرسام يقتات على رسم وجوه العابرين وبيعها. تناولت مجفف الشعر وبدأت في تسريح شعري بهدوء وعناية. بالمختصر بقيت على هذا النحو فترة المغرب كلها إلى أن سمعت أذان صلاة العشاء، وأنا أعد نفسي لعشاء أم حسين هذا، ومع أنها لم تكن المرة الأولى التي أزورها فيها إلا أنني لم أكن أعرف السبب وراء كل هذا الاهتمام، لكنني دوماً ما أعوّل على الأنثى في داخلي.. فالمرأة لا تحب أن تعود إلى مكان زارته من قبل بالهيئة ذاتها مرتين. بعد صلاة العشاء مباشرة اتجهت إلى الطابق العلوي حيث تسكن جارتي، بدّرت في الذهاب، لأنني كنت أنوي مساعدتها إن كانت تحتاج لمساعدة. طرقت الباب، ففتحت أم حسين من دون أن تسأل عمن خلف الباب. بادرتني بالقبل وأدخلتني إلى الصالة وأنا أسوّغ لها حضوري المبكر هذا بقولي:

ـ اعذريني لأنني أتيت مبكراً، فقد أتيت لأساعدك إن كنت تحتاجين للمساعدة.

أبداً لقد أتيت في وقتك، أما المساعدة فالخادمة موجودة.

لم أدر بماذا أرد، مع علمي بأنها لا تملك خادمة، فلم أر خادمتها في المرة الأولى فسألتها:

ـ لم أر خادمتك في المرة الأولى؟

ـ ليس لدي خادمة، لكن أمي لديها خادمة، وهي قادمة الآن.

حاولت أن أتناسى خصلة الترف هنا، صحيح بأن كل ما يُروَّج عن ثراء الخليجيين لا يتقاطع كثيراً مع الواقع، لكن الأسر هنا، بشكل عام، تعيش على مفهوم الترف، حتى لو لم يكونوا أثرياء؛ فعقدة الطبقية في هذا المجتمع متماهية جداً، لذا يحاول غالبيتهم كسرها باستمرار. تحدثت مع أم حسين كثيراً، كانت كل ثرثراتنا تتمركز حول سوريا، وكانت كثيراً ما تردد على مسامعي بأن إحدى أمانيها أن تزور سوريا، وستحاول أن تقنع أبا حسين بذلك، على الرغم من أنه رجل محافظ كما تقول، فعندما سمعت كلامها سألتها باستغراب:

ـ ولماذا لا يذهب بك إلى سوريا، وهو رجل محافظ؟

ـ لا أعلم، لكنهم يقولون بأن سوريا لا تصلح للمحافظين.

ـ لماذا لا تصلح؟

ـ يقولون بأنها بلد مليء بالمحرمات، واعذريني على هذا الكلام.

ـ المحرمات في كل بلد، فهل السعودية خالية من المحرمات؟

ـ حتماً هنا يوجد محرمات، وأنا آسفة لو كنت قد أغضبتك، فلم أكن أقصد.

ـ لا أبداً، لكنني أحببت أن أسأل فقط.

أدارت أم حسين دفة الحديث باتجاه موضوع آخر، كنت على ثقة بأنها تريد أن تتجنّب إحراجي في عدم الخوض في مثل هذا الموضوع الشائك، لكنني لم أفهم ما السبب الحقيقي وراء هذه الذاكرة المرعبة التي يحملها السعوديون إزاء سوريا، ولماذا سوريا في نظرهم بلد للمحرمات؟ وما السبب وراء الطهرانية التي يفترضها السعوديون في أنفسهم وفي بلدهم؟ لكنني متسامحة جداً معهم، لأنني أعرف بأننا ننظر إلى أوطاننا بفخريّة دوماً. أخذنا نثرثر في أشياء كثيرة، وبين الفينة والأخرى كنت أشعر بأنها تريد تمرير فكرة ما في داخلها تجاه ارتباطي بعبده، فكنت أحاول أن أتجاهل هذا الفضول الزاخر في نفسها، لكنني لم أستطع وراء إلحاحها الطويل أن أسكت، فقد قالت:

ـ أبو حسين يمتدح عبده كثيراً، لكنه يستغرب من عدم رؤيته في المسجد.

ـ بالعكس هو دوماً ما يذهب للصلاة في المسجد، لكنه أحياناً يصلي في البيت.

ـ ألهذه الدرجة لا يستطيع أن يتركك؟

ضحكتُ بخجل على كلامها، فزادها هذا الضحك جسارة، فأكملتْ:

ـ يا أختي هو لا يُلام في ذلك لأنكِ جميلة، ومن يملك امرأة مثلك من الضروري أن يصلي في المنزل.

ـ خجلتِني يا أم حسين.

ـ أبداً، أنت فعلاً جميلة لكنني مستغربة حقاً... وإلا لا داعي لذكر ذلك.

ـ لا أبداً قولي ما تريدين.

ـ لن أقول؛ لأنني أخشى أن تغضبي.

ـ ولو يا أم حسين.

ـ هو رجل أسود، وأنت فتاة مثل القمر، كيف..

قاطعتها قائلة بحزم:

ـ الزواج قسمة ونصيب، وهذا نصيبنا.

وكأي تلميذة تنهرها معلمتها عن ممارسة مشاغباتها سكتت. سكتت، وهي لا تعرف ماذا تفعل؟ فقامت من فورها إلى المطبخ بعد أن استأذنتني، وأنا مدركة بأن ذهابها هذا لم يكن إلا محاولة هرب بائسة. لم تعد من المطبخ إلا على صوت جرس الباب الذي لم يتأخر كثيراً. انطلقت إلى الباب، وفتحته بعد أن نظرت من العين السحرية التي تقبع في وسط الباب، وقد بدأ توافد النساء، وبدأت تزداد الربكة، ويعلو الصراخ...

كنا نثرثر في أحاديث كثيرة، وكلما أرادت إحداهن فتح موضوع عن سوريا معي، كانت تتدخل أم حسين لتفض هذا الموضوع، كانت أشبه بوكيل أعمال لي، وكنت متصالحة مع هذا الوضع، بل إنني أحببته كثيراً... الغريب أن كل أولئك النسوة في ذلك الجمع كن متشابهات في كل شيء، ويتشاركن في معظم الأشياء، كانت أحاديثهن في غالبيتها عن الرجال، وكن جميعهن متناصفات الجمال، لذا كان آخر سؤال طرحته قبل أن يبدأ الفصل المرعب والمؤلم:

ـ لماذا النساء البيضاوات في بلادكم يتحدثن عن الرجال كثيراً؟

ولم أنتظر إجابة منه، وأضفت:

ـ ولماذا هن متناصفات الجمال في المجمل؟

(اليوم السادس والعشرون)

إنني لم أكن أفهم معنى أن تُجمّدك المدن إلا بعدما تزوجت!

حين أغلق عبده الباب خلفه وقف أمامي كإلهة، وطلب مني النهوض كملك، ووقفت أمامه كرهينة، فلم يكن منه إلا أن احتضنني بين ذراعيه القويتين وصدره العملاق، فشعرت بأن أضلاعي تتكسر، وبقينا على هذه الحالة قرابة دقيقتين. صدقاً كان صدره يحمل دفئاً كنت أحتاجه، لكنني لم أكن أحتاج دفء حضن رجل كعبده، رجل جاء لسرقتي من حبيبي لمجرد أنه أستطاع أن يقنع خالي بالزواج منه. سألني عبده بعد أن أخلى سبيلي:

ـ ماذا تشربين؟

ـ قهوة مرّة.

ضغط على زر أحمر اللون كان معلقاً على جدار هذه الحجرة الصغيرة، فأضاءت لمبة فوق حلق الباب من الخارج، وبعد أقل من دقيقة سمعنا طرقاً خفيضاً على الباب، كان طرقُ عمّال المقاهي الذي يحسنونه. خرج عبده، وتحدث مع عامل هذا المقهى الذي يعرف جيداً كيف يتحدث، وكيف يمشي، وكيف يلبس ثيابه، فقد كان شعار المحل يتربع صدره بشكل رائع، ويرتدي ملابس بنّية اللون متناسقة جداً مع ألوان ديكور المحل، لتشعر بأنه قطعة أثاث فاخرة تسير على قدمين... طلب لي قهوة مرّة، وطلب لنفسه قهوة تركيّة بالحليب، وعاد إليّ. جلس أمامي وعدّل من هيئة جلوسه مرات عدة، طلب مني أن أمد له يدي، فمددتها، أمسك بها وضغط عليها قليلاً، فلم يكن مني إلا أن قلت:

ـ إلى أين ستذهب الليلة؟

- تواعدت مع يحيى أبي جركن، سنذهب إلى أحد الأصدقاء.
طبعاً أنت تحب يحيى كثيراً.
- زعيم حارتنا، وصديق الطفولة.
ثم أكمل بعد أن ضحك كثيراً...

أتعلمين أن لديه حكايات لا تحدث إلا معه فقط، فحينما كنا صغاراً قبل قرابة عقد ونصف أو تزيد قليلاً كان محترفاً في السرقة...

فاستطرد يصف تلك الحادثة قائلاً: في يوم من الأيام وقفت سيارة توزيع مواد غذائية أمام بقالة من بقالات حي المنتزه، وكان مؤذن الحارة يؤذن لصلاة العشاء، فذهب سائق تلك السيارة بعد أن أوقفها في ركن من أركان حيّنا إلى المسجد لأداء الصلاة، فقام يحيى يوشوش لنا قائلاً: «من يراقب لي، وستأكلون اليوم بسكويتاً لذيذاً؟»، فهب الجميع بالموافقة على عرضه هذا، فانطلق إلى البيت، وعاد وفي يده سلك حديدي لتعليق الملابس، فك عقدته من الأعلى، ثم ساواه، فانطلق إلى سيارة الموزع. لم نكن نعرف حينها موهبة يحيى في السرقة، فقد أدهشنا حقاً حينما رأيناه وهو يرفع يد باب السائق، ويدس السلك من تحتها، وفي أقل من دقيقة فتح الباب، وقفز إلى الحوض الخلفي من السيارة، وفتح لنا الباب الخلفي الذي يُفْتَح بشكل أفقي على امتداد جانب السيارة الأيسر كاملاً، حينها لم يكن منا إلا أن انطلقنا جميعنا إلى السيارة، وكانت المفاجأة أننا رأينا كميات هائلة جداً من البسكويت بأصناف وأنواع مختلفة، فأردنا الانقضاض عليها، لكنه قال بدهاء الصبيان الذين يجيدون السرقة:

- لا تأخذوا كل شيء، لأنكم لو أخذتم كل هذا البسكويت سيعرف العامل بذلك، ولن يعود مرة أخرى إلى هنا، خذوا على قدر حاجتكم فقط.

عاد الطرق الخفيض مرة أخرى، فقام عبده وفتح الباب، وتناول الطلب من يد العامل ووضعه على الطاولة أمامنا. تناولت كوب قهوتي، وأنا أفكر في نباهة يحيى في قصته هذه على الرغم من فشله الدراسي، فقد أعطاني عبده

نبذة عنه، لكنني تيقنت مؤخراً بأن الخبث في داخل الإنسان أمر فطري، فالإنسان كائن خبيث بطبعه، فالتمايز في الخبث أمر عادي: بينما التمايز في الأشياء النبيلة هو الأمر غير العادي، فنحن نستطيع أن نشتم بكل سهولة، لكنه يصعب علينا أن نتغاضى عمن شتمنا؛ ففعل الخبث أسهل دوماً من فعل التغاضي عنه!. كان يتحدث عبده عن يحيى ويضحك، لكنه لم يكن يعرف بأنه يغرسه في داخلي أكثر، كان يتعامل مع حكايات يحيى على أنها جزء فكاهي من التاريخ والطفولة، بينما كنت أتعامل معها على أنها دروس استمِدّها من الزمن كتصرفات الأنبياء، وردود أفعال الرسل، وحوادث العظماء. في ذلك الوقت قال لي عبده «إن هذا الأسود حبّيب»، وحين انتبهت لجملته هذه رفعت حاجبي إلى الأعلى مستغربة، وحثثته على الحديث فقال: كان هنالك فتاة من جيراننا تدعى «خيرية»، وكانت هذه الفتاة من الفتيات السمراوات اللاتي شغلن شباب الحارة من ذوي البشرة السمراء، لأن حارتنا كانت مقسومة إلى قسمين: القسم الأول هم السود، والقسم الثاني هم البيض، فكان السود يطلقون على البيض لقب «البدو»، وبالمقابل كان البيض يطلقون على السود لقب «العبيد»، وكانت تدور بيننا هنالك حرب ضروس، فنادراً ما كنا نختلط ببعضنا البعض.. في تلك الأيام كان السود يترفعون عن معاكسة بنات البدو، ولا يقتربون منهن أبداً، حتى وإن كانوا يعرفون بأن هذه الفتاة، أو تلك من فتيات البدو ستستجيب لمعاكساتهم، وبالمقابل أيضاً كان يفعل «البدو» ذلك مع بنات العبيد كما يقولون، إلا أن بعضهم في مرات قليلة بسيطة كانوا يشتمون بنات السود، ويطلقون عليهن بعض المصطلحات الساخرة والجارحة التي يمكن أن تكون سبباً في شجار عنيف تسيل فيه دماء الأنوف والرؤوس إلى الصدور. كان يحيى يحب «خيرية»، وهي بدورها أحبته حتى فاحت رائحة حبهما في الحارة، واتفق الجميع على أنهما سيتزوجان، لكن هذا الذي لم يحدث فيما بعد على الرغم من معرفة الجميع بأن قصة حبهما هذه كانت قصة نارية.

كنت أستمع لعبده وهو يسرد، وصور حكاياته هذه تتطاير في مخيلتي، حتى حينما وصف حبهما بالناري بدأت أتخيل شكل رأس يحيى والنار تندلع منه، فأنا لا أدري لماذا أحسست بأن هذا الوصف دقيق جداً، ربما لأنني موقنة بأن الحب الحقيقي يبعث على الحرارة، فكلما ازددنا حباً كلما زادت سخونة مشاعرنا، وأنفاسنا، وأعضائنا!. أكمل عبده يقول: كانت خيرية ذات يوم عائدة من المدرسة ظهراً، هي التي تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً في ذلك الوقت، كانت لا تزال تدرس في بداية المرحلة المتوسطة، وبينما هي تسير برفقة عدد من زميلاتها الصغيرات متجهات إلى منازلهن، كنا نقف أنا ويحيى ومجموعة من الشباب في زاوية من زوايا هذه الحارة المليئة بالأزقة، والأتربة، والحفر، وعند مرور خيرية وزميلاتها بجانبنا تفاجأنا بصراخ يحيى وهو يقول:

ـ ألا تشعرون بأن هذه الحارة مليئة بالخير؟

حين سمعنا سؤاله الساخر هذا انفجرنا ضحكاً، فرد عليه «أحمد مونس» بسخرية معرّضاً بخيرية المكتنزة قليلاً في ذلك الوقت:

ـ يمكن لأن وزن الخير زائد قليلاً!

فردت خيرية بغضب واضح، وسخرية مبطنة:

ـ لا يا شيخ!

وأخذت تسير بسرعة أكثر، والغضب يتطاير من مشيتها، فحاول يحيى أن يتدارك الأمر الذي وضعه فيه أحمد قائلاً:

ـ أنت قليل أدب يا أحمد ولا تستحي!

فرد أحمد مستغرباً من كلام يحيى:

ـ ماذا تقصد يا أسود؟

لا شيء.

شعر يحيى بأن محاولته الغزلية هذه باءت بالفشل، هو الذي أحب خيرية كمسن يسترجع ذكرياته على شرفة منزله المتهالك، لكن «أحمد مونس» أفسد

عليه هذه المحاولة، فلم يستطع يحيى أن يبقى صامتاً فلحق بخيرية وزميلاتها، وحينما تجاور معها قال:

ـ لم أكن أقصد ما قاله أحمد.

ـ

ـ أرجوك لا تفهميني خطأ.

ـ ماذا كنت تقصد يا ذكي؟!

ـ أقصد أنه

ـ لو سمحت أبعد عني، ولا تضطرني لأن أخبر أخي «حسن» بالموضوع، وأتمنى ألا تعترضني مرة أخرى.

كانت خيرية الأخت الصغرى لـ«حسن خبزة»، أحد أكبر سكارى الحارة، وعلى الرغم من العلاقة الوثيقة بين «يحيى أبو جركن» و «حسن خبزة» إلا أن يحيى كان يخجل بأن يتصادم مع حسن في موضوع كهذا، على الرغم من معرفة حسن بالحب الذي يحمله يحيى في قلبه لأخته الصغرى خيرية، فقد كان يحيى على علاقة جيدة مع حسن، ومع أنه لم يكن يتناول الخمر إطلاقاً، فقد نبتت بينه وبين حسن علاقة جيدة نظراً لأنهما جيران منذ وقت طويل، وعندما اتجه حسن لشرب الخمر قام يحيى بالاحتفاظ بمسافة جيدة بينهما، بحيث لا يخسر حسن من جهة، ولا يدخل معه في عالمه هذا من جهة أخرى. أسرع يحيى في خطواته وتجاوز خيرية ومن معها، وهو يحمل حقداً مبالغاً في داخله تجاه «أحمد مونس»، فأراد أن يصلح ما أفسده هذا الأسود بعد أن بدأ يلوّن حياة خيرية بالطريقة التي يريدها كدهّان محترف. وبينما كان عبده يسرد هذه الحكاية سمعنا رنين جهازه المحمول في جيبه. أخرجه ورد سريعاً قائلاً:

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ

ـ مع زوجتي في مقهى نتناول القهوة.

ـ ....

قال ضاحكاً:

ـ ماذا تريد؟ أم أنك تنوي زيارتنا الآن؟

ـ نعم مقهى «مستر كيف».

ـ

ـ من معك؟

ـ

ـ يا أخي هذا لا يعرف مؤخرته إلى أين تتجه!

ـ

ـ حسناً حينما أنتهي من شغلي سأمر عليكم.

أغلق الهاتف ورشف من فنجان قهوته التركية بالحليب. أخذت أنظر إليه في بلاهة أريد منه إكمال حكاية يحيى، لكنه حدّق فيّ متسائلاً:

ـ ماذا بك؟

ـ أنتظرك تكمل حكاية يحيى.

ابتسم بطريقة موجعة شعرت معها بأنه مستاء من اهتمامي بتفاصيل حكاية يحيى هذه، لأن ثمة بعض الابتسامات مثل الصدمات الكهربائية، مخيفة، صادمة وموجعة، فقال وهو يمسك بكوب القهوة في يده دون أية مبالاة:

ـ ما تبقى من القصة تعرفينها جيداً، فأنا أشعر بأنك تعرفين يحيى أكثر مني!

أوجعتني هذه العبارة مثل أن تقرص أم ابنتها بعدما تفوّهت بأشياء لا يمكن قولها أمام النساء، كان وجعها الخفيف ذاك لذيذاً في حين، ومحبطاً في حين آخر، ولأول مرة أشعر بأن عبده يحس بالفخر من نفسه دون أن يتعلق فخره هذا بي، وهي المرة الأولى التي يحاول فيها أن يتعامل معي وفق منطق الندّية، فقد كان دوماً ما يضع نفسه في مرتبة أقل مني؛ لأن الجمال في الحياة

يرفع من قيمة الفرد كثيراً. صحيح أنني لم أكن مستعدة لأن أتخلى عن موقعي في داخله؛ فأنا فوق قراراته، ومراراته، وقناعاته، ومبادئه دوماً، لكنني كنت أنتظر يوماً أن يشعرني بالطمأنينة، فنحن النساء حتى وإن كنا نسعى لتلبية مطالبنا دوماً إلا أننا نحترم كثيراً من ينهرنا، من يرفض دلالنا الزائد، ومن يستطيع أن يقول لنا بقلب بارد كجثّة: لا أستطيع.

كنت حينها أفكر في جملة عبده تلك، وأنا ارتشف بهدوء من فنجان قهوتي المرّة، وبرغم المرارة التي كنت أتذوقها من تلك القهوة شعرت بحلاوة لا مثيل لها، ولم أفطن إلا على صوت عبده، وهو يلملم أشياءه من فوق الطاولة ويقول: «هيا لنذهب». وضعت فنجاني على الطاولة مع بقايا قهوة سوداء تقبع في قعره، وتناولت عباءتي التي لم أحسن التصالح معها إلى الآن، والتقطت حقيبة يدي، وخرجت. كان عبده يقف أمام البائع ليدفع له الحساب، والبائع لا يزال يرسم ابتسامته تلك بآلية مفرطة. ركبنا السيارة، ومع إدارة عبده لمحرك السيارة انبعثت أغنية أبو بكر سالم من جهاز التسجيل كان يقول:

«باشل حبك معي وبألقيه زادي..

مرافقي بالسفر

وباتلذذ، باتلذذ بذكرك في بلادي..

سرنا شرقاً باتجاه منزلنا، تجاوزنا دواراً محروساً بإشارة ضوئية، ففي تبوك أكثر ما يواجهك الدوارات، فهي مدينة بسيطة جداً؛ فيها تجد حقيقة الشعب السعودي، ونادراً ما ترى مظاهر الثراء الفاحش، فأهلها من متوسطي الدخل، ولأنها مدينة عسكرية في الأساس يغلب على ساكنيها صفة الاستهلاك، لكن ما يحيرك حقاً فيها حينما تجد شاباً لا يحترم الإشارة الضوئية فيتجاوزها عندما تكون حمراء، لكنه يقف بكل احترام أمام الدوار أثناء قيادته، فالدوار في تبوك مكان مقدّس يشبه المساجد والكنائس، ولحظات الكسوف.

كنا نعبر الشوارع، وأنا أتأمل أغطية وجوه النساء فيها، وأقرأ لوحات المحال التجارية، فأنا لم أر أي فتاة تكشف عن وجهها هنا، وعلى الرغم من

ذلك لم أتآلف مع غطاء وجهي، ففي كل مكان هنا تجد النساء المنقبات، تجد الملتفّات بالسواد، حتى إنني استغربت كثيراً؛ فلم أر امرأة تتحدث مع زوجها أو أخيها أو أبيها وهي تستقل السيارة، كن صامتات لا يتحدثن، كن أشبه بالأصنام، أو الأخشاب، أو التحف المعلّقة في مرايا السيارات الأمامية، فحين سألت صالحة بعد خمسة أيام من مجيئي إلى السعودية عن هذا الأمر أجابت قائلة:

ـ ربما هن يتحدثن، لكنك لا تلحظين ذلك، لقد أعتدنا ألا نحرّك أيدينا ورؤوسنا، أو نلتفت ونحن نتحدث أثناء ركوبنا السيارة.

صدقاً حتى هذه اللحظة لم أجد سبباً مقنعاً لبقاء النساء هنا كالجمادات أثناء ركوبهن السيارة، لكنني أعتقد بأن بلداً كهذا دوماً ما يفترض في تصنم المرأة مروءة وفضيلة، فالبلد الذي تكون فيه المرأة كالصنم بلد يعيش بنصف وجه، ونصف وعي، ونصف براءة، ونصف فضيلة!. قبل أن نصل إلى البيت كان صوت مؤذن الحي يصلنا جهورياً ومزعجاً، ويبذر أمامنا سنين الكهولة التي يحملها هذا الرجل، فسألت عبده:

ـ لم يجد أهل الحي إلا هذا الكهل ليكون مؤذناً لهم؟

أهل الحي لا يختارون المؤذنين.

من يختارهم إذن؟

ـ وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

ـ وهل الوزارة لم تجد إلا هذا الكهل؟

ـ ماذا يعيبه؟

ـ صوته مزعج جداً.

ـ هو لا يغني، إنه يؤذن للصلاة.

ـ حتى ولو، ينبغي أن تكون أصوات المؤذنين والأئمة جميلة، فالناس تخشع لأصحاب الأصوات الجميلة.

ـ ربما لم يجدوا غيره.

ـ مستحيل لأنني أفترض في السعوديين جميعاً أنهم متدينون.

ـ لا تغرك المظاهر.

سكتُّ لأنني شعرت بأن عبده انتصر لي من حيث لا يعلم، فيبدو أن هنالك أشخاصا كثراً في هذا البلد يعرفون ما هم عليه جيداً، وهذه صفة جيدة بكل تأكيد، لكن هنالك أمر محيّر فعلاً: فما دام الرجال والنساء في هذا البلد يعرفون ما هم عليه جيداً، فلماذا دوماً ما يصرّون على طهرانيتهم؟ وهل الاعتراف بالحقيقة يسيء إليهم في شيء؟. أنزلني عبده عند باب البيت، وأخبرني أنه ذاهب إلى أصدقائه، وحين اطمأن أنني قد دخلت، وأحكمت غلاق الباب جيداً انطلق بسيارته. حين دلفت إلى الشقة وجدت كل شيء كما كان؛ هناك مسلسل تركي يعرض على شاشة التلفاز، وسلّة الفواكه كما هي على الطاولة في وسط الصالة، وبجانب السلة طبق صغير فيه بقايا تفاحة، وقشور موز، وبجانب الصحن سكين فواكه صغيرة ذات مقبض أسود. تناولت جهاز التحكم وأخذت أتجوّل بين القنوات كما هي العادة، لم أجد ما يغريني بالبقاء، فخلعت عباءتي ورميتها فوق كنبة الصالة ذات اللون الأحمر، بعدها ذهبت إلى غرفة النوم، وسحبت جهاز كمبيوتري المحمول من درج الملابس المعلّقة. فتحته بعد أن أرسلت رسالة قصيرة لهاتف ابتهال المحمول كتبت فيها: **«أنا الآن على الانترنت، إن كنتِ في البيت فادخلي لأتحدث معكِ، فأنا أريد رؤية أمي»**. بعد دقيقة وصلتني رسالة من ابتهال كتبت فيها: **«لست في المنزل الآن، لكنني سأكون هناك بعد ساعة، انتظريني، أريدك في موضوع مهم»**.

أخذت أعبث بالعالم الافتراضي. لم يكن ثمة ما هو ملفت بقية هذا اليوم، انتظرت ابتهال لساعة أو تزيد قليلاً، وحينما وصلت طلبت منها أن تجري معي محادثة مرئية، كنت أشعر باشتياق غير عادي لرؤية أمي، فطلبت منها أن تأتي بأمي لأتحدث معها، وعندما جاءت تحدثت معها كثيراً، سألتني عن أحوالي، وعن زوجي، وأهل زوجي، وعن هذا البلد الذي يشبه مجفف الشعر، ولم

يفتها أن تخبرني بأنهم يعانون من شح في أغراض المنزل ومستلزماته، شعرت بشرخ في داخلي، فلم يكن مني إلا أن طلبت منها أن تتركني أتحدث مع ابتهال؛ لأنني لم أكن أقوَ أن أعيش بنصف قلب، وربع كرامة، وذاكرة مليئة بالخدوش، حدثتني ابتهال عن موضوعها مع خطيبها السعودي الأبيض الذي تقدّم لخطبتها، وبدأت تختلق الكثير من الأعذار لهربه منها، فهو لم يعتذر حتى في الرفض، كنت أعرف السبب الحقيقي في اعتذاره، فرجل أبيض البشرة يحمل جنسية سعودية، لن يتزوج امرأة بيضاء تعيش أختها مع رجل أسود البشرة يحمل الجنسية السعودية إطلاقاً.

(اليوم الخامس والعشرون)

سنموت حتماً إذا لم نُكثِر من دلق الحكايات وتصديقها.

عندما انسللت من السرير، وعبده يتململ في نومه كمقروص راودتني أفكار غريبة جداً، شعرت بأن ماهراً قد مات. ولا أدري لماذا اكتسحني هذا الشعور المخيف والمرعب؟ لكن النساء إذا ما شعرن بأنهن خسرن شيئاً افترضن فيه الفناء. حاولت كثيراً طرد هذا الهاجس من داخلي. تناولت ملابسي من الخزانة، وذهبت لاستحم، أخذت أغنّي بصوت مرتفع بغية أن أطرد هذا الشعور بعيداً، كنت أحاول جاهدة أن أتغابى على أحاسيسي أو أراوغها. فتحت صنبور الماء، فبدأ ينسكب بارداً على كتفي، وحينما بدأ يزداد سخونة بشكل تدريجي وضعت رأسي تحته. كنت أغتسل، وأنا أغني بصوت شبه عال: فهل الغناء قادر على محو بقايا الذكريات السيئة؟ لا أعتقد لكنني موقنة بأننا نغنّي لكي نستطيع أن نكون جميلين أكثر.

بالرغم من كل الأشياء التي حصلت لي خلال هذه الأيام منذ أن تزوجت هذا الأسود إلا أنني أشعر بأني مقدمة على أمر جلل، لا أعرفه بالتحديد. ارتفع صوتي بالغناء أكثر، عندها سمعت صوت طرق على باب الحمام، وصوت عبده يتعلق بذاكرتي: «هل هناك من أحد يغني في الحمام؟». سكتّ خجلاً: فهل كان عبده يستمع لي؟ وماذا سيقول لو عرف ما في داخلي؟ أعتقد بأن البشر سيقتتلون لو عرف كل واحد ما في داخل الآخر تجاهه لاسيما المتزوجون منهم. سكت لأنني لم أكن أقبل أن أضع قناعاتي في مواجهة صارمة مع تربية عبده، فقد كان بإمكاني أن أقول لغير عبده «ماذا يمكن أن يحدث لو غنّيت في الحمام؟!»، لكنني بتُّ أعرف عبده جيداً؛ فهو نتاج هذه البيئة التي ترى

في الغناء شيئاً محرماً، حتى لو كان ذلك الغناء في الحمام. أكملت حمّامي الدافئ، وخرجت أكثر خفّة مما مضى، فنحن لا نشعر بوزننا الحقيقي إلا بعد أن نستحم بماء دافئ. دخلت غرفة النوم بعد أن رأيت عبده مستلقياً فوق كنب الصالة الأحمر، وهو يشاهد قناة غنائية يصدح فيها صوت محمد عبده بأغنية «لا تضايقونه». أخذت ارتدي ملابسي، لبست بنطالاً ورديا عليه صور لورد أحمر من الخلف، وقميصاً أبيض ضيقاً تتوسطه صورة لبرج إيفل، ووقفت أمام المرآة أصلح من هيئة شعري، فدخل عليّ عبده، واحتضنني من الخلف، وقبّل رقبتي، وقال لي بصوت خافت: «الحقيني بملابسي للحمام».

على الرغم من أن تلك الحركة التي قام بها عبده تذري في نفسي الطمأنينة، ودوماً ما تشعرني بدفء كنت أحتاجه، إلا أنني لم استسغها منه أبداً، ربما لو كان ماهر هو من قام بذلك لكنت التفت إليه، وبادرته بقبلة على خده، أو تعلّقت برقبته كطفل، فالرجل يكون أكثر لطفاً وسكينة حينما تقبّله المرأة على خده. هززت رأسي لعبده إيجاباً بأنني سألحقه بملابسه، وكأنني أريد الخلاص من يديه الضخمتين اللتين طوقتا خاصرتي، ويبدو أن عبده فهم ما كنت أرمي إليه، فأبعد يديه عن خاصرتي واتجه إلى الحمام، بقيت لدقيقتين أجفف أطراف شعري من الأمام، فطول شعري أحياناً كان يبعث في نفسي الكسل إزاء تجفيفه بكليته. بعدما انتهيت من شعري اتجهت إلى خزانة الملابس، واخترت لعبده ملابس نظيفة، وتناولت منشفته الطويلة؛ فهو فلم يكن بحاجة إلى منشفتين؛ لأن شعره كان قصيرا يخرج من منتصف رأسه على هيئة دمامل.

أعطيته ملابسه من خلف الباب وعدت. بقيت أمام التلفاز أقلّبه قليلاً، حتى وصلت إلى قناة كانت تعرض مسلسلاً خليجياً عن أسرة مكونة من ستة أشخاص يعيشون تحت خط الفقر، وهي تتألف من أم وابن وأربع فتيات، لكن الغريب في المسلسل أن هذه الأسرة رغم فقرها ذاك، تعيش في منزل فاره. حين مللت من المسلسل اتجهت إلى المطبخ لإعداد الغداء. خرج عبده من

حمام، ودلف إلى الصالة واستلقى، يكمل ما بدأته في متابعة ذلك المسلسل خليجي الذي يحكي قصة تلك الأسرة الخليجية. بقيت منهمكة في إعداد غداء، وفجأة سمعت صوته يحدث أحد أصدقائه في الهاتف يقول:

ـ حتى لو كان يمزح معي فقد أخطأ بحقي.

ـ

ـ يا أبا يوسف أنا سكتُّ له كثيراً، ويبدو أنه شعر بأن سكوتي له موافقة على كلامه.

ـ

ـ كل ما أريده منه أن يبتعد عن طريقي، وإلا سأهشّم أسنانه.

ـ

ـ لو كان يحترمني حقاً ما قال هذا الكلام.

كانت المكالمة تدور في هذا الفلك، فأدركت حينها بأن حدثاً ما جعل من عبده كائناً مسعوراً ليلة البارحة، فلم يتعامل معي كزوجة ليلتها إطلاقاً، كان قاسياً معي بشكل مدمر مثل مستعمِر، فما الذي حدث له؟ أين يكمن عدم الاحترام في كلامه لصديقه؟. كانت نبرة صوته تمتلئ بالحدّة وهذا ما خافني. لم أكن أعرف شيئاً، لكن ما كنت أعرفه جيداً أن ثمة شيئاً أقوى من قدرته على الاحتمال مثل حياتي معه تماماً. بدأت في إعداد السفرة، وكأنني لم أسمع شيئا. لم أسأله في البداية عن سبب غيظه وصراخه ذاك عبر الهاتف، كنت أعرف بأننا نقهر الذكر المتكبر في داخل كل رجل حينما نتجاهل تلك الأشياء التي تستفزه. لم يطل سكوتي ذاك إلا لأقيس مدى صراحة عبده معي مثلما تعودت بعد هذه الليالي المليئة بالشهوة والعذاب، فأنا موقنة بأن الرجل لا يحسن الثرثرة مع المرأة إلا حينما تشكّل له أزمة جسدية، فالرجل عندما يشبع من امرأة ما تصبح بالنسبة إليه أقرب ما تكون إلى الأثاث، أو الديكور يتلذذ بمنظرها لكنه لا يخاطبها إطلاقاً. في البداية لم يتحدث لكنني لمحت الغضب وقد بدأ يتسلق وجهه كسنجاب فسألته: «لماذا لا تأكل؟». سألته هذا

السؤال لأنني لم أرد أن أكون صادمة لغضبه، لذلك اتجهت لأقرب الأشياء إلى نفسه، وكنت بذلك أحسب المسافة بين غضبه وكبريائي، فلم أحرص على دفع الحديث من داخله دفعاً، فالرجال لا يحبون من يرغمهم على الحديث مثل عدم حبهم لمن يحاول أن ينتزع من دواخلهم الأشياء انتزاعاً.

ـ أقسم لك بالله بأن هناك بعض البشر كالحيوانات تماماً.

هكذا بدأ حديثه عما يدور في خلده بعدما وجدني صامتة لا ألوي على شيء، فوجدتها فرصة، فسألته:

ـ خير إن شاء الله.

ـ فوزي الحقير.

ـ من هو فوزي هذا.

ـ شاب من أصدقائنا في الاستراحة، نعرفه منذ مدة من الزمن، فهو الوحيد الأبيض في الاستراحة.

ـ ماذا حصل؟

ـ لقد تحداني على أن أهزمه ونحن نلعب الورق مساء البارحة، ولكنه هزمني بالمصادفة، فقلت له في النهاية: لقد هزمتني بالمصادفة فلا تفرح كثيراً، فرد علي برد مثل وجهه قال «لم يبق إلا أنت أيها العبد لتهزمني»!

ـ وبعدها؟

ـ فقلت له «لست عبداً عند أهلك يا ابن الكلب»، فقام أمامي، لكن الشباب في الاستراحة فرّقوا بيننا.

لم أعلق على ما قاله، ربما لأنني منذ أن تزوجته وأنا ألحظ تلك الأزمة التي يعاني منها إزاء بشرته، وما أوجع أن تكون في علاقة غير متزنة مع بشرتك!. مددت يدي وأكلت لقمة. كانت عيناي على الأكل، وفكري كله يحوم حول ما سيقوله، كنت أشعر بأنه لم ينته من حديثه بعد، وأنه يريد كلاماً مؤيداً لما يقوله ليشعر بالانتصار، لذا لم استغرب حينما قال:

ـ لا أدري لماذا يشعر البيض بأنهم أفضل منا؟ هل لأن بشرتهم بيضاء فقط؟

فأجبته أود مواساته فقلت:

ـ لا عليك فهذا رجل جاهل.

ـ حتى وإن كان جاهلاً، فالبشرة وحدها لا تكفي، يجب ألا ينظر البيض للناس بدونية، لكن أنا أحس بأنه لم يعش طفولة سوية!

ثم أكمل:

ـ ابن الكلب لا يستحيي، فكل من كانوا حوله سود مثلي، لكنه لا يتورع في قول هذا الكلام، الغريب أنه لا يستحيي في طلب النقود إن كان بحاجة لذلك، وفي الوقت ذاته يتحدث بمثل هذا الحديث، فهو من يحتاجني، وليس العكس!

وكأنه تنبه لوجود الغداء أمامه؛ مد يده وبدأ في تناول الغداء. كان يأكل، ويتنفس بصوت مرتفع، فخشيت عليه، فناولته كوباً من الماء شربه دفعة واحدة، وحين انتهى منه نظر إليّ نظرة حانية وقال: «الله لا يحرمني منك». ابتسمت له برفق مثل تلك الابتسامة التي تظهر على وجوهنا حين نقف عند إشارة ضوئية، ونشاهد طفلا مع أمه وأبيه وقد تعلّق بالنافذة الخلفية للسيارة. بعدما انتهينا من غدائنا طلب مني شاياً أخضر بدون سكر، فجهزت له ما أراد، وقرّبت له منفضة سجائره الزجاجية، فبدأ يثرثر، ويدخن، ويقلب التلفاز. تحدث معي عن بعض الحكايات في طفولته لم يعجبني منها سوى حكايته التي قال فيها بأنهم كانوا في حيهم القديم يعيشون في جماعات، فأولاد حارتهم لا يمكن أن يختلطوا بأولاد حارة «الشيخ»، وكان بينهم ولاء لبعضهم بعضاً، في الوقت الذي كانوا يضمرون كرهاً شديداً للحارات الأخرى، وذات يوم كانوا على موعد مباراة مع فريق حارة «الشيخ»، كان أيامها يدرس في المرحلة المتوسطة كما كان يقول، لكن أقرانه ممن لم يتأخروا في دراستهم كانوا في آخر سنة في المرحلة الثانوية، فحضر فريق حارة الشيخ؛ لأن حارتهم

تملك ملعباً جيداً. في ذلك اليوم كان حارس الفريق شاباً يدعى «سعيد البدوي»، وقد كان جباناً كما يدّعي، لكنه حين يكون هو ويحيى موجودين في الملعب يبدأ سعيد البدوي في اختلاق المشاكل؛ لأنهما كانا يقفان في وجه من يقاومه ويوسعانه ضرباً.. في تلك المباراة قام سعيد البدوي بركل أحد المهاجمين أثناء لعب ركلة ركنية، فالتفت له المهاجم وبصق في وجهه، فلم يكن من سعيد إلا أن صفعه على وجهه، فحاول المهاجم أن يشتبك معه، لكن بعض اللاعبين وقفوا بينهما، عندها لم يكن من الحكم إلا أن قام بطرد «البدوي» من الملعب. خرج سعيد، وحين وصل إلى خارج الملعب انقض عليه عدد من الجماهير ممن جاء مع فريق حارة الشيخ، ولم يستطع أحد إيقاف ذلك المد الكبير من الفوضى، وبدأت الجماهير، ومعهم اللاعبون أيضاً في الشتم والضرب وركل بعضهم بعضاً. انطلق عبده إلى سعيد، وحاول أن يحميه خلف ظهره، وبينما هو كذلك رأى أحدهم ينطلق إليه، كان شاباً يملك شعراً طويلاً، وحينما وصل دفعه يريد الوصول إلى سعيد البدوي الذي كان يختبئ خلفه، ولكن عبده لم يمهله لحظة واحدة فأمسكه من شعره، وقذف يده في وجهه عدة مرات حتى شعر بأن يده قد انكسرت، فسقط ذلك الشاب ذو الشعر الطويل على الأرض مغشيا عليه، وقد غطى الدم وجهه بالكامل.

مد عبده يده اليمنى لي وهو يشير إلى ظهر إصبع السبابة وقال:

ـ أنظري ألا تشعرين بأن شكل إصبعي هذا مختلف عن إصبعي الأخرى؟ هذا الاختلاف من آثار تلك اللكمات.

ثم أضاف:

ـ بعدما دافعت عن سعيد البدوي في تلك الأيام، تركني حتى سافرت لأتزوج بك، فهجم على أخي قاسم، وقام بضربه. هؤلاء البيض خونة.

كان هناك اعوجاج بسيط في ظهر إصبع السبابة يظهر واضحاً إذا ما دققنا في إصبعه جيداً. تحدث عبده كثيراً عن تلك الحادثة التي لم تنته إلا بحضور دورية من الشرطة كما قال. كنت أحاول ربط هذه الحكاية التي قالها

لي عبده مع حكايته مع فوزي مساء البارحة فلم أجد مسوّغاً لقولها، إلا أنه يجتر أشياء تمجّده، وتصنع منه بطلاً، فالضعفاء لا يجيدون إلا الحكايات ليصنعوا من أنفسهم أبطالاً لم يخرج عبده من المنزل في هذا اليوم. بقي إلى المساء. كان يثرثر ويحلّق في الفضاء حتى إنه بقي في مشاهدة قناة فضائية تعرض فتيات يعرفن ما تملكه أردافهن من غواية، فأكثروا من هزّها والتباهي بها كخاتم زواج، لكنهن في النهاية لا يملكن تلك الغواية المخيفة في الرقص مثل السمراوات، أولئك اللواتي أذهلوني برقصهن قبل يومين.

وفي كل مرة نجلس فيها في المنزل دون خطط لقضاء ليلة من ليالي تبوك المتشابهة طلب مني عبده أن أذهب، وأرتدي ملابسي الأكثر إغراء وأقوم بالرقص أمامه. لبّيت طلبه ذاك كابنة مطيعة، أو كابن يطمح للوصول إلى شيء في نفس والده بطاعته على وجه السرعة، وحينما انقضت شهوة الرقص في داخل عبده كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف مساء. ذهبت لحظتها لتجهيز طعام العشاء، وعبده ينتظر فيلماً سيعرض على إحدى الفضائيات علق عليه قائلاً: «سيأتي فيلم بعد نصف ساعة لا تفوّتيه».

لم أنته من تجهيز عشائنا الذي كان مكوناً من أفخاذ دجاج مقلية، وصحن من ورق العنب، وبطاطس مقلية، وسلطة خضراء، والعديد من أرغفة الخبز، إلا والفيلم قد ابتدأ. تناولنا العشاء وشاهدنا الفيلم، وما إن انتهى الفيلم حتى اقتادني عبده من يدي إلى غرفة النوم بملابسي الأكثر إغراء.

(اليوم الرابع والعشرون)

ليس أمامنا سوى النوم عندما تكون نشوتنا أكبر من مستوى قدرتنا على التماسك.

استيقظت متأخرة؛ لأن من يحضر عرساً للسود سيعرف حتماً أي معنى للنوم العميق.. كنت أعتقد بأن النساء هنا ممن يحملن بشرة سوداء يبالغن كثيراً في الاحتفاء بمناسباتهن، لكنني أيقنت فيما بعد بأن السود هم الذين يدركون معنى أن يعيش المرء هذه الحياة مرة واحدة، فأحلامنا وأوهامنا وخيباتنا لا نعيشها إلا مرة واحدة، فينبغي أن نتماهى معها، لأننا ربما نيأس من أوهامنا، أحلامنا، وخيباتنا، لكننا نموت إذا لم نتقاطع معها يوماً، فليس إنساناً ذلك الفارغ من كل شيء حتى الخيبات والهزائم!.

كانت الساعة قرابة الخامسة عصراً. فتحت عيني غير قادرة على تمييز الأشياء من حولي. كنت مرهقة حقا، لقد كانت المرة الأولى التي أعرف فيها كيف يمكنني أن أقيس المسافة بين الجسد وغوايته إزاء قرع الطبول، لم أكن أعرف فيما مضى بأن للجسد أسراراً لا تخرجها سوى الموسيقى، ولا يبعثها سوى الرقص. رقصت البارحة كثيراً حتى أحسست بأن هذه الليلة لن تتكرر مرتين؛ مثلما يحس الإنسان حينما يعرف بأن يوم غد هو يوم سيقاد فيه إلى ساحة القصاص، كنت أشعر بأنني لابد أن آخذ كل ما أستطيعه من بهجة ومتعة؛ لأن المرأة التي تأتي مراسم بهجتها بأوامر ذكورية، ستصبح سادية جداً في تعاملها مع لحظات نشوتها.

كان عبده مستلقياً فوق كنبة الصالة، وقد أسند رأسه إلى ذلك المسند الأبيض المشوب بالحمرة يشاهد التلفاز. أمامه على الأرض سفرة طعام يبدو

أنه عرف كيف يفترسه، فالرجال فوضويون جداً في تعاملهم مع الأكل مثل الأطفال تماماً. اتجهت إلى الحمام، وأخذت دشّاً، وخرجت وقد استعدت شيئاً من توازني، شيئاً من نشاطي، شيئاً من وعيي، وبدون أن ينظر إلي عبده قال لي: «ستجدين في المطبخ بعض الطعام تركته لك، لقد طلبت الغداء من المطعم».

في الواقع كان الجوع يحكم قبضته على معدتي، فانطلقت إلى المطبخ، وقمت بإعداد ما أبقاه لي عبده من طعام، وحين وضعت الأكل على الأرض أمامي، وبدأت في الأكل قال لي:

ـ لم أشأ أن أوقظك، كان واضحاً جداً أنك متعبة.

ـ فعلاً لقد كنت أشعر بتعب شديد.

تناولت لقمة كانت في الملعقة أمام فمي، وشربت وراءها رشفة من لبن بارد لذيذ الطعم، وأكملت:

ـ لقد رقصنا البارحة بشكل جنوني.

فرد عبده ضاحكاً:

ـ السمراوات يعشقن الرقص.

ـ هذا ليس عشقاً إنه تقديس، في حياتي لم أر أناساً يحبون الرقص، ويتفننون فيه كما رأيت البارحة.

ـ بالمناسبة حتى الرجال السود يجيدون الرقص.

ـ إذن هي خصلة لذوي البشرة السمراء.

كنت منهمكة في أكلي، وعبده يثرثر معي، ويشاهد التلفاز، وبين فينة وأخرى يسألني سؤالاً مخاتلاً. قال:

ـ من الذي لفت انتباهك ليلة البارحة؟

ـ كل شيء بلا استثناء.

ـ ومن هي التي أدهشتك حقاً؟

ـ امرأة تدعى «ناجية سعيد»، فحينما اعتلت هذه المرأة منصة الرقص

كأن الجميع أصيب بغيبوبة، لدرجة لم يصعد معها أحد، فبقيتْ ترقص لوحدها على المنصة، لم أكن أعرفها، لكنني حينما سألت عنها قالوا لي اسمها.

ـ هل تعلمين بأن هذه المرأة عُرِضت عليّ كي أتزوجها، لكنني رفضت.

ـ لماذا؟

ـ لكي أتزوجك أنت!

ـ وأختك صالحة أدهشتني أيضاً برقصها، لم أكن أتخيل بأنها تجيد الرقص بهذه الطريقة الفاتنة.

ـ نعم لقد كانت مشهورة منذ صغرها بالرقص، لكنها لم تعد تلك الشابة النشيطة.

ـ على العكس لا تزال شابة.

ـ أبداً لم تعد تلك الشابة التي كانتها قديماً، لو شاهدتِها قبل عشر سنوات ما قلت بأنها شابة الآن.

ثم أكمل:

ـ أتذكر عرساً أقيم في حارتنا قبل خمسة عشر عاماً أو تزيد، كانت صالحة في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها، في ذلك العرس كانت صالحة حكاية على كل لسان.

وبدأ في التحدث عن ذلك العرس الذي أقيم وسط حارتهم، فقد كانت الأعراس في تلك الأيام كما يقول تمثّل انتفاضة لدى كل أهل الحارة بلا استثناء؛ فالكل يهمه أمر هذه الأعراس، الكل يعمل فيها، شباب، وشيوخ، ورجال، ونساء لتخرج على أتم وجه، حتى لمن لم يكن له قرابة مع أهل هذا العرس أو ذاك. كان العرس قبل أن يمثّل أهله يمثل الحارة كلها، حتى أنه علّق على هذه المسألة بقوله «كان الناس قريبين من بعضهم بعضاً، ليس كما نراهم الآن في تنافر». كانت العروس في ذلك اليوم بنت جارهم «حليمة العوراء» فقد تزوجت ابن عم لها قدِم من القرية. ولقبها هذا لم يأت لأنها عوراء، إنما لأنها لم تكن تستطيع إصابة أحد من شباب الحارة ممن كانوا يتندرون عليها

لكبر ثدييها، فحينما كانت حليمة تمر بجانب أحد من شباب الحارة، ويقوم بالتندر عليها لكبر ثدييها كانت ترميه بأقرب حجر تجده أمامها، ولكنها لم تستطع يوماً أن تصيب أحدهم حتى ممن كان بينها وبينه مسافة متر فقط، فقد كانت حليمة تملك ثديين كبيرين مقارنة بسنوات عمرها التي لم تكن تتجاوز السابعة عشرة، وكثيراً ما علّقت نساء الحارة بأنها هي السبب وراء كبر ثدييها، لأنها لم تكن تتورع ولو للحظة حينما تكون لوحدها في اللعب بثدييها، وعصرهما بيديها حتى كبرا، وترهلا، وهي لم تتزوج إلا حينما صار عمرها يربو عن ثمانية وعشرين عاماً.

في ذلك اليوم اجتمع الجميع ونصبوا (تيزارين) أقفلوا بهما الشارع من جهتيه الشرقية والغربية، وفرشوا الأرض بسجاجيد أخرجوها من بيوتهم، وعلّقوا عقداً من الأنوار بدءاً من بيت أبي حليمة وصولاً إلى الجهة المقابلة التي كان يقبع فيها بيت أهل عبده، فقد كان مدخل بيت أبي حليمة أمام مدخل بيت أهل عبده تماماً، حينها جهزوا مكان العرس جيداً، جهزوه كما ينبغي. في تلك الأثناء قال عبده:

ـ لم يخطر ببالي أن أخرج من بيتنا أبداً، فمكان العرس وجبة دسمة لي بأن أتأمل أجساد النساء.

وأكمل: كانت مثل هذه المناسبات فرصة لمشاهدة النساء، وهن يرقصن ويتمايلن، فلم أبرح مكاني في البيت حتى جاء موعد الفرح.. في ذلك اليوم كان شباب الحارة يحسدونني على هذا العرس، لأنني قادر على متابعته بشكل جيد، فلم يكن مني إلا أن دعوتُ «يحيى أبا جركن»، و»حسن خبزة» للبقاء معي لنتأمل أجساد النساء. صعدنا إلى سطح منزل بيتنا، وبقينا هناك إلى أن جاء موعد الرقص والبهجة، فبدأ الاحتفال بالرقص، كان منظراً مدهشاً حقاً. أتذكر أن «حسن خبزة» في ذلك اليوم بدأ بالثناء على صالحة، وعلى رقصها، وعلى فتنتها، حتى إنه قال:

ـ أختك يا عبده فاتنة، وجسدها رائع.

لم يدر بخلد أحدهم أننا نتابع هذا المشهد من الفرح من فوق السطح كأفراد مباحث، ولم يعلم أحد بأننا كنا نتلصص على أجساد النساء وفتنتهن. وبينما عبده يتحدث سألته سؤالاً كنت أعتقد بأنه بريء لكنه لم يكن كذلك:

ـ هل حضرت إلى العرس إحدى النساء البيضاوات ؟

فأجاب، وهو يقلّب بعض القنوات في التلفاز:

ـ لا أتذكر أن جيراننا البيض حضروا مناسبة من مناسباتنا، فالرجال أنفسهم لم يكونوا يحضرون، فكيف تسألين عن سماحهم لنسائهم بالحضور؟

حثثته على الحديث فأكمل: كانت عينا «يحيى أبي جركن» معلقة على خيرية، ولم يكن يحادثنا إلا قليلاً، وكنت أعرف بأنه مستمتع جداً بذلك، فمازحته في ذلك الوقت بعد أن خبطت على كتفه: «كل هذا السكوت من أجل خيرية؟»، فلم يرد على سؤالي ومازحتي تلك، ولم يعلّق حسن خبزة على هذا السؤال، علماً بأن خيرية أخته الصغرى، فأخذنا نتابع بشغف، والسمراوات يعرفن جيداً كيف يحلبن الفتنة من أجسادهن، ليستمتعن، ويمتعن الناظر. في الوقت الذي كنا فيه نتابع الرقص مستمتعين رأينا صالحة تسحب خيرية من يدها، وتتجهان إلى داخل بيتنا، وحينما دلفتا من باب المنزل صاح «يحيى أبو جركن» بشكل لا إرادي: «قوموا. دعونا نفاجئهما في الأسفل». لقي هذا العرض قبولاً عند حسن خبزة وأيّده بسرعة، فلم يكن مني إلا أن أنصعت لرأيهما فنزلنا، ووجدناهما أمام المرآة يعدلن من هيئتيهما، فصحت بأعلى صوتي، ويبدو أنني أفزعتهما، فصاحتا هما بدورهما رعباً، فحين رأتني صالحة أمامها قالت بغضب:

ـ ما الذي تفعله هنا؟

ـ أحرسكما، فربما يأتي وحش ويأكلكما.

ـ لا يا شيخ!

ـ وللمعلومية لست وحدي، فمعي جنودي الأشاوس.

فأمرت يحيى وحسن بالدخول، وعندما رأتهما صالحة فتحت فمها دهشة، وقالت:

ـ هل كنتم تراقبون النساء؟

فقلت لها مازحاً:

ـ لا، نحن نقوّم رقصكم، وللأمانة حسن أثنى عليك ويحيى أثنى على خيرية.

ـ وأنت؟. سألتني صالحة:

ـ لم يعجبني أحداً. هكذا أجبتها.

عندها قال حسن مخاطباً صالحة:

ـ أنت تجيدين الرقص، فجسدك جميل حينما ترقصين.

لم ترد على حسن، ولم يعلق أحد بعد ذلك، بقينا صامتين لنصف دقيقة أو تزيد، ويحيى يتأمل خيرية بدهشة مطلقة، فسحبتْ صالحة خيرية من يدها مرة أخرى وخرجتا، فنظرت إلى صديقيّ وهما صامتان تمتلكهما دهشة لا تضاهى، وضحكت بصوت عال، وقلت:

ـ دعونا نعد إلى مكاننا، فماذا استفدنا الآن؟ لقد أضعتم علينا الوقت فقط.

فرد يحيى مبتسماً:

ـ بالعكس لقد كانت لحظات رائعة.

فقلت له:

ـ هل رأيت خيرية، وملأت عينيك بها يا كلب؟

وضحكنا بصوت مرتفع...

عدنا إلى سطح المنزل وأخذنا نتابع، ورويداً رويداً بدأ سعار النساء في الرقص يزداد، وبدأن يفقدن شيئاً من توازنهن تجاه الرقص، فتداخلت الأجساد، وأخذ بعضهن في الالتصاق بالأخريات، وبدأت النشوة تأخذ شكلاً مختلفاً يشبه شكل قوس قزح، لقد كان شكلاً لذيذاً بكل تأكيد. الغريب أن

صالحة وخيرية ازدادتا فتنة وبهاء، فكانتا طوال الوقت ترقصان مع بعضهما بعضاً، وتقومان بالتماهي مع الأغنيات التي تنبثق من جهاز التسجيل العملاق الذي يقبع في زاوية هذا التجمّع، وكأنهما في اختبار أداء. كانت كل واحدة منهما تشير إلى الأخرى بحركات من يدها أو فمها مع ترديد كلمات الأغاني، لقد كانتا ثنائياً رائعاً في ذلك المساء. وصمت عبده لحظة، ثم قال مطرقاً:

ـ ثمة شيء أخجل من ذكره.

ـ تفضل قل ما يحلو لك، لقد أعجبتني هذه الطقوس كثيراً.

ـ هي مرحلة المراهقة كما تعرفين، ونحن نفعل أشياء لا يحق لأحد أن ينتقدنا فيها.

ـ قبل أن ينتهي هذا الزواج وفي وقت متأخر من الرقص والنشوة، أخذ كل منا نحن الثلاثة مكاناً قصياً فوق سطح بيتنا، وأمعن في تأمل النساء، ويده تحاول أن تستحضر شيئاً من ظهره أنت تعرفينه جيداً.

ضحكت بخجل على كلامه ذاك... ليس لأنهم فعلوا هذا الفعل الغريب الذي يمتلئ بالسرّية، إنما لأن عبده لم يمانع كثيراً في دلق هذا الأمر على مسامعي، لتتأبطني قناعة بأن الرجل لا يعرف كيف يحفظ نفسه أكثر.

في هذه الليلة طلب مني عبده أن أرقص له، لكنني اعتذرت بشدة، لأنني كنت متعبة حقاً، فقد سكبتُ كل ما أملكه من أنوثة ونشاط في عرس ليلة البارحة. أعترف بأنني رقصت في ذلك العرس بطريقة لم أرقص بها من قبل، كنت أرقص، وأنفض عقدين من الزمن قضيتهما في سوريا، فالرقص في كل مكان هو لعبة النساء لا يملكن إلا هو فحينما تجد المرأة كل الأبواب موصدة، فليس أمامها إلا أن تسكب أنوثتها وغنجها إذا ما وجدت نافذة البيت مواربة. ألحّ عبده عليّ في الرقص، ألحّ أكثر، فقمت ورقصت أمامه لمدة لم تزد عن ثلاث دقائق بملابسي التي كنت أرتديها والتي لم تكن تحمل أي نوع من الإغراء.

حينما بدأ الليل يتسلل إلينا، كنت أجلس وحدي في الصالة أتابع التلفاز، فمرّ عبده من جانبي وهو يرتدي أفضل ملابسه، وخرج ولم يعد إلا بعد منتصف الليل.

(اليوم الثالث والعشرون)

ـ حينما تنتهين اتصلي بي.

نزلتُ من السيارة وقد كانت هذه هي الجملة الأخيرة التي علّقها عبده بأذني كرب عمل. دلفت إلى المشغل، ولم أجد أمامي نساء كثيرات، كان ثمة مصففة شعر لبنانية مع عدد من مساعداتها الفلبينيات. ابتسمتْ لي تلك اللبنانية حينما رأتني، وطلبت مني الجلوس على مقعد جلدي فاخر، لم أكن مستعجلة لأن الوقت لا يزال مبكراً، كانت الشمس في الخارج لا تزال على وهجها ساخنة كعادتها بداية كل عصر في هذا البلد الذي يشبه الشعر التالف، وعادة ما تكون المشاغل في مثل هذا الوقت غير مزدحمة. كان هواء جهاز التكييف أمامي يلفح وجهي بهدوء. بالمناسبة كان الأمر مثيراً فعلاً. شعرت بشغف لذيذ، فليس أمامكِ حينما يلفح وجهك جهاز التكييف بهدوء، وأنتِ تجلسين في مشغل على مقعد جلدي فاخر إلا أن تشعري بذلك الشغف اللذيذ. طلبت من تلك اللبنانية أن تقوم بتصفيف شعري بطريقة تتناسب مع تقاسيم وجهي. كانت بجانبي فتاة سعودية بيضاء، وقد امتلأ وجهها بالمساحيق لتستحيل إلى رجل سيرك، فحينما التفتت نحوي وأنا أنظر إليها قذفت بوجهي إلى الجهة المقابلة بعيداً عنها، وبدأت أتناقش مع اللبنانية في الكيفية التي ينبغي أن تخرج بها تسريحتي إلى أن وصلنا إلى حلّ مشترك. عندما بدأت المصففة بعملها عاد إلى ذهني ذلك الحوار الذي دار بيني وبين عبده ظهر هذا اليوم حينما قلت:

ـ أريد الذهاب إلى المشغل.

ـ حسناً سأوصلكِ إلى مشغل رائع أعرفه.

ـ لماذا لا تتصل بصالحة وتسألها عن أفضل مشغل هنا؟ فالنساء يعرفن المشاغل جيداً.

ـ دعي صالحة عنك، ثم إنه من غير المنطقي أن تذهبي إلى المشغل ذاته الذي تذهب إليه صالحة، أو أية امرأة سوداء.

لماذا؟

ـ لأنني لا أريد منهن أن يشاهدوك إلا في قاعة الحفل. ستكون مفاجأة حتماً.

كنت أحاول تحليل ما قاله عبده، كان في داخلي مرارة غريبة تجاه عدم معرفتي للسبب الحقيقي وراء إصراره في عدم ذهابي إلى المشغل ذاته الذي ستذهب إليه صالحة، أو أية امرأة سوداء، ألهذه الدرجة يخجل مني؟ لا أعتقد، لكنني أتصور بأن جمالي هذا لا يمكن أن يقع في يد امرأة تجيد التصفيف ووضع المساحيق للسوداوات. لم أكن أحب النظر إلى المرآة في أي مشغل أذهب إليه، لأنني تعودت منذ زمن بعيد على تمام الجمال، وتمام البهجة، وتمام الشغف، لذلك أغمضت عيني، وأخذت أتذكر ذلك اليوم الذي تزوجتُ فيه زميلتنا في الجامعة «هبة نوراني» من دكتور النقد الحديث في الجامعة الدكتور «أسعد خيران»، ودعتنا لحضور حفل زفافها. ذهبت برفقة ماهر إلى ذلك المشغل الكائن في حي «المزّة». كان يقول لي ماهر دوماً: «لا تفسدي جمالك بالذهاب إلى المشاغل، فأنت جميلة ببساطتكِ»، لكنني كنت كأي فتاة تصرّ على الذهاب إلى المشاغل لتتضخم أنوثتها في نفسها، مع يقيني المطلق بأن ثمة بعض النساء يغدون بشعات إذا تكلفن في زينتهن. لم أكن لأفرّط بيوم كذاك، فذهبت إلى المشغل برفقة ماهر، خصوصاً وأن الكثير من زملائنا في الجامعة سيحضرون. أعترف الآن بعد الذي مضى بأنني لو كنت قد انصعت لكلام ماهر لكنت أجمل حقا، فأنا لم أشعر يوماً بأنني دميمة مثلما شعرت به تلك الليلة.

كنت أهذي كثيراً مع ذكرياتي كمسنّة، ولم أصحُ من هذه الحالة إلا على

صوت المزيّنة فوق رأسي تسألني: «ما رأيك الآن؟». أعجبتني كثيراً تسريحة شعري كشهادة تخرج، فلقد أتقنتْ هذه اللبنانية زخرفته كنحاتة، فوضعتُ يدي على شعري أتحسسه لأطمئن عليه، ثم اعتذرت من مصفّفة الشَعر التي طرحت عليّ فكرة أن تقوم بوضع بعض المساحيق على وجهي، واتجهت إلى حقيبة يدي، وأخرجت منها هاتفي المحمول، واتصلت بعبده أطلب منه المجيء ليأخذني إلى المنزل، بعد ذلك وضعت عباءتي على جسدي، ورميت غطاء وجهي كيفما اتفق، ونقدت المزيّنة بدل تصفيفها لشعري، وانتظرت عبده إلى أن جاء.

لم نصل إلى المنزل إلا بعد صلاة المغرب. انطلقت بعدها إلى حجرتي لأرتدي ملابسي التي قمت بشرائها مساء البارحة، لكن عبده علّق تلك الجملة في أذني وارتمى على كنب الصالة الأحمر فقال:

ـ لا تستعجلي، فلن تفتح القاعة إلا بعد الساعة العاشرة مساء.

ـ هل يعني هذا بأنهن لن يحضرن إلا في تلك الساعة؟

ـ ربما، وربما سيكنّ حاضرات، لكن باب القاعة لن يتم فتحه لاستقبال الضيوف إلا بعد العاشرة.

ـ لماذا؟

ـ هذا طقس من طقوس الأعراس مؤخراً عند السود.

بعد هذا لم أستعجل كثيراً في لبسي مع حماسي الزائد في الذهاب إلى هذا العرس، أخذت أرتدي ملابسي على مهل، وعبده كذلك، ولم نخرج من المنزل إلا في تمام العاشرة إلا عشر دقائق. حين وصلنا إلى القاعة كان ثمة عدد هائل من الناس في الخارج، وكان منظر السيارات مرعباً. ترجلت من السيارة، وسرت وفي داخلي رعب فظيع من كل هؤلاء الناس، وما إن وصلت إلى قاعة النساء حتى استقبلتني صالحة وهي بأجمل ثيابها. قادتني إلى الداخل حيث كل شيء صارخ. الملابس، والأنوار، ووجوه النساء، وألوان المساحيق. ناولت صالحة عباءتي التي لا أحسن ارتداءها، فوضعتها في المكان المخصص لهذا

الأمر، ففي السعودية فقط يمكنكِ أن تجدي مكاناً مخصصاً لوضع العباءات في صالات الأفراح. كان صوت جهاز التسجيل يصدح في الأرجاء بأغان راقصة تارة، وموسيقى تحمل هدوءاً لا يقاوم تارة أخرى. لم يكن يرقص أحد على أنغام هذه الأغنيات، كان الجميع يثرثر، ويضحك فقط، أقعدتني صالحة إلى الطاولة ذاتها التي تجلس إليها هي وخالتي عائشة، وأختها الصغرى حسينة، وبدأ النساء في التوافد. ما أربكني في بداية الأمر عدد النساء هنا، لقد كان العدد ضخماً جداً؛ ففي ظرف نصف ساعة فقط امتلأت القاعة عن بكرة أبيها، وبقي عدد كبير من النساء واقفات لم يجدن لهن مكاناً يجلسن فيه؛ فسألتُ صالحة:

ـ هل أعراس السعوديين كلها بهذا الحضور المخيف؟

ـ لا أعتقد، لكن أعراس السمر عادة بهذا الحضور، فقد حضرت أكثر من مرة أعراس فتيات بيضاوات، لكن الحضور لم يكن بهذا الشكل.

كنا نستمع إلى الأغاني ونثرثر بصوت عال، وبين الفينة والأخرى تتقدم إلينا امرأة، أو فتاة للسلام، أشعرني ذلك بخجل كبير أنا البيضاء الوحيدة في هذه القاعة التي تفوح منها رائحة الأسفلت، فقد كن ينظرن إلي باستغراب، فترد عليهن صالحة متداركة الموقف: «هذه سحر زوجة أخي عبده»، فيرحبن بي، ويثنين على فستاني الأسود قائلات في المجمل «الأسود يناسبك تماماً»، لكنهن لا يتورعن في لمز بعضهن بعضاً بالثناء على لبسهن، ومؤخراتهن البارزة والضخمة. بعد ساعة تقريباً من حضورنا دخلت مجموعة من النساء يحملن في أيديهن طبولاً وأدوات عزف، وجلسن في زاوية على المنصة القابعة أمام الجميع، قمن بتجهيز عدّتهن، وفجأة بعد لحظات ليست طويلة أطفئت أنوار القاعة كلها، وظهر صوت «أورق» يشدو بطريقة فاتنة جداً، والنساء اللاتي على المنصة يجرّبن القرع على طبولهن، وبعد أقل من دقيقة ظهر صوت فتاة تغني موالاً بصوت رائع كانت تقول:

«باعني وحب غيري بسبة بلاكبيري»..

عندها ارتفعت أصوات النساء عالياً، وبدأ الصراخ يتنامى في فضاء هذه القاعة كفقاعة صابون عملاقة، ولم نكن نر إلى الآن تلك المغنّية، فلكزت صالحة في خاصرتها مستغربة من ذلك، لكنها أشارت إليّ برأسها أن أنتظر. في تلك الأثناء دخلت مطربة ترتدي فستاناً أصفر جميلاً جداً، مشدوداً إليها لتظهر أنيقة بشكل لا يقاوم. كانت تسير كسمكة ذهبية، وكان الضوء الوحيد في القاعة مسلطاً عليها، وهي تشدو بذلك الموال بغنج، لتدس النشوة في قلوب الحاضرات وهي تغني، وتسير مثل ملكة؛ كانت تمشي إلى المنصة والضوء يمشي معها كحاشية إلى أن استقرت فوقها، ولم ينقطع هدير الموال، لكن أضواء القاعة عادت إلى الحياة من جديد، وما هي إلا لحظات بسيطة حتى دب الظلام الدامس مرة أخرى في أرجاء القاعة ليظهر الضوء الذي كان يسير مع المغنّية من زاوية أخرى من هذه القاعة، وهو يحرس سيدة كانت تحمل في يدها طوقاً، وقد عُلّقت عليه نقود من فئة الخمسمائة ريال سعودي، كانت النقود تطوّق العقد بالكامل، وكانت السيدة تمشي، ويمشي معها الضوء حتى وصلت إلى المغنّية، فعلّقت العقد في رقبتها، وعادت أدراجها، وما إن وصلت السيدة إلى الطرف الآخر من الصالة حتى أضيئت الأنوار مرة أخرى في كل الأرجاء، لتنطلق الأغنية صاخبة ومدمرة تحمل أمامها كل من في هذه القاعة للرقص، والتصفيق سواي، لم ينتظر النسوة سوى دقيقة ليملأن المنصة، ويبدأن بالرقص بشكل لا يمكن تخيله.

كان الوضع مرعباً في بدايته حتى إنني كنت باهتة في مشهد الفتيات اللاتي يرقصن أمامي بطريقة أراها لأول مرة في حياتي.. كنت أشعر بأن ثمة سعاراً يتملّك أولئك الفتيات؛ فهن يرقصن وكأنهن سيمتن غداً، ويردن امتصاص كل البهجة في هذه الليلة. بقيت لدقائق أتأمل هذا المشهد الجميل، والمخيف في الوقت ذاته، حتى لكزتني صالحة في خاصرتي مشيرة إليّ بأن أقوم معها للرقص، لكنني رفضت.

رفضت لأنني كنت خائفة فعلاً، فليس من المنطق أن أدلف في هذا

الموج الأسود الكبير من النشوة دون أن أستوعبه بالمطلق، كانت صالحة ترقص بنشوة فتاة مراهقة. لم تعد تلك الثلاثينية التي شارفت على الأربعين، عادت مراهقة في العقد الثاني من حياتها، والنساء يرقصن في جماعات كالطيور تماماً. لم يكن هنالك فتاة ترقص لوحدها، كانت كل واحدة منهن تبدع في اختلاق تثنيات لجسدها. أحياناً أشعر بأنهن كائنات مائية لفرط ما يتموّجن بطريقة سلسة، بطريقة لا تشعر معها بالتكسّر. كنت أشاهد، وأنا غير قادرة على استيعاب هذه البهجة بكلّيتها، كنت أفترض دوماً بأن المرأة تحب الرقص، لكنني لم أستوعب بعد أن تكون أول أغنية في ليلة عرس بكل هذا العنفوان، وهذا الشغف. لم أستطع أن أخفي دهشتي، بقيت مندهشة لفترات طويلة، كنت أتأمل وأنا تحت ضغط هائل من البهجة والدهشة والبوذية، لكنني بمرور الوقت بدأت أتآلف مع المشهد.

أطلقت أغنية أخرى وأنا جالسة لا أتحرك، والنساء من حولي يحلقن في فضاء النشوة كعصافير، وعندما صدحت المغنية بأغنية لماجد المهندس أحفظها جيداً قامت صالحة بسحبي من يدي، فجرّتني إلى أن وصلت إلى المنصة، وبدأت أرقص. كان شكلي على المنصة بين هذا العدد الهائل من السوداوات يشبه شكل المعاقين حينما يسيرون في حفل مخصص للأسوياء، مختلفاً ومثيراً للدهشة والشفقة، كنت أحس بنظرات النساء من حولي تخترقني كإبر مغذ، كنت أحاول قدر ما أستطيع مقاومة كل ذلك الوخز، فأخذت أرقص مع صالحة غير آبهة بكل النظرات من حولي، كنت مركزة نظري على صالحة لثقتي التامة بأن رقصي لم يرق لذائقة إحداهن، وفجأة شعرت باصطدام ردف إحداهن بردفي فكدت أن أقع، فالتفت فإذا بها فتاة تنظر إليّ بطرف عينها، وصديقتها أمامها ترقص وهي غارقة في الضحك. بادلَتها هي الأخرى بالضحك أيضاً، وأكملت رقصها دون أن تقول لي كلمة واحدة.. كنت أعرف بأنها تريد مشاكستي فقط، أنا البيضاء الوحيدة في هذا التجمع الذي يزفر بالظلمة، أنا المرأة الوحيدة التي تلبس فستاناً أسود في كل هذا الصخب

الذي يشبه صخب صديقات تجمّعن في عطلة نهاية الأسبوع عند إحداهن. عدت لأكمل رقصي مع صالحة دون أن أقول شيئاً، وبقيتْ تلك الفتاة مع صديقتها تحوم حولي كأنني جثة، وتضحك بسخرية سوداء كلون بشرتها، كانت صالحة تتابع المشهد وهي ترقص، ولم تكلف نفسها أن تعيره أي انتباه، وتلك الفتاة تبدع في رقصها حينما تكون أمامي مباشرة. كنت في سباق مع النشوة، والحسد، والغيرة، والعنصرية، وكل البذاءات الأخرى.

انتهت الأغنية وجلست أحمل غيظي في داخلي كجنين، لكنني لم أتوقف عند تفاهات فتاة سوداء؛ فبقيت طوال الليل أرقص مع كل أغنية تصدح بها المغنية بشغف ونشوة، إلا حينما نزلت تلك المرأة المائية فعلاً فلم أرقص، ولم تصعد على المنصة أي امرأة أخرى لترقص أيضاً، بل ترك الجميع هذه المرأة تتصرف كرب على المنصة لا يمكن أن نقاطعه أثناء قيامه بعمله؛ فحين بدأت المطربة بالغناء لمطرب خليجي، كان من الواضح أن المرأة تحب هذه الأغنية، فقامت من مكانها، وهي المرة الوحيدة في هذه الليلة التي قامت فيها من مكانها للرقص، وبدأت ترقص بدءاً من طاولتها التي تبعد عن المنصة مسافة تزيد عن عشرين متراً إلى أن وصلت إلى المغنّية التي يبدو أنها تعرفها جيداً، والنساء يصفقن ويصرخن، وإن تجرأت إحداهن على الرقص قامت ورقصت في مكانها، بدأت تلك المرأة بالتثني كحيّة، أو دلفين، والمغنية تساعدها على التثني بصوتها الرائع، وفي كل مرة تدهشنا بحركة جديدة تضيف على شكلها روعة وبهاء، وتضيف على وعينا وذائقتنا إكباراً. أثناء ذلك سألت صالحة بجانبي:

ـ من هي هذه الفتاة؟

ـ هذي «ناجية سعيد» أشهر فتاة سمراء ترقص في تبوك.

أنهت «ناجية سعيد» فصلها النوراني ذاك، وجلستْ ولم تقم مرة أخرى كالأنبياء حينما يلقون كلمة واحدة على البشر ويمضون إلى البعيد، لنتعلّم من سكوتهم، لنتعلّم من هدوئهم.

واستمر الحفل..

في تمام الساعة الثانية فجراً دخلنا لتناول العشاء. كانت صالة الطعام مليئة بشتى أنواع الأطعمة، والبذخ يستطيل أمامنا ليتحوّل إلى انقلاب ثوري، لكن النساء لم يتركن شيئاً إلا وتلقفنه. تناولت ما استطعت من كل ذلك الأكل، وخرجت، وفي تمام الساعة السادسة والنصف خرجنا من القاعة عائدين إلى منازلنا بعد أن سكبنا كل ما نخبئه في دواخلنا من فتنة وأنوثة على بلاط تلك القاعة. وفي تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً قلت لعبده:

ـ أنا متعبة حقاً، لا أستطيع مساعدتك في أي شيء الآن!

(اليوم الثاني والعشرون)

لا ينبغي أن نربي الضمير في دواخلنا إذا تعلق الأمر بردة فعل سريعة في شيء مدهش نمر به.

لذلك لم أكن أتخيل أن يكون في هذا البلد المغلق كل هذه الجرأة من ذلك الشاب الذي اختلس لحظة في غفلة من عبده ليدس تلك الجملة في أذني ويفر هارباً. كان وقع تلك الجملة عليّ مثل أن تقع على إبهام رجلك قطعة أثاث فتؤلمك من جهة وتتأكد بأن ثمة أشياء لا نتنبه لها، لكنها تستطيع أن تسترعي انتباهنا وقتما أرادت. حين دخلتُ إلى المحل أريد شراء فستان لعرس حنان لم أنتبه لذلك الشاب وهو يلاحقني في أرجاء سوق «تبوك سنتر»، لكنه كان ماكراً في تتبعي كعنصر مخابرات، فحين كان عبده يساوم البائع على سعر ذلك الفستان الأسود الذي اخترته مر بجانبي ذلك الشاب وقال لي:

ـ أيعجبك وضعك مع هذا العبد الأعرج ؟

كنت أعرف بأن شكلي مثار دهشة، هو الشاب الوسيم صاحب البشرة البيضاء، والعينين الواسعتين، والقوام الرياضي، لكنني لم أرد عليه، ولن أرد على أحد أبداً، لأن المرء عادة لا يحب أن يحاكم أحد تاريخه وقناعاته. خرجنا من المحل، وعبده يحمل في يده ما أدلت عليّ به ذائقتي، فوجدت ذلك الشاب مرة أخرى يستند إلى أحد أركان ذلك السوق الكبير، ويعبث بهاتفه المحمول بين يديه. مررنا بجانبه، وعبده يسير بكل شموخ كمنتصر. كنت أعرف عبده جيداً، فهو يشعر بالانتصار حينما أسير بجانبه في مكان عام. ألقيت نظرة سريعة على الشاب من خلف غطاء وجهي الذي يحشرني

كثيراً وأشعر معه بالاختناق، فوجدته يبتسم ابتسامة من يملك الحقيقة، تلك الابتسامة التي لا نجدها إلا على وجوه الواثقين من أنفسهم، تلك الابتسامة التي لم أرها على وجه عبده في يوم من الأيام. كنا نسير في أرجاء السوق والناس من حولي ينظرون إلينا باستغراب، فلم أعد أحفل بهذه النظرات إطلاقاً، لأنها تكررت أكثر مما يجب، لكنها بالمقابل كانت تزرع في داخل عبده الحقد، وتشعره بألم خفيف، على الرغم من شعوره بالانتصار مثل وخزة دبوس، فحين يلعق تلك النظرات التي تنبئ عن دهشة وجود امرأة بيضاء بجانب رجل أسود لا يتوانى عن شتم صاحبها، وهو ينظر إليّ وكأنه يحدثني، يتصرف كما يتصرف علية القوم حينما يجدون شيئاً لا يناسبهم، وبالمقابل لا يستطيعون مع ذلك الشيء إلا أن ينبشوا قاموسهم البذيء فقط. كان يصف عبده أصحاب هذه النظرات بالتخلف، وأنهم دوماً ما يحسبون بأن لون بشرتهم البيضاء هذا سيجعلهم يمتلكون كل شيء، فاللون ليس كل شيء كما يقول، حتى إنه غضب في يوم من الأيام، ونحن نقف عند إشارة ضوئية بعدما رأينا عدداً من الشباب يضحكون على هيئتنا في السيارة كما يبدو من خلف الزجاج باستغراب، فشتمهم شتماً غريباً دون أن يسمعوا كلامه، كان شتماً مقززاً قال:

ـ لماذا يضحك هؤلاء المخانيث؟ أعرف جيداً بأنهم لم يستطيعوا حراسة مؤخراتهم فيما مضى ليأتي زمن يضحكون فيه على أعمامهم!

ضحكت وقتها على كلامه، وسألته:

ـ من هم أعمامهم؟

ـ من يقوم بانتهاك شرف شخص ما يصبح عمّاً له تلقائياً!

خرجنا من السوق قبيل صلاة العشاء، واتجهنا جنوباً إلى حيّ المنتزه، كانت هذه المرة هي المرة الثانية التي أرى فيها حي المنتزه ليلاً، كنت أعرفه في هذا الوقت المتأخر من التركيز، وكنت أدرك جيداً بأن حياً كهذا سيكون مثل الغابة ليلاً، لذا شعرت بخوف لا أعرف سببه حينما دلفنا إلى الحي، فسألت عبده:

ـ كيف كنتم تقضون ليلكم في هذا الحي المخيف؟

ـ نحن لم نكن نخاف من الظلمة أبداً، بالعكس بالنسبة إلينا كنا نحب الليل.

ـ من تقصد بكلمة «إلينا» هنا؟

ـ أصحاب البشرة السوداء.

ـ ولماذا أنتم فقط؟

ـ لأن أصحاب البشرة البيضاء كانوا، ولا يزالون وجبة دسمة في الليل.

ـ هل كنتم تأكلونهم ليلاً؟

ـ نعم، ونولم وليمة كبيرة لأهل الحي من السود!

ضحك عبده ضحكة مليئة بالخبث، كتلك الضحكات التي يطلقها الأشرار في أفلام الرسوم المتحركة، ولم يكن مني إلا أن بادلته الضحك بطريقة باهتة، بطريقة من لم يفهم شيئاً، فمنذ أن عرفت عبده وهو لا يتورع في ذكر بطولاته الجنسية أمامي، كان يتفاخر بكمية الرداءة في داخله، وكأنني لست أمامه، أو كأنني لست امرأته، لم أكن أعرف هل كان يقوم بفعله هذا دون أن يضع في حساباته أنني امرأة أمامه؟ أم أنه لا يعنيه من يكون أمامه أبداً؟ أم أنه يفكر بأنه بهذه الكلمات سيجمّل نفسه أمامي؟ أم أن عقدته الجلدية تجعله يتصرف بتصرفات لا يعيها في كثير من الأحيان؟.

صحيح أنني منذ فترة اكتشفت بأن أصحاب البشرة السوداء لا يعرفون أي معنى للخجل والحياء، لكنه لم يخطر ببالي أنه ربما يصل بأحدهم الأمر أنه يفاخر ببطولاته الجنسية أمام زوجته. كنت أفكر، وأنا أحاول قدر ما أستطيع التماسك بعد أن ولجت بنا السيارة في كمية هائلة من الحفر التي تعرف كيف تثرثر على أرض هذا الحي، فالمنتزه حي يعلّمك كيف يثرثر الناس مع الحيطان، مع الحفر، مع المنازل المتهالكة، ومع الخطيئة والغفران أيضاً.

كانت أم عبده قد ألحّت عليّ وعلى عبده بزيارتهم، نحن الذين لم نرهم منذ أسبوع تقريباً، لذلك لم يكن من عبده إلا أن اتجه بنا جنوباً في هذه

مدينة التي تُغْرِق جنوبها في العفن، وفي البذاءة، وفي القذارة والرذيلة. كنا نسير ومنظر الجرذان الضخمة في الشوارع، وهي تنطلق بعيداً عن أنوار سيارة كمنظر الجنود في الحروب حينما يقتنصون لحظة مباغتة على العدو، فيسلّطون عليهم نيران بنادقهم، ونيران جبروتهم. كنا في سباق مع هذه الجرذان حتى وصلنا إلى بيت خالتي أم عبده. حينما أغلق عبده السيارة انتبهنا لوجود «قاسم غطفان» أخو عبده الأصغر يقف أمام باب المنزل يدخن، وينظر إلينا مبتسماً، وكما هي عادته في كل مرة يرانا فيها، رحّب بنا قائلاً:

ـ مرحباً بالعروسين.

لكن عبده هذه المرة رد عليه بشيء من السخرية:

أي عروسين تقصد؟ نحن شارفنا على الموت، وأنت لا تزال تقول نا عروسين.

ضحك قاسم، وسلم على عبده وأنا من خلفهما أتأمل المشهد. كان قاسم يرتدي قميصاً أصفر لم تنمُ أكمامه من عند الكتف، و(شورتا) أسود، وأثناء ما كان يقبّل عبده على خده الأيمن لمحته ينظر إليّ ويبتسم، فقد كنت أقف خلف عبده مباشرة. فسح لنا الطريق، ودعانا للدخول، وعبده يضع يده على ظهري، ويقدّمني لأدخل. استقبلتنا خالتي أم عبده عند الباب، فرحبت بنا، واحتضنتني بشدة حتى تماهيت مع رائحة الحناء التي تفوح منها وأخذت تعاتبني قائلة:

ـ كل هذا الوقت تغيبون عنّا؟ كوني أفضل من زوجك على الأقل، وتذكري بأن هناك عجوزاً تفرح برؤيتكم.

ـ لك كل الحق علينا يا خالة، لكن مشاغلنا كثيرة.

لم تتوقف عند عبارتي هذه كثيراً، وسبقتني للدخول إلى قسم النساء. جلسنا في إحدى الغرف، وبدأنا في أحاديثنا المعتادة عن الأحوال والصحة حتى جاءت صالحة. كانت حسينة أخت عبده الصغرى تطل علينا بين لحظة وأخرى، وهي تحمل هاتفها المحمول في يدها، وتضع سماعات في أذنيها،

وتهز رأسها لسماع الأغنيات من جهاز هاتفها المحمول، وترقص وهي تمشي، لكنها لم تكن تتأخر للحظة في تلبية كل ما تطلبه منها أمها. جاءت صالحة محمّلة بكل أنواع النشوة والثرثرة والأحاديث غير العادية: صحيح أن فارق السن بيني وبينها يقارب العشر سنين، أو تربو قليلاً، لكنني لم أحس ولو للحظة بهذا الفارق، فثمة بعض الناس يغدو معهم العمر زيفاً.

تحدثنا عن العرس وعن الأسواق، وعما ابتعت لذلك، طلبتْ صالحة أن ترى ما اشتريته، فنادت على قاسم، لكنه لم يسمعها، فطلبت من أختها الصغرى أن تذهب وتطلب من قاسم المجيء. عادت حسينة وبعدها دخل قاسم علينا دون استئذان ودون أن يشكّل له ذلك الدخول مأزقاً، فطلبت منه صالحة أن يذهب حيث توجد سيارة عبده، ويجلب كل الأكياس التي قمنا بشرائها، فهي موجودة في المرتبة الخلفية من السيارة كما أخبرتها. ذهب قاسم واقتربت مني صالحة، ووشوشت في أذني:

ـ من اختار لك فستانك؟

ـ أنا من اختاره. لماذا تسألين؟

ـ جميل، أريد أن أعرف ذوقكِ، لكن صدقاً عبده يملك ذوقاً جميلاً في اختيار الملابس النسائية.

بقينا لدقائق معدودة، وإذ بقاسم يدخل علينا مثل المرة الأولى دون أي تحفظ. وضع الأكياس بين يدي صالحة، وأخذ يحدّق فيّ لدرجة شعرت مع نظراته بدوخة، فأخذت صالحة تقلّب الملابس بين يديها كعجوز وأنا أتأملها، وأتذكر تحديق قاسم فيّ، ذلك التحديق الذي أشعرني بأنني مثل (أباجورة) في محل لبيع التحف الفاخرة. وقعت يد صالحة على ملابسي الداخلية التي قمت بشرائها فأخذتْ تقلّبها باهتمام وإكبار حتى أنها قالت بلا وعي كما أظن: «تملكين ذوقاً رفيعاً جداً في اختيار ملابسك، وكأنك امرأة سوداء». لم أرد عليها، ولم تكف عن تقليب ملابسي حتى دخلت علينا جارة خالتي العجوز، تلك التي دهشتْ مني في أول لقاء جمعنا هنا قبل ما يقارب

ثني عشر يوماً في أول يوم وصلت فيه إلى السعودية، حينما احتضنتني قائلة «والله لقد عرف عبده كيف يختار». دخلت علينا وصوتها الجهوري يسبقها، فسارعت صالحة في دس الملابس داخل أكياسها، وصوت أم عبده يقارعها بالترحيب قائلة: «الله يحييك يا أم شوعي».

دخلت أم شوعي، هذه العجوز الرائعة التي لا تقف كلماتها على رأس لسانها، دخلت بكل ما تحمله من كاريزما ساخرة. سلّمت علينا، وحينما رأت صالحة تحمل أكياس الملابس بين يديها باغتتها قائلة:

ـ لقد نشِفتِ يا صالحة، لا تعتقدي بأن الملابس الجديدة ستعيد المياه في داخلكِ مرة أخرى.

فردت عليها صالحة ضاحكة:

ـ يا خالة هذه ملابس سحر، وليست ملابسي.

ـ ما دامت الملابس لسحر فلن أقول شيئاً، فهذه الفتاة هي من تزيّن ملابسها.

أخجلتني عبارتها تلك، فشعرت بأنني أحلّق، فالمسنات لا يجاملن في ذوائقهن أبداً. بقينا لدقائق نستمع إلى حديث «أم شوعي» الساخر عن علاقتها بزوجات أبنائها، عندها قالت لي صالحة بصوت خافت: «الحقيني للغرفة المجاورة». سبقتني صالحة، وهي تحمل أكياس الملابس في يدها. انتظرت قليلاً، وكنت خلال انتظاري استمتع بحكايات هذه المسنّة الساخرة والمضحكة في الوقت ذاته، ثم استأذنتهما وذهبت إلى صالحة في الغرفة المجاورة.

دلفت إلى الحجرة، فوجدتها هي وحسينة تقلبان الملابس بين أيديهما، فحين رأتني صالحة بادرتني:

ـ البسي ملابسك لنراك.

ـ لا مستحيل.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لم أعتد فعل ذلك.

ـ ليس هنالك أي عائق.

ثم أردفت:

ـ لا عليك سنغمض أعيننا.

قالت جملتها الأخيرة وهي تضحك، وكنت أرى الإلحاح في عينيها يقوم بإغراء لا مثيل له. كنت على ثقة بأنها تريد أن تراني في أجمل ثيابي، ليكون لها السبق في مشاهدة إنسانة بيضاء جميلة تلبس فستاناً جديداً. ألحّت علي لأكثر من مرة، ألحّت بطريقة أذعنت لها في نهاية الأمر. تناولت الأكياس من يدها، وأردت الذهاب إلى الحجرة المجاورة لألبس، فتفاجأت بها تقول:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ إلى الغرفة المجاورة لألبس.

ـ ولماذا لا تلبسين هنا؟

ـ نعم !!

ـ إلبسي هنا، فلن ننظر إليكِ.

ـ لا، إنني أخجل من ذلك، حتى عبده لم أعتد على لبس ملابسي أمامه.

ـ عبده رجل، ونحن نساء، لا عليك، إلبسي هنا فنحن النساء نعرف بعضنا بعضاً.

ـ لا أرجوك يا صالحة لا أستطيع.

كانت تصر على موقفها، وكنت بعد كل جملة تقولها صالحة أتراخى، وأذعن، لقد كانت مفاوِضة جيّدة بكل تأكيد، لكنني نبّهتها لأمر ما، قلت:

إن أردت أن ألبس فستاني الجديد فيجب أن أرتدي تحته ملابسي الداخلية الجديدة التي اشتريتها، لأن ما ألبسه الآن تحت ملابسي لا يتناسب مع هذا الفستان.

فردت صالحة ببرود الجمادات:

ـ إلبسيها الآن، ما المانع في ذلك؟

فوجئت ببرودها ذاك، حتى شعرت بأنني لا أستطيع الخروج من سجن حاحها المرّ، ومنطقيتها هذه، أردت أن أعتذر، لكنني وصلت إلى مرحلة لابد أن أمضي معها إلى الأمام، أو أرفض رفضاً قاطعاً ومستهجناً، وأذهب إلى حجرة المجاورة، لأنني لم أكن أقدر على البقاء في هذه الحجرة دون أن أقوم بما طلبته مني صالحة، وأختها تنظر إلي مبتسمة، مع يقيني بأن «حسينة غطفان» لم يكن يعنيها أبداً أن ألبس لترى ذلك الفستان، لأنها لم تُبدِ أي ي إزاء ما كنا نحكي عنه. قمت واختبأت خلف ستارة النافذة في الحجرة وبدأت أغيّر ملابسي خلفها، وحين رأت صالحة أنني نزعت ما عليّ من ملابس، وبدأت في لبس ملابسي الداخلية الجديدة قالت: «دعينا نرى ملابسك الداخلية الجديدة قبل أن تلبسي الفستان». لم أرد عليها، وكأنني لم أسمع ما قالته، ولكنني بكل آلية ممكنة حين انتهيت من ارتداء ملابسي الداخلية وقفت أمامهما، فنظرتا إلي صامتتين، وحين تأكدتُ بأنهما تأملتا ما كنت عليه جيداً عدت خلف الستارة، وبدأت في لبس فستاني الجديد.

الغريب في الأمر أنهما علقتا كثيراً على فستاني وعلى اختياري له، وعلى لونه وطريقة تفصيله، لكنهما لم تعلقا على ملابسي الداخلية لا إيجاباً ولا سلباً، وحين انتهينا من كل شيء، دلقت صالحة على حسينة سؤالاً لن أنساه أبداً، فحينما أردنا الخروج من الحجرة لنعود إلى حيث المرأتين العجوزين في الحجرة المجاورة قالت صالحة لأختها ضاحكة:

ـ لماذا خلقنا الله سمراوات؟ لماذا لم يخلقنا مثل سحر؟

(اليوم الواحد والعشرون)

لا أعتقد بأن يكون اليوم الذي يلي انتهاء الدورة الشهرية في حياة متزوجَين حديثين يوماً عادياً، إنه يوم يريد فيه هذان الزوجان أن يعوضا ما فاتهما من متعة بأقصى شهوة ممكنة، لذا كان اليوم مليئاً بالشهوة، مليئاً بالقرف، مليئاً بالألم، وبكل الأشياء التي تلتصق. كنت قد اغتسلت مساء البارحة من أول دورة شهرية تزورني بعد زواجي؛ فالدورة الشهرية تشبه المرض والمصائب في حياة المتزوجين الجدد، لكنني فرحت بها كثيراً، فرحت بها لأنها ستجنبني الألم الذي جلست أرعاه لمدة خمسة عشر يوماً.

صحيح أنني ارتحت من ألم هذا الرجل الأسود الصلب في كل شيء، لكنه لم يمهلني إلا مسافة تسع ساعات نوماً لينقض عليّ من جديد، فهو الذي أيقظني من نومي بمداعباته المقززة تلك، ووحشيته التي اعتدت عليها، ولم انتبه إلا وهو ينتزع عني ملابسي الداخلية بتلك الطريقة التي يتعامل بها الأسياد مع عبيدهم، وبدأ يقبّل كل ما تصل إليه شفتاه ووعيه، وبدأ يلعق كل ما بقي في ذاكرته منذ خمسة أيام كنت حائضاً فيها، وكأنه يمرّن ذاكرته على الأشياء التي تمتعه أكثر. لم أخرج من هذه المعركة إلا بجثته الهامدة كميّت، ومزاجي النزق، فحينما انتهى من كل شيء قمت من فوري، واتجهت إلى الحمام لأغتسل، وقد نسيت أن آخذ معي ملابس نظيفة لارتدائها، والمرأة التي تدخل الحمام لتغتسل دون ملابس نظيفة هي هاربة حتماً من شيء ما. كانت الساعة العاشرة صباحاً فيما أعتقد، فتحت صنبور الماء، وبقيت تحته لا أتحرك كأي شيء نضعه تحت الصنبور، ونذهب ونحن ندرك بأن بقاءه تحت الماء بهذه الطريقة دون دعك أفضل وسيلة لتنظيفه. بقيت لأكثر من

عشر دقائق على وضعي هذا حتى سمعت صوت الباب يفتح، ليدخل عبده ويستحم معي، فلم أتحرك من مكاني، بقيت على ما أنا عليه، وكأنه لم يدخل، وضع يده على ظهري وجزء من مؤخرتي، ودفعني إلى الأمام قليلاً لكي يدخل تحت صنبور الماء، وحينما بدأ الماء في التساقط على شعره الذي لم ينبت جيداً احتضنني من الخلف، وبقينا صامتين.

كأي شيئين التصقا ببعضهما بعضاً كنتُ أنا وعبده في تلك اللحظة، لا يجيد سوى اللعب بشعري، ولا أجيد سوى أن أغمض عيني وأصمت، فالصمت مثل الدكتاتوريين في الحياة يقلبنا رأساً على عقب. بعد مدة ليست بالطويلة التفتّ صوب عبده، فنظرت في عينيه كمعلمة، وقرصت خده الأيسر بلطف، وخرجت من الحمام وروحي تحبو فوق طرف أنفي. اتجهت إلى غرفة النوم عارية من كل شيء حتى رغبتي في الحياة، لم أشعر بهذا الألم منذ خمسة أيام، وما أقسى أن تحاكم وعيك بنفسك!، أنا التي كنت أظن أن هذه الخمسة أيام يمكن أن تعيد تصويب نظرة عبده في نفسه لي مرة أخرى، لكن من الصعب جداً على الناقصين أن يعيدوا النظر إلى الأشياء مرات متعددة. بدأت في ارتداء ملابسي كراهبة تعرضت للاغتصاب، كنت ارتديها بهدوء من يشعر بالخيبة، والخواء، والمرأة حينما تشعر بالخواء يصبح ارتداء الملابس في داخلها أمراً ثانوياً؛ لأن النساء لا يلبسن الملابس إلا ليزددن زينة وجمالاً وضعت المنشفة على رأسي، واتجهت إلى الصالة، تناولت جهاز التحكم وبدأت أغوص في القنوات الفضائية من دون وعي، كنت أسبح في عالم آخر، وثمة ألم يعصر بطني عصراً، لذا كان الفضاء بالنسبة لي شيئاً يشبه الغاز غير مرئي تماماً.

لم أعتد منذ أن تزوجت عبده أن أشكو له آلامي بعد أي التصاق نقوم به، لكنني لا أدري ما سر جرأتي تلك، حينما دخل عليّ وهو يرتدي قميص نومه، وقد وضع يده على كتفي، فقلت له وعيناي مركزتان على التلفاز:

- إن بطني يؤلمني كثيراً.

ـ هل أذهب بك إلى المستشفى؟

ـ لا، ابتعد عني فقط!

لم التفت إليه لأقيس ردة فعله إزاء ما قلته، لكنني أعرف عبده جيداً، فهو كأي رجل أسود، الغلبة عنده دوماً لشهوته إذا ما تصادمت مع كرامته، فالشهوة لدى السود تشبه الأوامر الإلهية غير قابلة للمناقشة. لم نخرج من البيت في ذلك اليوم، بقينا مثل الصغار حينما يشتري لهم آباؤهم، أو أمهاتهم شيئاً يلهيهم عن التفكير في الخروج إلى الشارع، كان عبده يعتقد بأن تلك الخمسة أيام تذهب من عمره، وكأن القدر سرقها منه بحجّة غير منطقية وهي أن جعلني حائضاً. كنت أشعر بأنه لن يفكني أبداً هذا اليوم لأن الرجال لا يحبون أن يستفزهم أحد في أخذ أشياء يشعرون بأنها ملك لهم، حتى وإن كان القدر هو من يستفزهم في ذلك. ربما أغفر لعبده قسوته العضوية تلك، لكنني لا يمكن أن أتصالح مع رجل يقسو عليّ لمجرد أنني امرأة بيضاء، وهو رجل أسود، فهو دوماً ما يشعرني بأنه ينتصر لعقدة النقص في داخله تجاه بشرته من خلالي، فالعلاقات الزوجية غير المتكافئة هي التي يكون فيها أحد الأطراف في درجة أقل من الآخر، فانتفاء الندّية في العلاقة سبب منطقي لفشل تلك العلاقة كعلاقتي بعبده تماماً، لأنه يشعر بالنقص دوماً أمام جمالي مقارنة بتاريخه، ببيئته، لذلك هو في صراع مخيف بين كل هذا وجمالي.

قرابة الساعة الخامسة عصراً، وحين يكون الناس في شغل عن أمورهم العاطفية عادة، كنت قد انتهيت مع عبده من فصل مؤلم آخر، كان يضع يده اليسرى تحت رقبتي وينظر إلى السقف، وكنت أغمض عيني وأتخيل أشياء كثيرة حتى سألني:

ـ ألا تشعرين بأن انقطاعنا عن بعضنا بعضاً في السرير يولّد شوقاً جميلاً ولهفة؟

ـ نعم، لكن لا يعني هذا بأنني سعيدة.

ـ لماذا؟

ـ لأنك تؤلمني كثيراً، فأنا لا أدري ما سر هذه الوحشية فيك اليوم.

ـ ربما لأنني مشتاق إليك كثيراً.

ـ وإن كنت مشتاقاً إلي فهل تنقلب إلى وحش؟

ضحك بصوت عال كضحكة أي رجل يتباهى بفحولته، وقال:

ـ نحن السود وحوش على الأسرّة.

سحب يده من تحت رقبتي بلطف، وانسل من جانبي، وأخذ يمشي وكأنه يرقص، وأنا أتساءل في داخلي: لماذا السود عادة يشعروننا بأنهم يرقصون حينما يمشون؟. لم أكن أنتظر إجابة عن هذا السؤال؛ ما كنت أنتظره حقاً أن أسمع صوت باب الحمام يُقْفل لأرتاح من مشاركة عبده في الاستحمام، وما هي إلا لحظات حتى أقفل عبده عليه الباب، فشعرت براحة كسجين يسمع خبر انتهاء مدة سجنه، فقمت لاختيار ملابس نظيفة لي من الخزانة وفي داخلي لعنة كبيرة تجاه عبده لو أراد أن ينام معي لمرة ثالثة، كنت أؤكد لنفسي بأنه لن يفعلها قبل الساعة الواحدة صباحاً على أقل تقدير، وأمني نفسي بذلك. أخذت أقلّب ملابسي بهدوء مطلق كعشيقة على موعد غرامي مع حبيبها، وبالمقابل كنت انتظر ذلك الوحش لينتهي من حمامه، فبقيت أتأمل ملابسي في الخزانة بخشوع كزائر يتألم لوحة في معرض تشكيلي عالمي. وفجأة سمعت صوت باب الحمام يفتح ليخرج من خلفه صوت عبده كسكتة قلبية. قال:

ـ ألن تأتي لتستحمي؟

دهشت من سؤاله هذا، فلم يكن مني إلا أن قلت سريعاً:

ـ استحم لوحدك يجب أن أنهي عملاً بين يدي.

ـ اتركي كل شيء، وتعالي.

ـ لا تنتظرني، استحم حتى أنجز ما بين يدي...

ولكي أخرج من هذه السلطة التي تمتلئ إلحاحاً أحببت أن أكون ساخرة وظريفة لكي لا يلح أكثر فقلت:

ـ بالمناسبة هل رأيت ملاكاً تستحم مع وحش؟

فضحك بصوت مدوٍّ، وأغلق الباب عليه مرة أخرى..

حين انتهى عبده من حمامه كنت جاهزة في الحجرة بملابسي ومنشفتي، وما إن دخل من باب غرفة النوم حتى هممت بالخروج، وعندما تجاوزته لم يتورع في صفع مؤخرتي وهو يضحك، لكنني لم أرد، مع أنني أشعر بنرفزة حقيقية حينما يقوم عبده بهذا الفعل. دخلت الحمام وبدأت في الاغتسال، كنت أغتسل كعامل بناء عاد للتو إلى المنزل، وعلى جسده بقايا يوم شاق من البناء. لا أعرف لماذا كنت أشعر بأنني أتعرّق والماء ينسكب فوق رأسي؟ كانت حالة غير منطقية أبداً؛ ففي الوقت الذي ينسكب فيه الماء على جسدي كانت كل مسامات جسمي تنز بعرق حار كأنني قِدر، بقيت في الحمام لمدة تزيد عن نصف ساعة، كنت حريصة فيها على دعك منطقتي الحساسة بشكل أكبر مما اعتدت عليه في السابق، بالطريقة التي توحي لي بأنني انتزعت شهوة عبده من داخلي انتزاعاً، فإذا كان الماء لم يخلق إلا لنحيا به، فالحياة أن تعيش بشكل مريح، كأن تغسل عنك كل الخطايا والخواطر التي تبقيك مع همّك، ووهمك، وضميرك الحي بشكل دائم، بشكل لا يحتمل، كبقايا همي مع عبده على سرير، وبقايا الضمير الذي يطرق عقلي بقوة حينما أتذكر ماهر، وخالي وصفي.

خرجت من الحمام كفتاة مسيحية للتو خرجت من الكنيسة بعد أن دلقت كل اعترافاتها أمام رجل لا تعرفه لتتخفف من آلامها، ودخلت إلى حجرة النوم، وعرفت كيف أقيس المسافة بين هيئتي وشهوة عبده، فقد كنت حريصة أن أزيّن نفسي بالطريقة التي لا تثير عبده؛ لأنني لم أعد أحتمل فكرة أن نعود إلى الفراش للمرة الثالثة في هذا اليوم، وما أقسى أن تمارس شهوتك مع من لا تريد في اليوم لأكثر من مرة. كان الوقت في ذلك الحين ينبئ عن دخول ليل آخر من ليالي هذه المدينة التي لا فرق فيها بين ليل ونهار، فهنالك بعض المدن لا تقيّم الوقت في داخلك، فتصبح الأوقات فيها متساوية لتؤمن فيما

بعد بأنك لم تتصالح معها، ولا مع نفسك. فحين يصبح الوقت كله بالنسبة إليك لحظة واحدة فتأكد أنك أمام شيئين لا ثالث لهما: إما أنك إنسان لم يعد يؤمن بنفسه، أم أنك أمام مدينة لا تستفز أهلها، وما أبشع تلك المدن التي لا تستفز أهلها حقاً. دخلت على عبده في صالة المنزل، وقبل أن يقول أي كلمة سألته:

ـ هل تريد قهوة؟

فأجاب ورأسه معلق في شاشة التلفاز أمامه:

ـ لا.

فاستدرت ذاهبة فسألني:

ـ إلى أين؟

ـ سأعبث في الانترنت قليلاً.

ذهبت، وتناولت كمبيوتري المحمول، وفتحته، فولجت إلى العالم الافتراضي، ذلك العالم الذي نشعر فيه بحقيقتنا إذا لم نجد أنفسنا في واقعنا الحقيقي صراحة، وما إن فتحت برنامجاً للمحادثة حتى بادرتني ابتهال في محادثة كتبت:

ـ كيفك يا عروسة؟

ـ بخير يا حبيبتي، كيفك أنت؟ وكيف أمي وأهلي؟

ـ كلهم بخير.

ثم أردفت:

ـ أريد أن أراك.

أجريت معها محادثة مرئية. وعندما رأيتها فرحتُ كثيراً بها فلا تزال جميلة كما تركتها، تحمل في داخلها كل أحلامي التي سكنت روحي منذ أن بدأت أعي أنني فتاة مرغوبة، وحين رأت شعري مبللاً قالت ضاحكة:

ـ يبدو أنك للتو خرجت من الجنة.

ضحكت بخجل وقهر، وقلت:

ـ قولي للتو خرجت من الجحيم، وليس من الجنة.

ضحكتْ بخجل الفتاة التي تطمح لمعرفة الأشياء، لكن خجلها يمنعها، فأردفت قائلة، وهي تضحك:

ـ للتو أدركت لماذا هرب خطيبي السعودي حينما علم بأن زوج أختي رجل أسود؟

(اليوم العشرون)

ـ بالمناسبة ألم تنتهِ بعد؟

ـ ربما الليلة أو غداً.

كان هذا السؤال آخر عبارة قالها لي عبده عندما كنت أقف بجانبه أمام تسريحة غرفة النوم، وهو يرتدي ملابسه، فخرجت بعدها، وأنا أعرف بأن رجلاً كهذا لا يمكن أن يكون أكثر ذوقاً مع فتاة يشعر أنه اشتراها بحرّ ماله، لأننا لا نحترم الأشياء التي نشتريها بأموالنا بالقدر الكافي. كان يقف عبده أمام تسريحة غرفة النوم يعدل من هيئة شماغه بعد ارتدائه لملابسه، هو الذي سيذهب بعد لحظات إلى عشاء أقامه زملاؤه القدامى في العمل بمناسبة زواجه كما يقول، فحين سألته:

ـ لماذا لا تأخذني معك؟

أجاب:

ـ لأن العشاء للرجال فقط.

ـ وكيف يقومون بدعوتك إلى العشاء بمناسبة زواجك دون أن يطلبوا منك اصطحاب زوجتك معك؟ إنه أمر غريب حقاً.

ـ ليس أمراً غريباً، هم لا يعرفونك أصلاً، وحتى زوجاتهم لا يعرفنك أيضاً، وهذا العشاء للرجال فقط، فزوجات زملائي لن يحضرن.

ـ هي جلسة خاصة إذن.

ـ لا هو عشاء، لكنه عشاء عسكر.

ـ وهل العسكر بهذه العقلية؟

ـ ماذا بها عقليتهم؟

ـ لا شيء، لكنني أشعر بأن ثمة خللاً في الموضوع.

لا خلل ولا شيء، لكن دعيني أسألك.

وسألني عن موعد انتهاء دورتي الشهرية، فأجبته باقتضاب، وخرجت من الغرفة متجهة إلى الصالة، وأخذت أتابع التلفاز، لأنه ليس أمامك في بلد كهذا وفي مدينة مثل تبوك إلا أن تشاهد التلفاز، أو تثرثر في الهاتف إذا خرج زوجك لتناول العشاء مع أصدقائه، فلا يمكنك أن تذهب لتتنزه لأن ثمة وحوشاً في الخارج، وهذا ما صدمني به عبده في ثاني أيامي في السعودية.

حين انتهى من الاهتمام بمنظره مر بجانبي في الصالة متجهاً إلى باب الشقة، كان يسير أمامي وكأنه يرقص فأشار إليّ بطرف عينه قائلاً: «يلا سلام»، وبعد هذه العبارة المقتضبة بأقل من ربع دقيقة سمعت صوت قفل الباب يغلق من الخارج، فقد أحكم عبده إغلاقه جيداً مثل كل مرة يخرج فيها من المنزل. خرج وعدت لأتذكر ألم بطني الخفيف الذي بقي مرافقاً لي لمدة خمسة أيام، بدأ يخف تدريجيا بعد أن بلغ ذروته قبل يومين، حينما شعرت بالقرف من كل ما حولي، ولم أعد أطيق شيئاً. لا عبده، ولا نفسي، ولا حتى ذكرى ماهر الذي لم أكن أتخيل بأن تمر عليّ لحظة لا تشكّل ذكراه بالنسبة لي حلماً يؤكل!.

كنت أشعر بسأم لا مثيل له. لم أكن أعرف ما أريده بالضبط. كانت مشاهدة التلفاز، أو قراءة كتاب أمراً يشبه كثيراً تناول وجبة محددة لمدة ربع قرن من الزمان. لم يخطر ببالي أيضاً أن أتحرك من مكاني؛ لأني أشعر برغبة ملحة في الجلوس، أو الاستلقاء فقط؛ فأنا لا أستطيع إلا أن أكون خاملة، فلو كنت في دمشق في هذه اللحظة لخرجت إلى أقرب مقهى، ولتناولت قهوتي، وحدّقت في وجوه المارة على أقل تقدير، أو تلصصت على عاشقين في ركن قصيّ من هذا المقهى يخططان لأسماء أبنائهما، ويخططان للون الكنب الذي سيبتاعونه للصالة، وهل سيكون مفرش سرير النوم رماديّ اللون أم بنّياً؟. لكن هنا ماذا يمكن أن يحدث؟ لا شيء على الإطلاق. تناولت كتاباً كان موجودً

على رف شاشة التلفاز المعلقة في نحر الجدار أمامي، كان الكتاب يتحدث عن فتاة جميلة عاشت حياتها مع أم عجوز لا تجد لها شيئاً يسد باب الجوع الذي كان يتدفق كبرد إلا أن تحكي لها الحكايات. أخذت أقلّبه دون رغبة فعلية في القراءة، وضعته جانباً، واتجهت إلى حجرة غرفة النوم وتناولت كمبيوتري المحمول الذي فاجأني به عبده كهدية حينما وطئت قدمي بلاط هذا البيت.

فتحت الجهاز، ودخلت إلى عالم الانترنت، وليس في بالي شيء محدد لأتصفحه، فبعد مدة من الزمن ومع تكرار الأشياء ذاتها يصبح الخوض في غمار الأشياء التي اعتدنا عليها ضرباً من الغباء، وضربا من الوفاء أيضاً، فهذا ما أشعر به حينما أتعامل مع المواقع الإلكترونية، لذا قررت أن أدخل دردشة كتابية، فكتبت في محرك البحث كلمة «دردشة» لتندلع أمامي مئات النتائج، فلم يكن مني إلا أن فتحت أول موقع، وولجت فيه. كان موقعاً سعودياً فيما يبدو، فوقفت محتارة ماذا يمكن أن أختار لي كاسم مستعار، وفجأة خطرت ببالي فكرة، فكتبت اسمي المستعار في منفذ الدردشة (بيضاء متزوجة من أسود). دخلت في دردشة، وفي تلك الأثناء التي كنت أحاول فيها اختيار صورة رمزية لي وجدتُ معرّفاً ذكورياً يتحدث معي في محادثة خاصة قال: «مساء الخير». لم أرد عليه، وقمت باختيار صورة رمزية كانت عبارة عن وردة زرقاء لم يرق لي غيرها، فسألني ذلك المعرف الذي لم أرد عليه في المرة السابقة: «هل أنت فعلاً امرأة بيضاء؟». لم أرد عليه مرة أخرى، وأخذت أقرأ أسماء الغرف المتاحة لي للدخول، كنتِ أود أن أثرثر لا أكثر، فنحن نشتاق أن نثرثر عادة مع من لا تربطنا بهم علاقة جيدة، عاد ذلك المعرف الذكوري مرة أخرى وسألني:

ـ لماذا اخترتِ هذا الاسم؟

ففتحت المحادثة الخاصة، وكتبت له:

ـ لأنني زوجة رجل أسود.

ـ وهل فعلاً أنت امرأة بيضاء؟

نعم.

يبدو أنك تكرهينه.

لم أرد عليه للمرة الثالثة، وفجأة ظهر معرّف ذكوري آخر، قال ساخراً:

ـ لا يتزوج الرجل الأسود، إلا امرأة سوداء، الكذب حرام!

ثم بعد دقيقة أضاف:

ـ أو امرأة ذات أخلاق سيئة.

صُدمت من كلامه، فرددت عليه قائلة بحنق:

ـ أنت قليل أدب، وغير متربٍ.

فرد ساخراً، وهو يضحك بشدة:

ـ لكنني لن أتزوج عبدة!

لم أرد عليه، وعدت إلى محادثة المعرّف السابق، فوجدته قد كتب كلاماً كثيراً كان من جملته:

ـ السود بشر مثلنا، لكننا في المجتمع السعودي ننظر إليهم بدونية، وفي الحقيقة إن السود في المجمل يمارسون بعض الأشياء غير الجيدة، لكن أحد أصدقائي أسود ورائع.

ثم أضاف شيئا صدمني قال:

ـ لكنني لا أدعوه لزيارتنا في المنزل.

فقلت له:

ـ لماذا؟

ـ لأن أهلي سيعيبون عليّ أن أكون صديقاً لشاب أسود.

ـ وإن أحببت امرأة سوداء هل ستتزوجها؟

ـ من المستحيل أن أحب امرأة سوداء، لأنهن بشعات أساساً.

أخذت أقلب صور كثير من السوداوات اللاتي رأيتهن منذ وصولي إلى هذا البلد. صحيح أنهن غير جميلات، لكنهن أيضاً غير بشعات، فأحببت أن

أضعه في زاوية حادة، فقلت له:

ـ وإن وجدت فتاة سوداء، وأعجبتك: هل ستتزوجها؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ لأن أبي سيقتلني.

ـ لهذه الدرجة؟

ـ ربما أقيم علاقة عابرة معها، لكن من المستحيل أن أرتبط بها.

ـ أنتم مجتمع غريب.

ـ لماذا؟ هل أنت سعودية؟

ـ لا، لست سعودية.

ـ من أين؟

ـ عربية.

ـ من أين بالتحديد؟

ـ دعنا من هذا السؤال، وأجبني: لماذا لا ترتبط بسوداء ما دمت تحبها؟

ـ نحن لا نحب السوداوات، نحن نستمتع بهن فقط.

ـ متخلفون!

قلت هذه الكلمة له وتركت محادثته لأجد كلاماً كثيراً كان يقوله الكثير حول زوجي وحولي، كلاماً مليئاً بالأسئلة، مليئاً بالحقارة، مليئاً بالغرابة أيضاً، وأغرب ما قرأته كانت جملة لمعرّف ذكوري قال:

ـ أنا رجل أسود، ويبدو أن زوجك لا يعطيك حقك جيداً في الفراش، لأنه لو كان كذلك ما دخلت بهذا المعرّف.

ثم بدأ يشتم...

خرجت من الدردشة سريعاً، شعرت بأن ثمة سيلاً سيأتي ويجرفني معه كجثة أو قطعة خردة.. اعترف أنني شعرت بالخوف، ونحن نشعر بالخوف عادة حينما يقترب الناس من حقيقتنا!. بقيت أمام شاشة كمبيوتري المحمول

باهتة ومنهارة، وغير مستوعبة لما حدث، بقيت أتأمل الشاشة، وذهني يأبى التصالح معي، حلّقت في فضاءات واسعة جداً من الأسئلة، فلم أكن أحتاج كل هذه الغرابة والقسوة والحقارة لأكتشف أي ذنب اقترفته حينما وافقت على الارتباط برجل أسود، وكيف كان خالي «وصفي» حقيراً، ووغداً حينما أقنع أمي بزواجي من هذا الرجل، لكنني تأكدت فعلاً بأن هذا المجتمع يعرف جيداً كيف يتركك في مواجهة دائمة مع أخطائك، مع ضميرك، فهو مجتمع لا يعترف بالمغفرة، فالخطأ هنا يصبح مثل الندبة التي تخلفها شفرة الحلاقة على خدك لا تُمحى البتة.

كنت أتصارع مع أفكاري وخيالاتي، وأتذكر ماهراً وابتهال، وكل أصدقائي وصديقاتي في سوريا، وكنت أرسم حياتي لو لم أتزوج بهذا الرجل كيف يمكن أن تكون؟ كنت سأتزوج ماهراً حتماً، وأعتقد بأنني سأكون سعيدة جداً، لكن سطوة المال هي التي جعلتني أتخلى عن كل أحلامي، فالمال دوماً أقوى من الأمنيات!.

صحيح أن ماهراً لن يوفر لي هذه الراحة المطلقة كزوجة ليس أمامها إلا تحضير الطعام والاستلقاء في الفراش، لكنني سأكون أسعد بكثير مما أنا عليه الآن، سأتعب كثيراً في الحصول على عمل أساعد به ماهراً، بعد أن نقضي أسبوعين من البهجة بعد زواجنا، وربما يعرّض بجمالي الكثير من الرجال الذين سأقدّم لهم طلبي في الحصول على عمل، وسيأتي رجل ما، ويطلب مني أن أكون سكرتيرة له، ليس لأنني أجيد العمل المكتبي إنما لأنني سأكون واجهة جيدة لمكتبه، ولتكون تقاسيم وجهي قريبة منه أكثر ليتأملني كل يوم، ويقوم بعمل تلك المقارنات البائسة بيني وبين زوجته السمينة والبشعة، وربما يتجرأ يوما ليقول لي: «زوجك محظوظ بك حقاً»!. وسأعمل كل ما بوسعي لكي لا يعرف ماهر بالموضوع، سأعود من العمل قبله دوماً وسأحضر له طعامه، وسأنتظره بكل ما تحمله حواسي من رغبة وبهجة، وسأستقبله عند مدخل البيت لأطبع قبلة على خدّيه، وسأحرص ألا يخترق ذاكرتي ليعرف بأن

رب عملي حقير ووغد، وأنه لم يقبل بي كسكرتيرة إلا لأنني فتاة جميلة لم يستطع أن يحصل على مثلها كزوجة، فحصل عليها كسكرتيرة. سننجب أطفالاً شقراً ذوي عيون زرقاء كأبيهم، وسأحاول أن أقنع ماهراً بشتى الطرق أن يحمل ابننا الأول اسم «أدهم»، وأنا لا أدري ما سر اهتمامي بكل ذَكر يحمل حرف الهاء والميم في اسمه. كنت أتنزه مع خيالاتي هذه، فنحن حينما نفرط في استخدام خيالاتنا ندخل في حالة مرضية تشبه الحمى.

لا أتذكر ما فعلته فيما بعد، كل ما أتذكره بعد كل تلك المعرّفات التي أرعبتني في الدردشة، وبعد كل تلك الأحلام التي تشبه الأوهام في ضغطها على روحي، كل ما أتذكره أنني دلفت إلى الحمام لأتفقد روحي التي بدأت في الانسكاب بين فخذي، لأعرف أنها قد ذهبت، ليبدأ فصل آخر من القسوة... حينما وجدت البلل يتمدد طويلاً جداً أيقنت بأنه ينبغي أن أغتسل، وأدعك نفسي جيداً.. فبادرت بالاغتسال.

رائحةُ الأسفلت

حتى الأحلام تعيش بوجهين.

عبده غطفان

(اليوم التاسع عشر)

لقد كان هذا اليوم هو اليوم الرابع لي منذ ولجت زوجتي «سحر بيّاض» في غياهب دمائها، لم أكن أشعر برغبة في البقاء في المنزل وهي على هذه الحالة، وسؤال يملأ عقلي وكياني، ويندس في تفكيري كجرثومة خطرة: لماذا تزور النساء الدورة الشهرية؟ ماذا يمكن أن يحدث لو لم يأتهن طوفان الدماء هذا؟. أعرف أن تركيب المرأة الجسدي يجعلها تواجه هذا المد الدموي المرعب كل شهر، لكن ألا يعتبر هذا ظلماً لمن كان يرغب بشدة في البقاء بجانب زوجته أطول مدة ممكنة؟ أليس هناك خوف أن تنزف المرأة لأيام من دون أن تموت؟، فثمة بعض الظواهر الطبيعية ليست منطقية في شيء.

كنت أتقلّب على جمر خلال هذه الأيام الأربعة، وأعتقد بأن تقلّبي هذا سيطول، فمن المتعب حقاً أن تقف أمام جمال كجمال «سحر بيّاض» مكتوف الأعضاء. صرت أعبث بهاتفي المحمول كثيراً. أبحث فيه عن أرقام الأصدقاء لأذهب لزيارتهم؛ فالبقاء في البيت مع سحر وهي في هذه الحالة، يشبه تماماً وقوف رجل أعمى على ناصية الشارع يتحسس من خلال ذاكرته طريق المشاة. لم أكن أريد الذهاب إلى الأصدقاء الذين عرفوا جيداً بأن بقائي معهم لفترة طويلة نلعب فيها الورق، أو نثرثر كان بسبب فيضان زوجتي، وبين لحظة وأخرى يذكرونني بهذا الأمر، مثل أن تذكّر معوقاً بالقدم البلاستيكية التي يسير عليها، فلقد قررت مساء البارحة ألا أذهب للاستراحة حين تغرق سحر في نفسها، فلقد وصل بهم التمادي أن شككوا في قدرتي على التعاطي مع المرأة بشكل جيد وإنساني، وشبّهوني بالبهيمة التي لا تهتم إلا بالأكل

والمضاجعة، وسأبقى حريصاً ألا تعرف سحر ما دار بيننا هناك، لأن الفعل المنطقي في مجتمعنا ألا تدخل زوجاتنا في أحاديثنا الذكورية.

في الواقع كنت مجبراً على ذلك، لأن الإنسان لا يضطر للبقاء في الأماكن غير الجيدة إلا حينما تلفظه الأماكن الجيدة رغماً عنه، كما لفظتني سحر من عالمها الحلو ذاك..

وجدت اسم قاسم أمامي وأنا أعبث بهاتفي المحمول بعدما استعدت وعيي، وخرجت من سلطة ذكرياتي. اتصلت به، فرد عليّ مرحباً، ودار الحديث بيننا مثل أي أخ أكبر يتصل بأخيه الأصغر، سألته عن صحته، وصحة أمي وحسينة، ثم انعطفت إلى السؤال التقليدي:

ـ هل أنت في المنزل؟

ـ قريب منه

ـ حسناً سآتي لتناول القهوة عندكم بعد ساعة.

كان الوقت في ذلك الحين قرابة الرابعة والنصف عصراً، كنت أشاهد فيه التلفاز، ولا أعرف ما الذي يبثه، كنت في عالم آخر، فلقد أفقدتني طبيعة المرأة في سحر القدرة على الاستيعاب. دلفت إلى حجرة النوم أريد تغيير ملابسي. وجدت سحر مستلقية على السرير تتأمل السقف، ويبدو على ملامحها أنها متعبة حقاً، فمنذ أربعة أيام والألم يعتصر بطنها وظهرها وأرجلها. نظرت إليّ حين دخلت بطرف عينها، ثم عادت لتتأمل السقف مرة أخرى كمريض سرطان في لحظاته الأخيرة، كان جو الحجرة حاراً ورطباً، فقلت لها وأنا أبحث عن ملابس لي في الخزانة:

ـ لماذا لا تشغلي جهاز التكييف؟

ـ الجو هكذا أجمل.

ـ ألم تلاحظي إلى أي حد أنت متعرّقة؟

ـ مرتاحة هكذا

ثم أضافت:

- إلى أين أنت ذاهب؟
- سأذهب إلى بيت أمي.
- خذني معك.
- لم أخبرهم بمجيئك معي. إن أردت أن آخذك مرة أخرى، فيجب أن تخبريني لأخبرهم قبلها بيوم أو يومين.
- لن نبقى طويلاً. أحس بقرف فظيع وأنا هنا.
- لا أستطيع اليوم، لكن في المرة القادمة سآخذك.
- أنا منذ أربعة أيام لم أفارق مكاني، وأشعر بالملل.
- إن أردتِ سآخذك غداً لزيارتهم.

تناولت ملابسي بتؤدة، وكعادتي كنت أهتم باختيار أفضل ملابس يمكن أن أقدم نفسي من خلالها، فلم أكن أحب أن أخرج من المنزل دون أن أكون في أفضل هيئة، وأفضل شكل، وأفضل روح. أتذكر أن سحر كانت تثني كثيراً على ملابسي، وكان يعجبني هذا الأمر، فأن تشغل حيزاً صغيراً من عقل فتاة جميلة كسحر أمر ممتع، حتى وإن كنت أشعر بأنها لم تكن تستسيغ لبسي للأبيض كثيراً. انطلقت من بيتي إلى حي المنتزه عبر شوارع تبوك التي أحفظها عن ظهر قلب، وأكره بعض سكانها من البيض، فتاريخي مليء بكل الأشياء الدميمة تجاههم، كنت لا أقبلهم إطلاقاً، كانوا يشعرون بأن بشرتهم البيضاء هي كل شيء، وأعترف أنني لم أحب منهم سوى نسائهم فقط، فأن تقترب من امرأة بيضاء يعني أنك في منتصف المسافة بين جنتين، لكن الأيام أثبتت لي بأن المرأة البيضاء أكثر برودا في الفراش من المرأة السوداء. كنت أسير في شوارع تبوك قاطعاً شمالها الشرقي إلى جنوبها، وأنا أحاول استيعاب عقد ونصف تطورت فيه تبوك بشكل لا يصدق؛ فتبوك هذه المدينة التي تتمدد فوق صحراء الشمال الغربي من السعودية تشبه إلى حد كبير تلك الفتاة التي دخلت إلى عيادة تجميل، لتخرج بعد عقد ونصف من الزمن، فتبوك استطاعت خلال هذه الفترة من الزمان أن تعيد تشكيل ملامحها بشكل

مدهش، إنها عرفت كيف تجري عملية تجميل لوجهها، حتى غدا أكثر إثارة، وأكثر جاذبية...

دلفت أخيراً لحي المنتزه وأنا أحاول طرد حكاية لطالما ألحت عليّ، خصوصاً حينما أرى الأطفال يلعبون مع بعضهم بعضاً، والفضيلة تتراقص فوق رؤوسهم، تلك الحكاية التي أحدثت شيئاً في داخلي غيّر حياة الكثيرين ممن حولي، ففي ذلك اليوم الذي سمعت من أختي صالحة أن فتيات الحارة سيجتمعن عند خيرية، وكعادة صالحة كانت حريصة جداً على أن تكون نجمة تشع في أي تجمع نسائي تذهب إليه، لذلك كان لبسها في ذلك اليوم في غاية البهاء واللذة، فلم ينقصها سوى أن تكون بيضاء البشرة لتكون ملاكاً.

كنت في السابعة عشرة من العمر تقريباً، في السن الذي تصبح معه أعضاؤنا التناسلية عبئاً وأزمة.. في ذلك اليوم أخذت أبحث عن «يحيى أبو جركن» كثيراً لأخبره عن اجتماع الفتيات ذاك، لنحاول أن نسترق جزءاً من ذاكرتهن لندسه في ذاكرتنا. ولأننا لا نملك أي وسيلة اتصال في ذلك الحين سرت كثيراً بين أزقة الحارة لأجد يحيى، وكان بعض شباب الحارة ممن يملكون بشرة بيضاء قد سخروا مني حينما سألتهم عن يحيى قائلين:

ـ سيختفي إذا جنّ الليل، فحاول أن تجده قبل ذلك.

فرددت عليهم وأنا أسير تاركاً إياهم خلفي:

ـ عيال كلب.

وجدت يحيى أبا جركن أخيراً، وهو يتسكع في الحارة المجاورة لحارتنا، كان كثيراً ما يذهب إلى هناك، لأنه سمع بأن ثمة شاباً يعاكس خيرية من أبناء تلك الحارة وهي عائدة من المدرسة، فأراد أن يعرف ماذا يريد ذلك الشاب منها بالضبط. كان كعادته يحوم في تلك الحارة ولا يكلم أحداً، كان يدخن، ويقذف قشر الفصفص بين شفتيه دون أن يتحدث، وحين رآني ابتسم ابتسامة عريضة وصافحني، ثم سألني مندهشاً عن سبب وجودي هنا، لأنه لم يعتد رؤيتي في هذه الحارة:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ جئت للبحث عنك.

وأكملت متلهفاً لسماع رأيه:

ـ بنات حارتنا سيجتمعن الليلة عند خيرية في المنزل.

ـ من أخبرك بذلك؟

ـ صالحة.

كاد أن يطير فرحاً كتلميذ نال شهادة تفوّق، فأمسك بيدي، وأخذ يجري بي بأسرع ما كان يملكه باتجاه حارتنا، كنا كأطفال فعلاً، ودوماً حين يصبح المرء على مقربة من شهوته يستحيل طفلاً. أخذنا نبحث عن حسن خبزة، لكننا لم نجده، ذهبنا إلى عزبته التي يعربد فيها مع أصدقائه، لكننا لم نجده أيضاً، أتذكر أن «محمود مرزبة» قال لنا:

ـ مادام المغرب قد اقترب ولم يظهر حسن فمعناه أننا لن نراه الليلة.

كان محمود مرزبة أحد أصدقاء حسن خبزة المقربين، ويعرفه جيداً، لكن هذا الأمر لم يمنعنا من البحث عنه، لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يجد لنا مساحة لمشاهدة فتيات الحارة؛ خصوصاً أن الفتيات سيجتمعن في بيتهم عند أخته خيرية. ذهبنا إلى منزله، وسألنا عنه، لكن أمه أخبرتنا بأنه غير موجود. أخذنا نبحث عنه دون كلل أو ملل، كان «حسن خبزة» يمثل لنا في تلك اللحظة نبوءة أو حلماً، لذلك لم نتوقف عن البحث عنه ولو للحظة واحدة، بحثنا عنه في كل مكان متاح، بين كل الأزقة، عند بعض رفاقه، في أماكن تواجده المعتادة. قضينا وقت العصر والمغرب كاملين، ونحن نبحث عنه، لكننا لم نجده، كأنه مات، أو كأنه سُجِن، وحين سمعنا صوت مؤذن الحارة يصدح بأذان العشاء أيقنّا أننا لن نلقاه، عدت أنا ويحيى مطاطئي الرأسين؛ فقد حُرمنا اليوم لذة لن تتكرر إلا نادراً، وفي الأثناء التي كان إمام مسجد حارتنا يقرأ سورة الفاتحة في ركعة العشاء الأولى بصوته البشع ذاك، قال لي يحيى:

ـ ما رأيك في أن نذهب ونختلس النظر لهن بدون حسن؟

ـ كيف؟

ـ نصعد سطح منزل أهل حسن، ونشاهدهن.

ـ أنت مجنون! لا مستحيل.

ـ أنت جبان، فأنا سأذهب.

أخذ يلح عليّ كثيراً، ويهوّن هذا الأمر بالنسبة لي. أغراني بشدة، وأقنعني بأنه لو كان «حسن خبزة» معنا في موقف كهذا فلن يتردد ولو للحظة عما سنقوم به الآن، وقبل كل شيء فإن حسناً صديقنا على الرغم من أننا لا نشرب معه مما يشربه مع أصدقائه في العزبة. كانت أهم الأشياء التي ألح عليّ بها يحيى أن الصعود فوق سطح بيت أهل حسن ليس بالأمر الصعب نظرا لملاصقة خرابة «عكور» لبيت حسن. فنستطيع أن ندخلها، ومن خلالها يمكننا أن نصعد سطح المنزل لتكون ليلة لذيذة بامتياز. كنت ولا أزال أعتقد بأن المراهقين أكثر الناس ذكاء في تعاملهم مع الأشياء التي تثير غرائزهم، لذا لم يكن كل ذلك التخطيط الذي خطط له يحيى أبو جركن مدعاة للزهو والاستغراب، إنه فعلاً تخطيط منطقي لمراهق كانت أنثاه تتوسط حوش منزل بجانبه خرابة. سار المخطط كما رسمه يحيى. دلفنا إلى خرابة «عكور» أولاً، ومنها استطعنا الوصول إلى سطح منزل أهل حسن، وفي تلك الأثناء التي استقررنا فيها فوق السطح كنا نسمع صراخ الفتيات في الحوش. ميّزنا صوت «خيرية» وهي تخاطب «حمدة علي» قائلة:

ـ حمدة، أعطيني الاستريو، ومجموعة الأشرطة التي ستجدينها على ظهر الطاولة بجانب الاستريو.

ثم أضافت:

ـ ستجدين الاستريو في غرفة حسن، هي الغرفة الأخيرة عن يمينك.

يبدو أنها كانت تجهّز لإقامة حفلة نسائية صاخبة وراقصة كعادة كل النساء هنا، كنا نريد التقدم لمشاهدتهن، ولكننا كنا نخشى أن ترانا إحداهن، وتنتهي خطّتنا بفشل ذريع منذ بدايتها، لذلك قلت ليحيى:

ـ لا ينبغي أن ننظر لهن من وسط السطح، يجب أن ننظر إليهن من إحدى الزوايا.

أخذ يحيى يتأمل السطح بعين مراهق مثار، ولص أيضاً، وقال:

ـ حسناً انتظر هنا، وسأذهب إلى جهة باب الرجال لأنظر من هناك، ولأتأكد هل يمكن أن أشاهد الحوش من هناك جيداً.

ثم استدار وقال:

ـ أو اذهب أنت لجهة باب النساء، وانظر هل يمكن أن نشاهد الحوش من هناك بشكل أوضح.

ذهب كل منا في اتجاه، وبينما أنا أخفض رأسي وأرفعه لأتأكد من الرؤية، واختيار زاوية مناسبة للمشاهدة سمعت همساً من الجهة المقابلة، فالتفت لأجد يحيى أبو جركن يشير إليّ بالاقتراب بإحدى يديه، فأخذت أحبو إلى أن وصلت إليه، فقال لي وهو يشير إلى الأسفل: «انظر»، فنظرت إلى الأسفل لأجد حسن خبزة وأختي صالحة يتبادلان القبل بحميمية صرفة، وهما واقفان أمام مدخل البيت من جهة قسم الرجال، وقد وضع حسن يديه على مؤخرة صالحة، وأخذ يتحسسها.

ـ هلا بالعريس.

كان هذا صوت قاسم وهو يطرق عليّ زجاج سيارتي، وأنا لا أزال جالساً في السيارة أتذكر هذه الحكاية التي مضى عليها أكثر من عقد ونصف من الزمن. ترجلت من السيارة، وأنا غارق جداً في هذه الحكاية التي لم أنجُ منها إلى هذا اليوم.

(اليوم الثامن عشر)

لا يمكنك أن تنجو من ألسن الناس إذا كانت شجاعتك تتصادم مع ثقتك بنفسك، فمنذ أن تزوجت سحر وأنا أشعر بأنني غير قادر على التماسك كقطعة ثلج ضلّت طريقها عن (الفريزر)، خصوصاً بعد أن دهمها الفيضان الذي توسط في وقته، وتوسّط في رحم معاناتي، فاليوم هو اليوم الثالث لفيضانها، وأنا أحس بأنني ضائع كمهاجر ندم كثيراً على هجرته. كنت أتحسس ذقني، وأنا أشاهد التلفاز في الصالة كسجين حُكم عليه بالإعدام، شعرت بأنني بحاجة ماسة لأن أحلق ذقني، ولكي يطمئن قلبي أكثر ذهبت إلى غرفة النوم، وأخذت أحدق في المرآة، لكي أتأكد بأنني فعلاً أحتاج إلى ذلك، فمنذ أن وصلت إلى السعودية، وأنا لم أحلق ذقني أو شعري.

على كل حال فإن شعري لم ينمُ كثيراً، أو بالأصح هو مثل الأطفال المنغوليين لا يتغيّر، ولا ينمو إلا ببطء، تناولت مفاتيح سيارتي وهاتفي المحمول، ومحفظة نقودي، ومررت بسحر التي كانت تصنع لها قهوة في المطبخ، وأخبرتها:

ـ إنني ذاهب إلى الحلّاق، هل تريدين شيئاً من الخارج؟

ـ أبداً.

خرجت من عندها، ونحن متواطئان على عدم حاجة كل منا للآخر، وبدأت أستعيد ذكرياتي مع خالها الذي أرشدني إليها. أعتقد بأن أفضل قرار اتخذته في حياتي أن أقرض خالها «وصفي ريحان» مبلغاً كبيراً من المال ليقوم بشراء سيارة أجرة، لأن هذا القرار هو الذي قادني إلى سحر، وجعلني أظفر بها كزوجة. في ذلك اليوم وبعد معرفة بسيطة بخالها وصفي جاءني طالباً

مبلغاً من المال، هو الذي كان يعمل كسائق أجرة يستأجرها من معلّمه الكبير، عرفته في أول رحلة لي إلى سوريا، فحين جاءني طالباً ذلك المبلغ من المال لم يكن مني إلا أن سألته:

ـ ماذا تريد به؟

ـ أريد شراء سيارة أجرة؛ لأعمل لحسابي الشخصي، وإن فتح الله عليّ واشتغلت عليها سأعيد إليك نقودك.

لكنه لم يستطع أن يعيدها لي، فسيارته هذه بالكاد كانت توّفر له دخلاً يومياً بسيطاً يستطيع من خلاله أن يطعم زوجته، وأطفاله الصغار فقط، ولا يستطيع أن يعيد إليّ مبلغاً ضخماً كالذي أقرضته، ومع مرور الأيام، بدأت في مطالبته بالمبلغ، فكان يتهرّب مني، وأنا أعرف جيداً بأنه لا يستطيع أن يعيد ذلك المبلغ، وذات ليلة التقيته في أحد الملاهي الليلة التي كانت تفترش الطريق الكبير خلف حي التل في دمشق، كان برفقة شاب إماراتي، وبعد أن شربنا سوياً، وبعدما بدأ الخمر يجوس في رؤوسنا، ويصدر رنيناً عذباً، ذكّرته بالمبلغ الذي أقرضته إياه، فسحبني من يدي، وأخرجني من الملهى وحينما ابتعدنا عن الضوضاء قال لي:

أنا لا أستطيع أن أوفّر لك مبلغا كهذا، لكن إن أردت فخذ هذه السيارة التي قمت بشرائها، وبعها، وخذ نقودك، لكن تأكد بأنك ستقطع رزق أطفال صغار، لن يجدوا ما يأكلونه.

ـ وما العمل يا وصفي؟

هل تريد أن تتزوج من فتاة سورية؟

ـ إنه عرض مغر، لكنني لا أريد أن أتزوج فتاة كأولئك الفتيات اللاتي في الملهى.

ـ بكل تأكيد، فلدى أختي ابنة جميلة ورائعة، يمكنني أن أقنعها بأن تزوّجك إياها، لكن شريطة ألا يعرف أحد بما بيننا من أمور مالية.

ـ طبعاً.

ـ سأحاول أن أقنعها، وأنا لا أعدك بالموافقة، لأنني أعرف بأن الفتاة تحب شاباً يدعى «ماهر خليل»، وتريد الزواج منه.

ـ حسناً أفعل ما تراه، وسأنتظر ردك.

ومنذ ذلك الحين بدأت «سحر بيّاض» تتسلل إلى قلبي وروحي، وهي تسير على أطراف أصابعها التي عرفت كيف تقص أظفارها جيداً.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة عصراً في هذه المدينة التي يصبح معها وقت العصر مثل أسياخ الحديد الفائضة التي نراها بجانب البنايات التي تم الانتهاء من بنائها حديثاً.. ركبت سيارتي وبدأت في المسير، وليس في ذهني أي حلّاق أعرفه، أخذت أتجوّل في شوارع حي المروج، لكنني لم أجد حلاقاً فاتجهت إلى الشارع العام، فوجدت صالوناً، ووقفت بجانبه، كان يبدو من ديكوره أنه صالون فاره. ترجلت من سيارتي اليوكن البيضاء التي أوقفتها بجانب الصالون، ودخلت لأجد شاباً تركيّاً يقف خلف منضدة، ويشير إليّ برأسه أن أستريح فوق واحد من تلك المقاعد التي لا نراها إلا في صالونات الحلاقة، كان الصالون بارداً بمثل تلك البرودة التي تشعر بها حينما تدلف إلى ثلاجة لبيع الخضار والفواكه، أشرت إلى الشاب التركي الذي يقف وراء المنضدة، فالتفت نحوي وقال:

ـ نعم.

ـ هل من الممكن أن تخفض من برودة جهاز التكييف؟

أخذ يبحث في أحد أدراج المنضدة التي أمامه عن شيء لم أتبيّنه، لكنه بعد لحظات أخرج جهاز التحكم بالتكييف، وأخفض من حرارة المكان، وأنا أشعر بالبرودة كما هي وكأنني طفل تداريه أمه بكلمات حانية تجاه رغباته، وهي لا تنفذها له. انتظرت قرابة النصف ساعة لأرى شاباً أبيض يخرج من وراء الحاجز الخشبي في الصالون، ويبدأ في نقد الشاب التركي الذي يقف خلف المنضدة حسابه، وحينما انتهى مر من أمامي، وقد ظهرت على وجهه ضحكة مكتومة، وأنا كرجل التقى أحد أبناء جاره في أحد النوادي الليلة

في الخارج، وحينما رآه أخذ يكتم ضحكته. أشار إليّ ذلك الشاب بالتقدم إن كنت أريد أن أحلق، فتجاوزت الحاجز الخشبي لأجد أمامي شاباً تركيّاً آخر، يشير إلي بيده أن أقترب منه، وهو يقول: «تفضل». جلست على كرسي الحلاقة بعد أن وضعت محفظة نقودي، وهاتفي المحمول، ومفاتيح سيارتي على الطاولة أمامي، تناولها الحلاق التركي الذي كان يقف على رأسي كمرافق أمير، ووضعها في زاوية بعيدة من الطاولة الرخامية أمامي، وهو يسألني:

ـ ماذا تريد أن تحلق؟

ـ ذقني.

وضع المنشفة على صدري، وأخذ يجهّز موسى الحلاقة، ثم وضع على ذقني بعض الرغوة، وأنا أشاهد صورتي في المرآة أمامي، وأشعر بنعاس خفيف من تأثير جهاز التكييف، بدأ عمله وشعور بالضحك يعتريني من أثر الدغدغة التي تنبعث من حركات يديه على وجهي. كان يحلق وأنا أتأمل وجهي في المرآة دون تمييز حقيقي لملامحي، وأتخيّل كيف كان يقنع «وصفي ريحان» أخته بأن تزوجني من سحر، بدأت أتخيّل الحديث الدائر بينهما، وسحر تبكي في الغرفة المجاورة، لأن فتاة تحب شاباً، وتريد الزواج منه ليس أمامها إلا أن تبكي حينما يتقدم لخِطْبَتها رجل لم يكن في حسبانها البتة. في تلك الأثناء سمعت رنين هاتفي المحمول على الطاولة الرخامية أمامي، لكنني بقيت على وضعي مسترخياً وكأن هذا الهاتف لا يعنيني، واستمر الحلاق التركي في الحلاقة، وكأن رنين الهاتف الذي أمامه يأتي من جهاز التلفاز المعلّق في نحر هذا الصالون الفاخر. كان يحلق باندماج، وكأنه يرسم، أو يؤلف قطعة موسيقية، وكنت في صراع مع ذلك النعاس الذي بدأ يتسرب إلى داخلي وكأنني بالون وبين خيالاتي في حكاية وصفي وأخته، وصوت رنين هاتفي المحمول يعود مرة أخرى وكأننا لم نسمعه. أغمضت عيني والحلاق يتابع عمله، وبدأت أتذكر فيضان سحر الذي أخذ يثير نزقي، فهل ينبغي أن أبقى هكذا رجلاً في منتصف الثلاثين لا يعرف ماذا يفعل بامرأة جميلة

تزوجها حديثاً؟ ماذا يمكنني أن أفعل مع سحر وهي في هذه الحالة؟ هل ينبغي عليّ أن أبقى هكذا، أو أتجرأ معها في أن أتلاعب بأي شيء مثير فيها لإطفاء جمر شهوتي؟ وماذا يمكن أن تقول عني سحر لو تجاسرت على جبني وخجلي وطلبت منها ذلك؟. إن امرأة جميلة مثل سحر لا ينبغي أن أتعامل معها بنصف لذة، إنها امرأة كاملة؛ ينبغي أن تكون اللذة معها مكتملة؛ فرغم فيضانها وموسم قرفها هذا إلا أنني لم أشعر بمثل ما شعرت به مع ناجية سعيدة حينما كانت تصاب بهذه الوعكة العرضية. فكم يلزمنا من الهدوء حتى نقف أمام النساء الجميلات، وكأنهن الآلهة!.

انتهى الحلاق من حلاقة ذقني بعدما صبّ في أذني كلمة «نعيماً» التي اعتاد أن يقولها لكل من يمر من هنا، حتى أصبحت مثل الأكلات الصينية بلا ملح عادة. حين سمعت ما قاله فطنت بأنه انتهى من عمله، ولم يضع على وجهي كريماً مبيّضاً، فسألته:

ـ هل لديك كريم مبيّض للبشرة؟

ـ نعم.

ـ أتمنى أن تضع لي قليلاً منه.

قام بدهن وجهي بذلك الكريم، فبدأت أشعر بأن في داخلي ملاكاً أبيض يختبئ وراء هذه السمرة الداكنة، وفرحت كثيراً. شكرته على ذلك، وقمت من عنده، وتناولت حاجياتي من فوق تلك الطاولة الرخامية المليئة بالكريمات، والمناديل، وأدوات التجميل الأخرى. عدت إلى الشاب الذي وقف وراء المنضدة، ووجدته كما تركته ينتظر أن يكذب على الزبائن بأنه خفّض من برودة جهاز التكييف، وهو ينتظر أن ينقدونه حساب الشعرات التي تتساقط على الأرض. ناولته حسابي، وخرجت من الصالون، وركبت سيارتي كأنني اقترفت ذنباً. فتحت هاتفي المحمول لأجد مكالمتين فائتتين كانتا من يحيى أبي جركن، فأعدت الاتصال به فرد عليّ ساخراً:

ـ لماذا لم ترد يا عريس الغفلة؟

ـ كنت لدى الحلاق.

ـ ماذا تفعل؟

ـ يعني ماذا يفعل الشخص في صالون الحلاقة؟ كنت أغيّر زيتاً للسيارة!

ـ أصبحت ظريفاً يا عبد. ماذا تحلق عند الحلاق، وشعر وجهك يحتاج إلى منظار لرؤيته؟

ـ على الأقل ينبت الشعر في وجهي أفضل منك أنت، فأنت تحتاج إلى أن تدق البوري لشعر وجهك كي يخرج!

ضحك بصوت عال... وبعد لحظات سألني:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى البيت.

ـ هل تذهب معي للاستراحة؟ أم أنك لم تشبع أيها الأسود؟

ـ المكان مغلق للصيانة يا صاحبي.

ضحك بصوت عال مرة أخرى، وقال لي:

ـ حسناً سأمر لملاقاتك في البيت.

ـ انتظرك.

وصلت إلى المنزل بعد ذلك بخمس دقائق، فبدّلت ملابسي، ولبست أفضل ما لدي من ثياب، وأخبرت سحر بأنني ذاهب إلى الاستراحة، وما هي إلا لحظات حتى سمعت رنين هاتفي المحمول، رن رنة واحدة ثم أغلق، وحينما وجدت المتصل يحيى عرفت بأنه ينتظرني في الخارج، فاستأذنتها، وخرجت. ركبت مع يحيى في سيارته، فأخذ يحدّق في ذقني، وكأنه لأول مرة يراني في حياته، كنا ننظر إلى بعضنا صامتين، ويحيى يكتم ضحكة بادية على محياه. كان يحاول استفزازي، وكنت كمن يضع قلبه في برميل مليء بالثلج. بعد فترة قصيرة سمعت رنين هاتفي المحمول، فأخرجته من جيب ثوبي، فإذا بسحر تتصل بي، رددت عليها:

ـ أهلاً سحر.

ـ أريد أن أستأذنك في الذهاب إلى جارتنا أم حسين.

ـ متى ستذهبين؟

ـ سأبدل ملابسي، وسأذهب الآن. متى ستعود أنت؟

ـ ربما أتأخر قليلاً. في حال أردتُ العودة إلى المنزل سأتصل بك.

أغلقت خط الهاتف والضحكة لا تزال معلّقة بوجه يحيى الذي لم ينطق بأية كلمة، رفعت صوت جهاز التسجيل في السيارة لتنطلق أغنية لذيذة ليست كمثل وجه هذا الأسود الذي بجانبي، كنت أسمع الأغنية، وفي ذهني تدور كثير من الدوائر الرومانسية التي نراها في المسلسلات الخليجية عن عاشق اقترن مؤخراً بحبيبته، وبينما أنا كذلك قال لي يحيى: «كنت تحلق ذقنك إذن؟». شعرت بأنه يريد أن يسخر مني، فلم أرد عليه، وبقيت كما أنا أعدُّ تلك الدوائر التي لا تحدث إلا في المسلسلات الخليجية، كان يحيى ينظر إليّ تارة، وينظر إلى الطريق تارة أخرى، وهو يكتم ضحكته العوجاء التي لم تخرج إلى الآن، فكرر عليّ ما قاله مرة أخرى، فلم أرد أيضاً، فأخذ يداور بين نظره في الطريق مرة، وفي وجهي مرة أخرى، فتضخّم نزقي، وقلت له:

ـ هل أتيت لتسخر مني؟

ـ لا، لكنك تبدو فاتناً بعدما حلقت ذقنك!

ـ أشبه ويل سميث صح؟

عندها اندلع ضحكنا في السيارة كسكارى للتو خرجوا من ملهى ليلي، فقال يحيى وهو يضحك بصوت مرتفع:

ـ لا أنت تشبه براد بيت، لكن يبدو أن أهلك نسوك في الفرن كثيراً!

ـ وهل ترى براد بيت رجلاً وسيماً؟ وبشرته تشبه من غسل وجهه بدواء الغسيل!

كنا نتعامل مع بعضنا بسخرية حتى وصلنا إلى الاستراحة، وحينما دخلت استقبلني كل السود فيها بترحاب وصراخ، وعندما أردت أن أسلّم على «علي حلوش» مد يده لعضوي الذكري، وهو يقول: «أريد أن أكشف عليك، هل

استحال لون عضوك إلى لون وردي؟!»، فضحك الجميع من كلامه هذا، فتيقنت بأنني سأكون وجبه شهية في أفواه هؤلاء السود الذين يشبهون براميل متراكمة من النفط. وما إن استقرت مؤخراتنا على فراش هذه الاستراحة المليئة بالبقع السوداء من أثر سقوط جمر الشيشة عليها حتى قال يحيى: «أتمنى ألا تقسوا على عبده، فالرجل يعاني كثيراً هذه الأيام؛ لأن المكان مغلق للصيانة!». عندها اندلعت الشرارة الأولى لليلة مليئة بالسخرية، جعلتني أتخذ قراراً بعدم دخول هذه الاستراحة مرة أخرى إذا هجم عليّ فيضان سحر الأحمر ذاك.

(اليوم السابع عشر)

كانت الساعة الواحدة ظهراً حينما دخلتُ على سحر في الصالة وأنا أتلوّى جوعاً، فألقيت عليها جملتي دون أن أنتظر منها رداً، واتجهت إلى الحمام. قلت: «اصنعي لنا شيئاً لنأكله». دلفت إلى الحمام، فغسلت عني ما تبقى من نومي الثقيل الذي يشبه النوم في المستشفيات، ثم خرجت، واستلقيت على كنب الصالة أمام التلفاز لأجد فيلماً يُعرض على الشاشة كانت تتابعه سحر. كان بطل ذلك الفيلم شاباً أسود يمثل دور لص محترف، فيقبض عليه ليدخل السجن، ويمضي عقوبته كاملة هناك خلف الأسوار الطويلة، ليخرج من السجن شخصاً مختلفاً، ويحب فتاة سمراء، ويتزوجها بعد أن علّمته هذه السمراء كيف يقضي وطره لأول مرة في حياته، فقد قضى نصف حياته في النهب والسرقة فقط، يصوّر الفيلم: كيف يمكن أن يبني الإنسان حياته من الصفر، وكيف يمكنه أن يردم الهاوية دون أن يقع فيها، إنه فيلم يحمل تفاؤلاً جميلاً على الرغم من كل الصراعات التي كانت تواجه بطل الفيلم في طريق نجاحه، وكيف يتجاوز هذا البطل كل تلك الصعوبات على الرغم من حقارة جاره الأبيض الذي ألّب الجميع عليه، مع كل تلك النجاحات والانتصارات التي حققها. إنه فيلم يعلّمنا مدى الخسّة التي تعشعش في داخل الإنسان، والزيف الذي تستره مظاهرنا. إن هذا الفيلم يربي في داخلنا ألا نثق في الأشياء والأشخاص أياً كانوا، فالشك هو الجزء الأهم في هذه الحياة.

أعترف بأنني شاهدت هذا الفيلم من قبل دون أن يُحذف منه مشهد واحد عند أحد الأصدقاء، كنت وأنا أشاهده الآن أتذكر صديقي الأسود ذاك: وكيف كان متعاطفاً مع بطل الفيلم هذا لدرجة بدأ يشتم فيها حظّه، ويقف

أمام القدر متسائلاً كملحد!. لكن الفيلم الآن كان مختلفاً جداً عن سابقه لكثرة المشاهد المقتطعة منه. وبينما كنت أتابع الفيلم دخلت عليّ سحر، وأنا منهمك في المتابعة، وحين رأتني مندمجاً سألتني:

ـ هل أعجبك الفيلم؟

ـ جداً، على الرغم من أنني شاهدته مسبقاً.

وقفتْ أمامي تشاهد الفيلم، وتحاول أن تبيّن لي إلى أي مدى هي مستمتعة به. لم تجلس، بل بقيت واقفة لقرابة عشر دقائق، بعدها عادت إلى المطبخ، وعرفت فيما بعد أنها كانت تريد أن تسألني ماذا أريد أن آكل؟ لكنها حينما رأت استمتاعي بالفيلم فضّلت أن تصنع لي شيئاً يناسب أجواء اندماجي ذاك، وأعترف بأن كل ما كانت تصنعه لي سحر من أكل كان يعني أنني أمام وجبة استثنائية، فهي بالقدر الذي كانت فيه تدهشني بجمالها وعذوبتها، كانت تدهشني بطبخها أيضاً. لكنني لا أدري أين وقعت تلك الحلقة المفقودة لأجدها، وأربط بين سحر التي تحلّق في النهار عن سحر التي تنكمش ليلاً.

صحيح أنني لم أشعر بالمتعة نفسها التي شعرت بها في أول مرة أشاهد فيها هذا الفيلم الممتع، لكنني بقيت على حالتي تلك في متابعة هذا الفيلم حتى جاء الغداء بعد قرابة ساعة. وضعت سحر أمامي الأكل، فهجمت عليه كمتّهم لم يذق طعاماً طوال فترة التحقيق. كنت آكل بسرعة، وأشاهد الفيلم الذي شارف على النهاية، فشعرت بالعطش، فطلبت من سحر أن تأتيني بكوب ماء، وحينما ذهبتْ أخذت أحدّق في مؤخرتها ورغبة جامحة في أن أجامعها تمتطيني كبغل، أنا المحروم منها منذ أكثر من ثلاثة أيام، وصعب جداً أن تُحرَم من زوجتك لمدة ثلاثة أيام خصوصاً حينما تكون فاتنة مثل سحر. عادت وفي يدها المشوبة بالقشطة كوب ماء، تناولته، وشربته دفعة واحدة، وعدت مرة أخرى في الانهماك في الأكل. كنت ألحظ سحر وهي تتابع الفيلم، وبين لحظة وأخرى تسترق النظر إليّ، وأعترف أن منظري وأنا

آكل كان مغرياً للمشاهدة. لم أسألها لماذا لم تأكل؛ لأنني أعرف إجابتها المعتادة منذ أن دهمها فيضانها الأحمر هذا، بأنها لا تشعر بالجوع. انتهيت من الغداء، فاستندت إلى الكنبة كما هي عادتي، فنحن لا يمكن أن نقوم بعمل بعد أن نشبع سوى أن نستند إلى شيء ما، وندخن.

قامت سحر وأخذت السفرة من أمامي، فبقيت على حالي هذا لمدة تزيد على ربع ساعة لا أستطيع أن أتحرّك، فقد امتلأ بطني بطريقة مؤذية، كنت لا أستطيع التنفس جيداً من هول ما أكلته، فقد أكلت وكأنني لن آكل بعد ذلك أبداً، وفي صراعي مع تنفسي الرهيب ذاك عادت سحر وهي تحمل في يدها كوباً من الشاي، ووضعته أمامي. عندها تجاسرت على أنفاسي، فقمت واتجهت إلى المغسلة بعد أن أمرتها بأن تحضر لي منفضة سجائري الزجاجية. غسلت يدي جيداً، وعدت إلى الشاي والفيلم الذي لم يبق منه إلا مشاهد قليلة، وتناولت سيجارة، وأخذت أدخن، وأنا أستلذ بالفيلم والشاي بين يدي.

أخذت أثرثر بعدها مع سحر عن الفيلم، وأنا منهمك في التدخين؛ حكيت لها ماذا يمكن أن يقدّم الزيف للإنسان، وهل يمكن أن نعيش بلا قناع، فبررت بأن الأقنعة هي الحياة، وحاولت أن أكون أكثر حنكة، فقلت لها بأن الحياة لا يمكن أن تقف عند شيء أبداً، إنها تحمل جبروتاً لا يصدّق؛ بحيث تقوم بتحطيم بعضها بعضاً. إن الحياة لا تعترف بنفسها، لذا نجدها دوماً ما تحطّم ما بنته، وتعود إلى البناء من جديد. إنها خصلة الشك التي ينبغي أن يؤمن بها الإنسان.

حكيت لها كلاماً كثيراً، كلاماً لم أكن أتخيل في يوم ما بأنني سأقوله، لكننا دوماً ما نحسن الكلام إذا وجدنا امرأة جميلة تصغي إلينا. كنت أتحدث معها إلى أن سمعت أذان صلاة العصر، فسكتّ وقلت «الله أكبر»، ولم أتفوه بكلمة بعدها إلى أن انتهى الأذان، فبقيت على حالي أحدّق في الأرض، ولا أدري ما السر في ذلك.

صحيح أنني لم أكن مواظباً على الصلاة كما ينبغي، لكن ثمة رعباً في

داخلي وخشية من الله لا تضاهى، فقد كان صوت الأذان والقرآن، والمواعظ الدينية التي تتحدث عن الموت والنار تدخل الرعب في داخلي كإبرة تخدير في يد طبيب أسنان، فدوماً ما كنت أحس بأنني سأموت بطريقة غريبة وبشعة في الوقت ذاته؛ كنت دوماً ما أتخيّل أن تدهمني سيارة، وتعبر إطاراتها رأسي لينفجر، ويلتصق دماغي بالأرض، وأحياناً أتخيّل أن ينتفخ بطني بشكل مخيف ومحيّر، وحين يبقره الطبيب بمشرطه في المستشفى يخرج منه الدود زرافات بعد أن يكون قد التهم كل أحشائي.

كنت أتخيّل أشياء كثيرة من هذا النوع، وكم هو مؤلم أن تحس بأن مماتك سيكون بشعاً إلى هذا الحد، لأن إحساساً كهذا يدفعك للزهد في الحياة، أنا الرجل السعيد الذي انتصرتُ في حياتي بزواجي من هذه الفاتنة التي تجلس أمامي. تركتها، ومضيت إلى الحمام لأتوضأ، كنت أحس بأنني طفل من أولئك الأطفال الذين عادوا للتو من المدرسة، وهم يشعرون بثقل المدرسة على أنفسهم، والكره الشديد لها يدخّنهم كسيجار كوبي، والأمنيات تتطاير من خيالاتهم بأن تنفجر هذه المدرسة، فلا يذهبون إليها مرة أخرى. أخذت أتوضأ بهدوء وسكينة، وما إن انتهيت حتى ذهبت إلى غرفة النوم، واستبدلت ملابسي بملابس أنيقة ولائقة للمسجد، فليس كل ما نلبسه لائقاً لأداء الصلاة في المسجد.

اتجهت إلى الصلاة، وحينما دلفت إلى المسجد لم أر في وجوه الناس أي معنى لبشرتي السوداء التي ترتديني كمعطف مهترئ. كان الكل منهمكاً في قراءة القرآن، أو الدعاء، أو الصلاة، أو التحديق في الساعة التي تقبع في صدر المسجد. مشطت بنظري المسجد فلم أجد من أعرفه، لكن وجوه الناس باتت مألوفة جداً بالنسبة لي، فالإنسان حينما يقترب من ربه تغدو ملامحه مألوفة أكثر، وأقرب إلى الضعف والانكسار، فنحن لا ندرك قيمة ضعفنا وانهزامنا إلا حينما ندخل مسجداً، أو نقترب من الله. صليت ركعتين تحية للمسجد، ولم أنته منها إلا وأنا أرى جاري «أبو حسين» يتجه إلى المحراب،

وعندما رآه المؤذن أقام الصلاة، فاصطف المصلّون واعتدلوا في أماكنهم، قبل أن يقول لهم الإمام «استووا.. اعتدلوا». وقفت أمام جهاز التكييف مباشرة، كان هواؤه في البداية يلفح وجهي ويشعرني بنشوة لذيذة، فكبّر الإمام وولجنا في عالم الله، كلّ منا له أمنياته وأحلامه، وكلّ منا يناجي ربه على حدة، لكن المرعب حقاً أن الله يسمع كل هؤلاء البشر في وقت واحد!.

بدأ هواء جهاز التكييف يضايقني، وبدأت أشعر بالبرد، كنت أنتظر أن ينهي الإمام قراءة سورة الفاتحة وأي سورة أخرى ليركع، وما زاد ألمي أن الصلاة لم تكن جهرية، فبقيت أنتظر دون معرفة أو تنبؤ متى يمكن أن يركع هذا الإمام ليخرجني من صراعي مع جهاز التكييف الذي يقبع أمامي كمحقق مبتدئ.

عندما انتهت الصلاة، واستدار جاري إمام المسجد لمحني فابتسم، كانت لحظة رائعة. كنت عن يساره لست بعيداً عنه. ابتسم لأنه ربما شعر بأن ما قاله لي قبل أيام أثّر فيّ، وهو لا يعلم بأنني نسيت ما قاله، وأن دافعي للصلاة دوماً كان بسبب الدود الذي يخرج من بطني زرافات بعد أن يأكل كل أحشائي، أو بسبب مشاهدتي لدماغي وهو ملتصق بالإسفلت. بقيت لدقائق في مكاني حينما بدأ الناس في الخروج من المسجد. لم أخرج سريعاً؛ فقد كان ثمة ازدحام عند الباب، فانتظرت حتى خف ذلك الازدحام، وقمت، كنت أشعر برضا عظيم عن نفسي مثل رضاك عن نفسك حينما تحقق انتصاراً ما في حياتك، إنه مثل شعوري حينما أنظر إلى سحر، وأعرف بأن الناس ينظرون إليها بلهفة، وأنا الوحيد الذي أنال منها ما يتمنونه.

انتعلت حذائي، واتجهت إلى المنزل، وبعد عدة خطوات سمعت صوتاً خلفي يناديني باسمي. التفت فإذ به جاري «أبو حسين» إمام المسجد. اقترب مني، وصافحني مبتسماً بتلك الابتسامة التي لا يحسن صنعها سوى الملتحين، وقال: «لقد اعتذرتَ كثيرا مني، لكنني لن أدعك تذهب اليوم حتى تتناول القهوة معي في المنزل». لقد أحرجني فعلاً، فلم يكن مني إلا أن

قبلتُ عرضه، واتجهنا سوياً إلى بيته، دلفنا إلى البيت ورائحة القهوة، والبخور تستقبلنا كموظفي الاستقبال في الفنادق الفخمة. أدخلني إلى مجلس الرجال، وهو لا يكف عن ترديد مقولة «الله يحييك، أعز من جاء»، ككل سعودي ليس لديه ما يقوله لضيفه، أو أنه لا يعرف ضيفه بالقدر الكافي، فهذه العبارة كانت تخرجنا من مأزق الصمت الذي شكّلته لنا معرفتنا القريبة ببعض. صب لي فنجانا من القهوة العربية التي كانت رائحتها تجوب في الأرجاء، وهو يبارك لي زواجي، ويرحب بي. وفجأة سألني:

ـ أين تعمل يا عبده؟ لأنني أرى سيارتك صباحاً واقفة أمام المنزل لا تتحرك.

ـ كنت أعمل في السلك العسكري، ولكنني تقاعدت.

ـ لا تزال صغيراً على التقاعد.

ـ لقد تقاعدت بموجب تقرير طبي؛ ألم تلحظ أنني أعرج؟

ـ بلى.

وأخذت أحدثه عن تفاصيل تقاعدي، وعن هذه الحالة التي كانت سبباً في أن أتزوج تلك الملاك التي تنتظرني الآن في الطابق السفلي، وحينما استمع إلى ثرثرتي الطويلة في هذه المسألة وتسويغاتي وكل مقولاتي التي اعتدتها حينما أتحدث عن وضعي الصحّي ابتسم ابتسامة صفراء، وسألني:

ـ ما شاء الله هل أنت متزوج من سورية؟

ـ نعم.

ـ لقد قابلت يوماً ما قريباً لك هنا. كان يكمل شيئا في منزلك لم ينته بعد. كان ذلك قبل أن تصل إلى السعودية، وأخبرني بذلك.

لم أرد عليه، ولم أستطع أن أكون فظاً معه، هو الذي استقبلني في منزله، لكنني أكره حينما يتحدث هؤلاء البيض معي، ويكون الرابط في حديثنا زوجتي. كنت أشعر بأنهم يريدون اتهامها اتهاماً. وفجأة اندلق لسانه، ولم يتوقف. أخذ يتحدث عن جواز نكاح الأبيض من السوداء، والأسود من

البيضاء وفق الشريعة الإسلامية، وكان يردد بين الفينة والأخرى أن أفضل الناس عند الله أتقاهم له. كان يكرر أشياء كثيرة أعرفها جيداً، ويعرفها كل الناس هنا. تلك الأشياء التي يثرثر بها الجميع هنا، لكنهم لا يطبقونها، فامتلأت من الخبث إزاء كذبه المنمّق هذا، فقلت له:

ـ ما دام الناس سواسية عند الله، وأن أفضلهم عند الله أتقاهم له، فلماذا لا يُزوّج البيض بناتهم للسود؟

ـ هذا عرفٌ اجتماعي ما أنزل الله به من سلطان.

ـ وهل ستزوّج ابنتك كونك رجلاً أبيض لشاب أسود لو تقدم وطلب يدها للزواج؟

سكت قليلاً، ثم ضحك بتلك الضحكة التي نريد من خلالها الخروج من مأزق ما، وقال:

ـ ليس لدي بنات، ولله الحمد.

لم أكمل معه هذا الحديث. قررت فجأة ألا اتخذه عدواً أو نداً؛ لأنه كان لطيفاً معي، وتكرّم عليّ بأن أدخلني بيته، وأكرمني أيضاً، بقيت عنده قرابة الساعة أو تزيد قليلاً عندها استأذنت منه شاكراً إياه، فألح عليّ في البقاء، لكنني لم أستجب لإلحاحه، ربما لأنني شعرت بأن الوقت الذي قضيته معه كان كافياً جداً.

نزلت إلى الطابق السفلي حيث تنتظرني ملاكي، وحين رأتني كانت أول كلمة قالتها لي:

ـ أين كنت؟

(اليوم السادس عشر)

لقد كانت هذه المرة من المرات القليلة التي أستيقظ فيها من النوم قبل سحر منذ أن تزوجنا، كانت دوماً أنشط مني، أو ربما كانت لا تطيق الفراش كثيرا، هي التي تعودت منذ أن كانت طفلة أن تستيقظ مبكراً. حين قمت، واتجهت إلى المغسلة، وغسلت وجهي عدت إلى سحر المرتمية فوق الفراش، وقلت لها: «سأذهب لشراء طعام الغداء». كان التعب يرسم تضاريسه على وجهها، فأخذت أبدل ملابسي، وانتظر منها رداً، لكنه لم يأت، فعندما انتهيت من تبديل ملابسي بدأت في تأمل سحر، وهي مستلقية على ظهرها في الفراش وغطاء السرير يغطي نصف جذعها السفلي، فاقتربت منها، وهمست لها:

ـ ماذا بك يا حبيبتي؟

لم ترفع رأسها، ولم تفتح عينيها أيضا، إنما ردت عليّ بصوت خافت بالكاد سمعته:

ـ إنني متعبة؛ أشعر بألم حاد في بطني وظهري.

كنت أعرف بأنها تعاني من أعراض الحيض، لذا لم أقترح عليها هذه المرة أن أذهب بها إلى المستشفى كما كنت أعرض عليها في كل مرة، لأنني على يقين بأنها سترفض؛ فمنذ يوم أمس وهاجس الوحدة والحرمان يفتك بداخلي، فلماذا لا نحرم من زوجاتنا إلا في الأوقات التي نشعر بأننا في حاجة ماسة إليهن؟ هل لهذا الأمر حكمة غير تلك التي يدلقها على مسامعنا الأطباء والوعاظ بأن دم الحيض بويضات لم يتم تلقيحها، فيجب التخلص منه ليتطهّر الرحم؟. كنت مهووساً بهذه الأسئلة منذ يوم أمس، أنا الذي لم أفكر سابقاً فيها كما يجب، لكننا حينما نتزوج امرأة جميلة تتفتح مداركنا على أشياء لم

نكن نتخيلها، فالمرأة الجميلة تشبه الشك؛ تزيد من عمق أسئلتنا وتمددها.

تناولت مفاتيح سيارتي من فوق التسريحة، وأخذت هاتفي المحمول، والتقطت محفظة نقودي، واتجهت إلى الشارع. كنت أشعر بجوع شديد، فلم أتناول عشائي ليلة البارحة كما يجب، لأن قاسم أتعبني حقاً في أسئلته حول زواجي من سحر، ومجادلته لي حول رغبته في الزواج من امرأة سوداء، فمنذ أن تناولت منه العشاء، وعدت إليه وهو لا يتحدث إلا عن الزواج، ويطرح الكثير من الأسئلة التي لم أجد لها إجابة مقنعة إلا أن أكف عن الأكل، بعد أن شعرت بألم في معدتي. جاء بعد أن استحم، وكانت تفوح منه رائحة الماء الدافئ، وحينما انتهينا من السؤال عن الأحوال قال لي:

ـ يبدو أن الزواج فكرة جيدة.

ـ نعم إنه كذلك.

ـ هل هنالك فرق بين أن تتزوج امرأة بيضاء، أو سوداء؟

ـ لا أدري فلم أتزوج امرأة سوداء، كل ما أعرفه أن الزواج من امرأة بيضاء أمر جميل جداً.

ـ لكنني أعتقد بأن النساء لا يختلفن عن بعضهن بعضاً.

ـ أنت لم تجرب النساء لتحكم بذلك.

ـ ما الفرق إذن إذا كن يمتلكن الصفات ذاتها؟.

ـ هناك فرق مهم: وهو لون البشرة والجمال.

ـ ليست كل بيضاء جميلة.

ـ ومن النادر أن تجد سوداء جميلة.

شعرت باحتقاره لي على الرغم من أنه حاول ألا يبدي ذلك، لكنني لمحت نظرة تتربع عينيه مثل تلك النظرة التي ننظر بها لمن نحسدهم أو نحتقرهم، فقال لي:

ـ إن أردتُ الزواج فلن أتزوج إلا من امرأة سوداء مثلي.

ـ البيضاوات أجمل بكثير.

ـ لكنهن لا يتورعن عن احتقارك إن كنت أسود.

ـ كلامك غير صحيح، فأنا لم أشعر بأن سحر تحتقرني يوماً ما.

ـ ربما تكون امرأة جيدة، لكن ليس كل النساء جيدات، وربما أنها تحتقرك لكنها لا تُظهِر ذلك.

ثم أضاف:

ـ يجب أن يتزوج الرجل من امرأة تلبس عباءته ذاتها.

ـ إن أردتَ الزواج سأتحدث مع سحر بهذا الخصوص، فلديها أخت جميلة.

ـ لكنني لا أملك المال مثلك.

ـ هن لا يبحثن عن المال.

أطلق ضحكة مدوية، وقال بعد ذلك:

ـ أريد أن أسألك سؤالاً واحداً: كم دفعت لهم منذ أن تزوجت سحر إلى الآن؟

ـ لا أذكر بالتحديد، لكنني قبل أن أسافر من دمشق أعطيتهم مبلغاً من المال. لم يكن كبيراً، وقبل كل شيء هم أهل زوجتي.

ـ سأسألك سؤالاً آخر وأتمنى ألا تغضب مني.

ثم سأل:

ـ هل تتوقع لو لم تكن تملك المال، فهل سيوافقون على زواجك من سحر؟

ـ أي رب أسرة حينما يتقدم شاب للزواج من ابنته فلن يقبل به إذا لم يكن يملك مالاً

ارتفع صوتي في الحديث، ويبدو أن قاسم قدّر انفعالي ذاك، فلم يكمل ما بدأه معي، فقد فعل خيراً في ذلك، وينبغي دوماً ألا نكمل الحديث مع الرجال الذين ترتفع أصواتهم. أحسست بجرح في معدتي مثل ذلك الإحساس الذي يصيبك حينما تكون مصاباً بقرحة في المعدة، أو التهاباً في المريء، بدأ

الألم في الازدياد، ولم يخف حتى نمت، لذلك لم أستطع تناول طعام العشاء كما ينبغي، ولو لم تكن سحر متعبة لكنت قد واجهتها بأسئلة قاسم هذه. فقد أرعبتني أسئلته فعلاً، وعدت لأتذكرها الآن والجوع يفترس ذاكرتي.

كنت أقف أمام المحاسب في المطعم دون أن أعرف ماذا أطلب بالضبط، عدت إلى وعيي حينما سألني المحاسب:

ـ تفضل. ماذا تطلب؟

ـ أريد غداء.

ـ ماذا تريد؟ لدينا أصناف شتى.

ـ ماذا لديكم؟

أخذ يثرثر بأشياء كثيرة لم أتبيّن نصفها، فطلبت دجاجة مشوية مع الأرز، وانزويت في طرف المطعم أنتظر أن ينتهي طلبي، وبينما أنا أنتظر دخل شاب أسود إلى المطعم أعرفه جيداً، إنه «إبراهيم حمود» زميلي الذي كان يلازمني أثناء عملي في العسكرية. حين رآني ابتسم، وصاح بصوت مرتفع نوعاً ما: «أهلا بالقاطع».

قابلته بترحاب وسرور بالغين، فهو الذي يمثّل جزءاً من ذاكرتي؛ إنني معه ومع مجموعة من زملاء عملي السود كنا نشكّل لوبيّاً في العمل، لكنني منذ أن تقاعدت من السلك العسكري لم يعد يربطني بهم شيء. كنا مجموعة من الشباب نقف بجانب بعضنا بعضاً في العمل، لكي لا نشعر بالخيبة وتكرار اللعنات.. لقد علّمنا العمل كيف يمكننا أن نتّحد، كنت أجد نفسي معهم لكن الحياة تعرف كيف تبعثرنا لنعيش فرادى. أخذنا نتحدث عن الذكريات بشيء من الحنين، فدوماً ما نشعر بحنين جارف إلى ذكرياتنا حتى لو لم تكن جيدة.. سألته عن الزملاء، وعن العمل، وعن كل شيء. كنت بحاجة ماسة لأن أعيد ترتيب نفسي من جديد، أنا الرجل الذي تزوجت امرأة جميلة عرفتْ كيف تفلقني باحتراف. أخبرته بأنني تزوجت حديثاً، لكنني لم أخبره بأنني تزوجت امرأة بيضاء، كنت أخشى أن يغضب مني، أو ينظر إليّ بازدراء، نحن الذين

كنا نحتقر هؤلاء البيض في كل مكان، ابتداء من عملنا في السلك العسكري، وانتهاء بكل أبيض نجده يبتسم في أحد الأزقة المعتمة. كنت أحس بأنني لو أخبرته بذلك سأبذر الخذلان في داخله كفلّاح مسن، وكم هو مؤلم أن تخذل إنساناً تربطك به ذكريات جميلة.

أخبرني بأنهم يلتقون دوماً، ولم ينفصل عنهم أحد سواي، وأنهم قاموا باستئجار استراحة يذهبون إليها كل مساء، وأخذ يسترجع معي كل الذكريات والهموم، وبدأ يشتم السلك العسكري كما هي عادته، وأنت هنا لا يمكن أن تستغرب لماذا العسكريون لا يتوانون في شتم السلك العسكري. إنه نتاج حتمي للمرارات والخيبات، وكل الأمور الرديئة الأخرى. كان يتحدث عن الزملاء بحب، أخذ كل واحدٍ منهم على حدة، يتحدث عن هذا وذاك، ويطلق عليهم نكاته المضحكة والسخيفة.. كنت أشعر بأنه يريد أن يطمئنني بأنه لم يتغير على الرغم من كل تلك المدة من غيابي عنه، وفعلاً هو لم يتغير. كان ولا يزال «إبراهيم حمود» ببذاءته وسخفه، وطيبة قلبه، وسلاطة لسانه، كان يتحدث بحميمية ذلك الرجل الذي لم تفارقه لمدة ربع قرن. كنت أستمع إليه، وأنا أعرف بأن طلبي قد جهز، لكنني أحببت أن استمع إليه أكثر، كان يثرثر بحماسة، وأنا استمع إليه بحماسة أيضاً، لكن المحاسب أخرجني من حماستي تلك حينما قال: «لو سمحت يا أخ طلبك جاهز». اتجهت إليه، وأنا ممسك بيد «إبراهيم حمود»، وأحاول أن أكون لطيفاً معه، فقلت له بأنني سعيد جداً برؤيته، وأخبرته أن يبلّغ تحياتي لكل الزملاء، لكنه عاب عليّ ذلك وأخذ يصف لي طريق استراحتهم، وأخبرني أنه من الواجب أن أقوم بزيارتهم، ثم قال:

ـ أعطني رقم هاتفك المحمول، لا بد أن نجتمع، ونتناول طعام العشاء معاً، سأنسّق مع الشباب في ذلك، وسأتصل بك.

ـ أتشرف بكم، وأنا أنتظر اتصالاً منك.

ودعته وأنا غير راغب في ذلك بعدما أمليت عليه رقم هاتفي المحمول.

لقد جاء إبراهيم حمود في الوقت الذي كنت أحتاجه فيه، جاء في وقت فُصّل عليه تماماً، كنت أحتاج أن أخرج من متاهة فيضان سحر، فلم أعد أطيق البقاء في المنزل وهي تسيل كأسفنجة؛ لأنني لا أريد أن أقف أمام زوجتي الجميلة هذه وأنا عاجز عن ممارسة حقي الكوني معها. حملت غدائي مع حنيني لذكرياتي وخرجت، وفي ذهني إلحاح فظيع بأن ألتقيهم، فأن تسير الذكريات أمامك في أجمل صورة وأنت لا تطيق واقعك الذي تعيشه فحتماً ستنهار، وأنا أدرك بأن «إبراهيم حمود» لو جاء قبل يومين أو ثلاثة، فلن يكون تأثيره على نفسي مثلما هو الآن.

أشعر بأن القدر تحالف معي ضد سحر. ليس ضدها بالتحديد إنما ضد ذلك الخيط الأحمر الذي يسيل دون توقف، فالله حينما ينقذك من مأزق كوني هو من يضعك فيه، فهو يتحالف معك من حيث لا تدري. كانت المسافة من المطعم إلى البيت أقصر مما يمكن تخيله، لكنني حينما ولجت لذكرياتي التي أطلقها حضور إبراهيم حمود شعرت بأن تلك المسافة بحجم عقد من الزمن، أو تزيد قليلاً جداً، فدوماً الغوص في الذكريات يقطع بنا آلاف الدقائق والساعات. إن الذكريات تتجاوز الزمن دوماً.

لم استغرب أن أجد سحر وهي لا تزال مستلقية في فراشها، فدلفت إلى المطبخ وانهمكت في تحضير الغداء. أعترف بأنني لم أكن أرغب في أن تأتي سحر، وتتناول الغداء معي لأنها ستشعرني بعجزي، وأعترف بأن تناول وجبة غداء مع امرأة جميلة لا تستطيع معها إلا أن تثرثر فقط أمر في غاية البؤس. تناولت غدائي بهدوء، تناولته وكأنني أخرج من كابوس مرعب. كنت أتناول لقمة، وأشاهد التلفاز لمدة تتجاوز ألف لقمة، كان الغداء بلا طعم أو رائحة؛ فأنت لا يمكنك تخيّل أن تتناول الغداء بمفردك بعدما تعودت أن تتناوله مع امرأة فاتنة. عندما انتهيت من تناول الغداء تركته كما هو على السفرة، وذهبت لأغسل يدي، عدت، فتناولت سيجارة، وأخذت أدخن وأنا أشاهد التلفاز. لم أكن بحاجة للبحث عن منفضة سجائري الزجاجية التي كانت تجلبها لي

سحر دوماً، فبدأت أنفض سيجارتي على السفرة أمامي، فعدت إلى ذكرياتي من جديد.

كنت أتذكر بعض الزملاء السود في العمل، وهم يساومون البيض على مناوباتهم العسكرية بمبالغ ضخمة، ففي أيام الأعياد كان البيض لا يطيقون أن يُكَلَّفوا بواجبات عسكرية كالاستلامات والبقاء في المخافر، فكانوا يأتون إلينا ويطلبون منّا أن نستلم المناوبة بدلاً عنهم، فلا يكون منا إلا أن نطلب منهم مبالغ ضخمة لأداء ذلك العمل؛ ففي يوم العيد مثلاً تكون المناوبة التي قدرها أربع ساعات بمبلغ يتجاوز ألفاً وخمسمائة ريال، وكل يوم له سعر مختلف، وأتذكر كيف خرج إبراهيم حمود في يوم العيد وحده بمبلغ يزيد عن خمسة آلاف ريال وهو مبلغ يضاهي مرتب شهر بأكمله لعسكري مثله، وأخذت أضحك.

في تلك الأثناء خرجت سحر من غرفة النوم، ورأتني وأنا أضحك، كانت شاحبة كلِحاء شجرة، فسألتني متعجبة، أو ربما متخوّفة من ضحكي أن أكون قد ضحكت على هيئتها، فقالت:

ـ لماذا تضحك لوحدك كالمجنون؟

ـ قبل قليل التقيت بصديق لي منذ زمن بعيد لم ألتقِه، وذكّرني بأشياء كثيرة هي التي تُضحكني الآن.

تركتني وذهبت، وأنا أشك بأنها صدّقتني.

(اليوم الخامس عشر)

وهي تضع الغداء أمامي على السفرة قالت سحر:

ـ اتصلت بي حسينة وأنت نائم، وطلبت مني أن أقول لك بأن تتصل بها.

ـ حسناً أعطيني هاتفي المحمول من غرفة النوم.

ذهبت، وجاءت به، وحينما فتحته وجدتُ ثلاث مكالمات فائتة من أختي حسينة، عاودت الاتصال بها، وأنا أتناول لقمة بيدي من الغداء الذي أمامي، ردّت عليّ حسينة فقلت، ولقمة في فمي:

ـ أهلاً حسينة.

ـ أهلاً بك.

ـ اتصلت بي. ماذا كنت تريدين؟

ـ أبداً لكن أمي تريدك.

وبعد ثوانٍ وصلني صوت أمي من بعيد، لقد كانت تتحدث عبر مكبر الصوت في الهاتف المحمول كما هي العادة، قالت:

ـ كيفك يا ولدي؟

ـ بخير يا أمي، كيفكم أنتم؟

ـ الحمد لله بخير.

ثم انخرطت في كلام ساخر مليء بالعتاب عن غيابنا عنهم، فهذا هو اليوم الخامس لي منذ أن وصلت إلى السعودية، وأنا لم أرها. تحدثت عن اشتياقها لي، ولزوجتي، وعن الملل الذي يعتريها في المنزل لوحدها، فهي منذ أن توفي أبي وهي تشعر بالملل الذي لا يبدده إلا تحلّقنا حولها. وأضافت:

ـ كل يوم أذهب إلى أم شوعي، لكنها تضجرني، وتُشْعرني بالملل.

وبعد لحظة سألتني:

ـ هل لديكم أي مشوار الليلة؟

ـ لا يا أمي.

ـ كنت أنوي زيارتكم أنا وحسينة.

ـ أهلاً وسهلاً بكم، هل آتيكم لأصطحبكم؟

ـ لا تتعب نفسك، سأطلب من قاسم أن يوصلنا.

ثم تذكرتُ صالحة، فقلت لها:

ـ حسناً نحن في انتظاركم، تعالوا مبكراً قبل صلاة المغرب، وتعالي بصالحة وأطفالها معك أيضاً.

بعد عدة أحاديث أغلقت الخط، ونظرتُ إلى سحر، وأنا مدرك بأنها عرفت بأن أهلي سيزورونا الليلة، لكنني شعرت بلمحة أسى على محياها، فسألتها بعد أن أكدتُ لها بأن أمي وحسينة، وربما صالحة سيزورونا الليلة:

ـ أشعر بأنك حزينة! ماذا هناك؟

ـ لست حزينة، لكنني أشعر بألم في أسفل بطني وظهري.

ـ هل أذهب بك إلى المستشفى؟

ـ لا لا، إنه ألم الدورة الشهرية، وهو ألم اعتدت عليه منذ زمن.

شعرت بانقباض خفيف في معدتي، لأنها صرّحت لي بأنني سأفتقدها لمدة أيام، فلم يكن مني إلا أن سألتها متخوّفاً:

ـ وكم تستمر أيام دورتك الشهرية في العادة؟

ـ ليس لها وقت محدد، لكن في المجمل مدتها خمسة أيام، وربما يؤثر الزواج عليها فتطول، أو تقصر.

يا الله ما أحوجني لصبر مضاعف حتى أستطيع اختبار نفسي أمام هذه المرأة الفاتنة، فأبتعد عنها لخمسة أيام، أو ربما أكثر، لم أحب أن أناقشها في هذا الأمر لكي لا تشعر بمدى ألمي من هذا الخبر، فقلت محاولاً تجاهل

الموضوع: «سنطلب عشاء من المطعم الليلة إذن، ومن المؤكد أن أمي وصالحة ستأتيان ومعهما قهوة وشاي. لا تهتمي».

نسيت الطعام الذي أمامي منذ أن صعقتني سحر بهذا الأمر، لكنني عدت لتناوله دون رغبة في ذلك، فأقسى ما يمكن أن تقدمه لمتزوج جديد أن تخبره بأن زوجته حائض، وخصوصاً إذا ما كانت تشبه الدمى مثل سحر. أصبح حضور سحر ثقيلاً جداً، لم يعد حضورها محتملاً، لأنك لا يمكن أن تتقبل وجود امرأة جميلة وهي على مقربة من فيضانها. فدم الحيض شيء مقرف وغريب، فهو الدم الوحيد الذي يخرج من جسد إنسان دون جرح، فأنا منذ عرفت نفسي لم أتصالح أبداً مع هذا الأمر، فكيف تستطيع المرأة أن تتآلف مع دم يخرج من بين أرجلها في كل شهر مرة. إنك لا تستطيع إلا أن تحتقر المرأة أيام دورتها الشهرية.

عدت إلى نفسي فلم أجد السفرة أمامي. والشاي على مقربة مني وبخاره قد أوجد بعض القطرات على حوافّ الكوب، فأخذت أشرب منه، وأدخن. كنت أنتظر أن تأتي أمي وحسينة في أسرع وقت ممكن، كنت لا أريد احتقار سحر أكثر، إنها امرأة كاملة بكل تأكيد، حتى أنني أشعر أحياناً بأن دمها الخارج من بين فخذيها وردي اللون، فثمة بعض النساء نتصالح مع قذارتهن من فرط جمالهن. ما كل هذا التناقض؟ لا أعلم، لكنني وقعت في مأزق حرج بين قناعاتي التي ورثتها من التاريخ حول هذا الدم، وبين هذه الدمية الجميلة التي حتى وهي تسيل تشعر بأنها تغرّد.

جاء العصر، وأنا على حالتي هذه في تنافس شديد مع أسئلتي وقناعاتي، وحينما طلبت من سحر أن تناولني جهاز التحكم بالتلفاز لأختار لي قناة أشاهدها، وأخرج من هذا الجو الأحمر المتعفّن قالت لي وهي تناولني الجهاز:

ـ أتمنى أن تذهب الآن، وتبتاع لي فوطاً نسائية، فربما تنشغل الليلة بأهلك، ولا تستطيع الذهاب.

ثم أضافت في حرج واضح:

ـ ربما تداهمني المحروسة في أي لحظة.

لماذا كل هذه القسوة على قناعاتي وذائقتي؟ حاولت أن أكون أكثر عاديّة، وألا يظهر علي الاستياء إزاء هذا الأمر، فذهبت إلى حجرة النوم سريعاً، و رتديت ملابس لائقة، واتجهت إلى الصيدلية المجاورة دون أن أناقشها في ي أمر، وعندما اقتربت من الصيدلية تذكرت بأنني لا أعرف النوع الذي تستخدمه سحر من جملة الأنواع التي تمتلئ بها الصيدليات لسد حاجة المرأة لدورية هذه، فاتصلت بها، وأعطتني اسم النوع الذي تستخدمه، وزيادة في التوضيح أخبرتني عن لون العبوة أيضاً. أمر مخجل حقاً عندما يراك أحدهم، وأنت تقلّب حاجيات النساء في صيدلية ما، وهذا ما كنت أشعر به وأنا أحوم بين كل تلك الحاجيات النسوية في الصيدلية من فوط، وصبغات شعر، حتى قبضت على ما أريده. اتجهت سريعاً إلى المحاسب. قبض مني ثمن ما ابتعته، فانسللت سريعاً من أمامه كسارق.

أثناء عودتي إلى المنزل تذكرت صالحة، فاتصلت بها، فردت عليّ سريعاً:

ـ أهلاً بالعريس.

ـ لست عريساً يا أم حسن، فقد انتهى العرس.

ـ ستبقى عريساً إلى أن يرزقك الله بأطفال.

تحدثنا مطولاً عن الأطفال. أخذت تسرد لي حكايات أطفالها ومشاغباتهم، كانت حكايات لطيفة جداً، وكنت أشعر بانقباض في قلبي حينما تتحدث صالحة عن أطفالها؛ لأنها تصالحت مع حياتها التي كنت أنا سبباً في أن تعيشها بهذا الشكل، فهل نسيَتْ ما فعلته بها؟ أم أنها تحاول أن تغطي مرارتها وخيبتها بالاهتمام بأطفالها؟. بعدما انتهت من سرد تلك الحكايات قلت لها:

ـ أمي وحسينة ستأتيان الليلة لزيارتنا، تعالي معهما.

ـ أخبرتني أمي بذلك، لكن يجب أن أنتظر حسيناً حتى يستيقظ من نومه لأستأذنه.

ـ إن أردتِ أن أتصل به ليأذن لك فليس لدي مانع.

ـ لا أبداً، فأنا أعرف كيف أجبره على الموافقة؟

عدت إلى المنزل. ناولت سحر ما أرادته، وكأنني أناولها جزءاً من روحي، وأخذت أشاهد التلفاز، كنت أتابع وفي داخلي كمية هائلة من الأسئلة إزاء هذا الفيضان: فلماذا لا يمر الرجال بمثل ما تمر به النساء؟ ولماذا نحن الرجال على الرغم من القرف الفظيع التي تمر به المرأة شهرياً لا ينعدم هوسنا بها؟. فنحن نقرف منها في هذه الأيام، لكننا لا نفتأ أن نعود إلى اشتهائها، إلى حبها، إلى التقرب منها بعد انتهاء هذا الفيضان المقرف. كان هذا الأمر بالنسبة لي شيئاً محيّراً فعلاً، فهل الإنسان يتصالح مع الأشياء المقرفة إلى هذا الحد؟ أم أن طبيعة الإنسان المبنية على النسيان تجبره على التعاطي مع هذا الموضوع على أنه جزء مهم من حياتنا؟. كنت مشغولاً بهذه الخصلة النسوية؛ فلا أذكر بأن شيئاً شغلني في هذه الأيام مثلما شغلني هذا الفيضان، لكن امرأة جميلة مثل سحر لا ينبغي أن تمر بما تمر به كل النساء، إنها امرأة محرّمة على الدم؛ فمن الظلم جداً أن تشترك الجميلات والدميمات في الخصلة ذاتها. وبينما أنا أعيد، وأزيد في أسئلتي سمعت طرقاً على الباب. ذهبتُ، وفتحته فكانت أمي تتقدم صالحة وحسينة، وأطفال صالحة عند أرجلهن، وصوت مؤذن الحي يؤذن لصلاة المغرب.

شعرت بسعادة غامرة، ودعوتهم للدخول، قبّلت رأس أمي، وقبّلت صالحة على خديها، وكذلك فعلت مع حسينة، وحملت حسناً بيدي اليمنى ورفعته، وتناولت آمنة بيدي اليسرى ورفعتها أيضاً، واتجهت بهما إلى الداخل. كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها أمي إلى منزلي هذا، كانت تسير وهي تقول «ما شاء الله». استقبلتنا سحر في الصالة بابتسامة خلابة مثل تلك الابتسامات التي ترسمها النجمات على شفاههن أمام الكاميرات في

الاحتفالات السينمائية. سلمتْ عليهن بحميمية، ورحبت بهن، وحينما رأيتُ سحر عاد إلى ذهني أمر القهوة والشاي، فتفاجأت بأنهن لم يأتين بها معهن، فقلتُ لهن معتذراً بعد أن جلسن جميعاً:

ـ أعتذر منكن، كنت أتوقع بأن تجلبن معكن شاياً وقهوة؛ فسحر متعبة اليوم.

ردت أمي باهتمام المسنّات:

ـ سلامتك يا ابنتي، ماذا بك؟

فردت سحر بابتسامة تشبه ابتسامة مراهقة خُطبت للتو:

ـ ليس هنالك شيء يا خالة، فقط أعراض الدورة، لكن عبده يحمّل الأمور أكثر مما تحتمل.

فانبرت صالحة قائلة، وهي تقوم:

ـ أين المطبخ؟ أنا من سيصنع لكم القهوة والشاي، تعالي، ودليني على الأغراض يا سحر.

قامت سحر مع صالحة، وحسينة تحدّق في هاتفها المحمول بين يديها باهتمام واضح، فقلت لها:

ـ كيفك يا عروسة؟

التفتت حسينة نحوي، وقالت بخجل بعد أن عرفت بأنني أقصدها:

ـ بخير يا عبده؟ كيفك أنت؟

ـ متى ستتركين عنك مطاردتك لهذا الهاتف؟

لم ترد، ولم أعلّق أكثر، فنظرت إلى أمي، وقلت لها:

ـ نوّر المنزل بحضورك يا ست الكل.

ـ الله يحفظكم.

ـ من أوصلكم إلى هنا؟

ـ قاسم.

ـ ولماذا لم يدخل؟

ـ كان عائداً للتو من الملعب، يقول بأنه سيذهب ليستحم، ثم سيعود.

تذكرت بأن أمي لم تعاين منزلي الجديد هذا، فطلبت منها أن تقوم لأريها إياه، قامت معي، وقامت معنا حسينة، وأخذت أريهما البيت، وأمي لا تتوانى عن ترديد جملة «ما شاء الله» بين كل لحظة وأخرى. مررت أولاً بغرفة النوم التي أدهشت حسينة، حتى أنها ارتمت على سرير نومنا لا شعورياً، فنهرتها أمي بغضب، فقامت خجلى من فوق السرير تجر معها أذيال الخيبة، ولم أعلّق بدوري على ذلك، ثم عرّجت بهما على بقية الحجرات، وهي لا تتردد في تكرير جملتها المعتادة، ثم عدنا إلى المطبخ الذي كانت فيه سحر وصالحة تثرثران، فبقيت أمي تتأمله، وتتفقده بخبرتها، ثم تركناهما في المطبخ وعدنا إلى مكان جلوسنا في الصالة. بقينا ننتظر القهوة والشاي حتى تجهز، فأخذت أثرثر مع أمي عن أهل حارتنا، وبدأت تسرد لي لقاءاتها مع مسنات الحارة، وحسينة تحدق في هاتفها المحمول. ذكرت لي الكثير من الحكايات، ثم عادت وسألتني عن أحوالي مع سحر، وهي تكثر من النصائح حول الاهتمام بها، فهي فتاة غريبة، في بلد غريب عنها، فليس لها فيه سواي كما كانت تكرر دوماً.

في تلك الأثناء دخلت علينا صالحة، وهي تحمل طبقاً في يدها موضوع فيه (ثلاجة) قهوة وطبق صغير آخر فيه بعض التمرات. وضعته أمامنا، وجاءت سحر بطبق آخر فيه (ثلاجة) شاي تحرسها عدد من الكاسات متوسطة الحجم، فوضعته بجانب صالحة، وجلست بجانبي، وبدأت صالحة تصب لنا القهوة وهي تقول وعيناها على سحر:

ـ ها هو زوجك الذي لا يجعلك تزوروننا.

فرددتُ عليها ضاحكاً:

بالعكس، لكن صدقاً لم يكن لدينا وقت.

ـ نصف ساعة لن تؤخركم.

ـ ولماذا لا تزوروننا أنتِ؟

ـ لا أحد يزور العرسان. أنتم في عالم لا يجب أن ننغص عليكم.

ـ أبداً لدينا متسع من الوقت، حتى أن «يحيى أبا جركن» زارني البارحة، وتناول معي طعام العشاء.

وفجأة ساد الصالة هدوء غريب وموحش، وأخذ الجميع يحدّقون في الأرض كأبناء للتو فقدوا أباهم، ولكي تقطع صالحة هذه الوحشة التي بدأت في التمدد سألت بدهشة:

ـ أين الأولاد؟

فردت عليها سحر:

ـ ربما في الغرفة المجاورة.

ـ تعالي يا سحر لتريني بيتك، فأنا لم أره.

قامت سحر مع صالحة لتريها منزلنا هذا، والنساء يعجبهن تفقد بيوت المتزوجين حديثاً. شعرت بشيء ما يتكسر في داخلي، شيء له من العمر أكثر من عشر سنوات، فوحدها الخيبات التي لا تعترف بالزمن. عدت إلى الحديث مع أمي، وأخذنا ننبش أشياء كثيرة من ذاكرتنا، كنت أرى ملامح الخيبة في عيونها هي الأخرى بعد أن ذهبت صالحة؛ فالنساء ينحزن لبعضهن بعضاً دوماً. لم كن أعرف ما أفعله. كانت المرارة تمتطيني، وثقلها على روحي لا يحتمل. كان في داخلي إحساس بأنني حقير؛ فلم يكن ينبغي أن أقول ما قلته، كان من المفترض أن أحفظ لساني على أقل تقدير، لكن ما لم يكن يعرفنه أنني لم أقصد شيئاً، كنت فقط أود أن أقنعها بزيارتي، ويبدو أننا مهما حاولنا أن نجمّل نيّاتنا فلن يجدي نفعاً، لأن النيّة الجيدة لا يمكن أن تصنع عملاً مقنعاً. تناولت هاتفي المحمول، وطلبت رقم قاسم، فوصلني صوته خشناً وجافاً كصوت أي شاب أسود، فقلت له: «وأنت قادم إلينا، اشتر لنا عشاء على ذوقك من المطعم، وتعال لنتناول العشاء سوياً».

(اليوم الرابع عشر)

الرجال لا ينهارون إلا إذا كانوا يملكون ذاكرة ممتلئة بالخيبات.

حينما جئت من صلاة العصر جلست في الصالة أشاهد التلفاز، وكانت سحر لا تزال في المطبخ لم تخرج منه منذ أن انتهينا من تناول الغداء، ناديت عليها، فجاءتني وهي تربط رأسها بشال حرير من شالاتها متعددة الألوان تلك، وشكلها يوحي بأنها ربة بيت ممتازة، حين وصلتني كنت أحدّق فيها مبتسماً، فقالت باستغراب:

ـ ماذا هناك؟

ـ أبداً، لكن شكلك وأنت تربطين رأسك بهذا الشال فاتن وجميل.

ـ شكراً، هل ناديتني لأجل هذا؟

ـ لا، أريد كوباً من العصير.

ذهبت إلى المطبخ، وعادت مرة أخرى، وهي تحمل كوب العصير في يدها. تناولته منها، وبدأت أشرب، فدهمتني الأسئلة فجأة: لماذا رفضت «ناجية سعيد» الحضور؟ وهل وجود سحر في البيت يسبب لها أزمة أخلاقية؟ وهل هي في قرارة نفسها تكره سحر؟. لا أعتقد فهي دوماً ما تدعو لنا بالتوفيق والسعادة، لكن الدعاء وحده لا يكفي لأن يكون مسوغاً لعدم كرهها لسحر. لا أدري، لكنني أعرفها جيداً فهي امرأة تحب تربية ضميرها أكثر مما ينبغي، فضمير ناجية يشبه المارد إذا استيقظ دون رغبة منه. أعتقد بأن زواجي من سحر نقش في نفسها الحسرة، هي التي قضت سنوات عمرها مع رجل تقاسم معها كل شيء، ليذهب ويتزوج بغيرها، ويتركها على قارعة الرذيلة. لا يمكنني أن أجزم بذلك، لكن السؤال الذي أحتاج إلى إجابة عنه فعلاً: لماذا رفضتْ

الحضور؟ فأنا أعرف بأن «يحيى أبو جركن» لا يستطيع أن يجبرها على الحضور إطلاقاً. لقد آلمني رفضها كثيراً، فقد شعرت بشوكة تُلقَى في حلقي. شعرت بالمهانة؛ أنا الذي أرى أن زواجاً كزواجي يرفع من قدر المرء ولا ينقصه. إنه شعور سيء بالتأكيد ألّا تحضر عشيقتك إلى بيتك حينما تدعوها إلى العشاء بعد أن تكون قد تزوجتَ، شعور موحش يجعلني أتأكد من أنّ كل ما حدث بيني وبينها كان مجرد نزوة فرضها القدر، والحظ، والشهوة.

على الرغم من كل هذا، لا يمكنني أن أنكر بأن «ناجية سعيد» هي التي كانت تقطع ليالي وحشتي، وتهديني الفرحة مغلّفة ومربوطة بشرائط ملوّنة، كنت أعتقد بأنها ستفرح كثيراً بزيارة بيتي الجديد هذا، لكننا لا نتنبأ عادة بما تفكر به النساء. كان الندم يتأبطني على دعوتها، فلو احتفظت بما حدث بيننا في قلبي لكان أفضل، فنحن نشوّه حبنا إذا حاولنا أن نجعله يتعايش مع الواقع بصورة حقيقية. أنهيت العصير الذي كان بين يدي، وصوتٌ يأتيني من المطبخ يخبرني بأن سحر تعمل بجد. قمت، وذهبت إليها، فوجدتها منهمكة في عملها، وكم يلزمنا من الوقت لنجد امرأة لا تعمل بإخلاص وإتقان. سألتها:

ـ ماذا ستطبخين لنا الليلة؟

ـ كبة، ومحاشي، وورق عنب، لأنني لا أجيد طبخ الكبسة إلى هذه اللحظة، ويمكنك أن تطلبها من المطعم.

ـ حاضر.

لم أعتد أن أرفض طلباً لسحر، ولأنها أيضاً لا تجيد طبخ الكبسة كما نشتهي نحن السعوديين فإن إحضارها من المطعم فكرة سليمة، حتى لو اعترض «يحيى أبو جركن» على ذلك، فهو الذي يطمح لأن يتذوق طبخ زوجتي الجميلة هذه. شعرت بضجر من ثوبي الذي كنت أرتديه، هذا الثوب الذي لم أبدله منذ أن عدت من المسجد. كان الجو خانقاً في الخارج، لكننا عادة لا يمكننا أن نذهب إلى المسجد إلا بثياب تليق بهذا المكان وقدسيته،

فلدينا عرفٌ بأن من احترام المسجد ألا تدخله إلا وأنت تلبس ثوبك، لتقف أمام الله بصورة محترمة؛ لذلك توجهت إلى غرفة النوم، وبدلت ملابسي. ارتديت ملابس خفيفة أكثر، ملابس يغلب عليها اللون الأبيض.

خرجت من الغرفة بعد أن أخذت هاتفي المحمول، ومحفظة نقودي، وسجائري، ومفتاح سيارتي، وركبت السيارة، واتجهت إلى مطعم «مشويات لبنان» الذي لم يكن بعيداً عن منزلي، قطعت المسافة من حي المروج إلى حي الورود غرباً، وأنا استمع إلى أغنية محمد عبده «على البال»، وجهاز التكييف في السيارة يلفح وجهي؛ فأشعر بنشوة لذيذة مثل تلك النشوة التي تشعر بها حينما تضع عطراً على ملابسك، ويبدأ في التسرب إلى أنفك ببرود. لم تكن المسافة الفاصلة بين حي المروج والورود بعيدة أصلاً، وتبوك أساس لم تكن مدينة مترامية الأطراف. إنها مدينة مفصلة على حجم رغباتك تماماً. وصلت إلى المطعم وقابلت محاسباً مصرياً أصلع تعامل معي بترحاب مبالغ فيه، فسألته:

ـ هل لديكم خدمة توصيل إلى المنازل؟

ـ نعم.

ـ أريد عشاء، وأتمنى أن يصلني إلى البيت الساعة العاشرة والنصف مساء.

ـ تأمر حضرتك.

طلبت العشاء، وبدأ يسجل ما أطلبه في ورقة أمامه، وحينما انتهيت قمت برسم وصف بيتي له على ورقة أعطاني إياها، وكتبت تحت الرسمة رقم هاتفي، وعدت إلى المنزل. وأثناء عودتي أرسلت رسالة قصيرة إلى «يحيى أبو جركن» كتبت فيها **«لا تنس موعدنا الليلة على العشاء في المنزل يا أسود»**.

عدت فوجدت سحر لا تزال منهمكة في شغلها، فسألتني:

ـ أين ذهبت؟

ـ إلى المطعم، لقد طلبت عشاء.

ـ ماذا طلبت؟

ـ أرزاً ودجاجاً، ومشروبات غازية.

ما استغربته حقا أن سحر لم تسألني عن زوجة «يحيى أبو جركن»، وهل ستحضر معه أم لا؟. فهل كانت تتعمد تجاهلها؟ أم أنها لا تهتم حقاً بذلك؟ لكنني أراها مهتمة جداً بهذا العشاء، فمنذ ما يقارب الثلاث ساعات وهي تحفر في المطبخ كعمال المناجم، فهل تريد أن أظهر أمام أصدقائي بصورة الرجل السعيد في زواجه؟ أم أن العمل في المطبخ أمر يستهويها كثيراً؟. كل هذه الأسئلة ومثلها أكثر كانت تجوب في رأسي، لأتركها، واتجه إلى الصالة لأشاهد التلفاز، وألوك سجائري.

مر أذان المغرب دون أن أتنبه له، وأقيمت الصلاة وصلى الجميع، وأنا غاطس في مشاهدة التلفاز. شعرت بإرهاق مفاجئ أو رخاوة ـ لست متأكداً من ذلك ـ ولم أستطع بسببها أن أقوم لأصلي. فدوماً ما كنت أشعر بأن التدخين ومشاهدة التلفاز تشبه إلى حد كبير أن تخز نفسك بمخدر لا تستطيع معه التحرك. وحينما انتهت صلاة المغرب جاءتني سحر بكوب من الشاي وقطعة من بسكويت، وهي تسألني:

ـ هل تريد شاياً وبسكويتاً؟

ـ ولمن جئت بها؟

لك.

ـ ولماذا تسألين إذن؟

ـ ربما تكون لا تريد ذلك.

ـ أي شيء من يدك أريده، حتى لو قدّمت لي الموت في طبق غير فاخر.

لم تبتسم لي كما هي عادتها إنما ناولتني الطبق، وعادت إلى المطبخ، وكأنها أخطأت في حق نفسها، فهربت إلى المطبخ سريعاً لتكفّر عن خطيئتها.

قبيل صلاة العشاء وصلني اتصال من «يحيى أبو جركن» يسألني إن كنت في المنزل أو خارجه، فأجبته بأنني في المنزل انتظره، فقال لي: «افتح الباب أنا أمام باب منزلك». قمت وفتحت الباب لأجده كما كان من قبل لم يتغير، والأصدقاء الحقيقيون لا يتغيرون أبداً. كان أنيقاً بشكل لم أعهده من قبل، أو ربما أنا من تغيّرت بعد زواجي هذا، فصرت أنظر إلى الأشخاص بطريقة مغايرة عما كانت عليه في السابق.

صحيح أن زواجي من سحر غيّر الكثير من قناعاتي تجاه الحياة والناس، إلا أنني لم أكن أتخيّل بأنني سأشاهد «يحيى أبو جركن» أنيقاً بهذا الشكل. احتضنته مثل كل الأصدقاء الذين يحبون بعضهم بعضاً، وأطلنا الوقوف عند مدخل الباب نثرثر عن الأحوال، وعن الصحة، وعن الغياب، كنت شغوفاً بمعرفة ماذا فعل أثناء غيابي، وكنت على ثقة مطلقة بأنه شغوف أيضا بمعرفة تفاصيل حياتي الجديدة. كنا نتحدث، ونضحك، وفي تلك اللحظة بدأت أتذكر تفاصيل كنيته المضحكة هذه، فأنا من كنّاه بأبي جركن حينما كنا نذهب عصراً إلى الهضبة الكبيرة التي كانت تقبع بجانب حي المنتزه من الناحية الشرقية، تلك التي كانت تحمل حكايات كثيرة لا نعلم صدقها من كذبها، كنا نسمع الحكايات ونرددها فقط، فمنهم من قال بأن هذه الهضبة كانت ثكنة عسكرية، ومنهم من قال أيضاً بأن أهل حي المنتزه بنوا بيوتهم خلفها ليستتروا عن الحكومة، فأغلب المنازل التي بناها أصحابها في ذلك الحي البائس لم تكن مملوكة بصكوك شرعية، فكانوا يستترون بهذه الهضبة لكي لا يراهم أحد. كنا ونحن صغار نخرج كل عصرية إلى هذه الهضبة، فنصعد إلى أعلى نقطة فوقها، فيمتطي يحيى «جركنه» الأخضر، وينزلق من أعلى الهضبة إلى أسفلها، ونحن نشاهده مدهوشين من فعله هذا. كان يحيى هو الوحيد الذي يستطيع أن ينزلق من الأعلى إلى الأسفل بمهارة عالية ودون خوف، لكننا بعدما كبرنا تأكدنا بأنها لم تكن هضبة، كانت عبارة عن هضيبة

صغيرة، لكن تجّار العقار عرفوا كيف ينتشلون ذاكرتنا الممتلئة بها، بعدما جاءت آلاتهم، ومعداتهم الكبيرة، ودكّت كل تلك الهضيبة، ودكّت أحلامنا معها، ليرسموا عليها مخططاً سكنياً أطلقوا عليه اسم «مخطط الهضيبة».

كنت أتذكر هذه الحكاية حينما رأيت يحيى أنيقاً، لكن هذا لم يمنعني من الانتباه لسؤاله الذي دلقه على مسامعي حينما قال: «هل سنبقى طويلاً هنا عند الباب؟»، فاعتذرت منه ضاحكاً، وأدخلته إلى مجلس الرجال، وأنا أضع يدي على كتفه، كنت سعيداً به حقاً، سعادة مسن التقى أحد أحفاد حبيبته التي لم يستطع أن يتزوّجها، وحين جلسنا استأذنته في الذهاب إلى الداخل لإحضار القهوة والشاي، فقال لي ضاحكاً:

ـ يا أخي زوجتك سوريّة لا تشوّهها بأخلاقك. اتركها لتأتي لنا بالشاي والقهوة، واترك عنك ثقافتك المهترئة هذه.

وأخذ يضحك، وأنا أضحك معه كطفل منغولي. فقلت له:

ـ المسكينة منذ الثالثة عصراً إلى الآن وهي في المطبخ، هي دوماً ما تهتم بالأمور بطريقة معقدة.

ـ ربما تكون قد أحبّتني، لا تستغرب من ذلك، فماذا تريد من أسود مثلك؟

ضحكت على كلامه هذا، وقلت:

ـ هل تعتقد بأنك شاب وسيم ولطيف؟ أو من أولئك البيض الذين يعرفون كيف يسرّحون شعورهم؟ أنت أسود مثلي.

ـ لكن أسود عن أسود يختلفان.

ـ أبداً نحن لا نختلف، وزوجتي لن تحبك، ولن تفكر في حبك أصلاً، من أحبّتك يا فالح أخذها «المرزبة» وهو يستمتع بها الآن، وليس أمامك أيها العاشق إلا أن تتأنق، وتذهب إلى أصدقائك لتتناول طعام العشاء في منازلهم.

ـ لا تقلّب عليّ مواجعي. لكنني على الرغم من ذلك على ثقة بأن زوجتك لو رأتني سأغويها حتماً.

خرجت من عنده، وأنا أضحك على كلامه. كان ساخراً وكوميدياً بشكل غير عادي، فمنذ أن عرفت يحيى وهو كذلك، دوماً ما كان يتعامل مع الأمور بطريقة فنّية للغاية، كأي فنان في هذه الحياة. دخلت على سحر، وهي في المطبخ، والضحكة لا تزال على وجهي بعد كلام يحيى فسألتني:

لماذا تضحك؟

صديقي «يحيى أبو جركن» جاء متأنقاً الليلة، وحين سألته: لماذا كل هذا التأنق؟ أجابني بأنه جاء لإغوائك.

ـ طلب مني أن تقومي أنت بنفسك بتحضير القهوة والشاي، والذهاب بها إليه.

ـ لكنني مشغولة الآن ولم أرتدِ ملابس جيدة.

ـ وهل صدّقت؟ صحيح أنه صديقي، لكنه أسود لا يستحق منك حتى نظرة بطرف عينيك!

تناولت طبقاً كان موضوعاً بجانب سحر، كانت القهوة والشاي، وبعض المكسرات تقبع فوقه، واتجهت إلى المجلس حيث يجلس يحيى. جئت وقد أشعل يحيى سيجارته، فسألته:

ـ هل تركت الشيشة؟

ـ مستحيل! لكن التدخين خيار مؤقت.

سكبت له فنجان قهوة بعد أن وضعت طبق المكسرات أمامه، تناوله مني، وأخذ حفنة من المكسرات، وقذف بها في فمه، وارتشف رشفة من فنجان القهوة الذي في يده، وبعد أن وضعه على الطاولة أمامه سألني:

ـ هل زوجتك هي من صنعت هذه القهوة؟

ـ نعم.

هل هم في سوريا يشربون قهوة كقهوتنا؟

ـ لا، لكنني علّمتها كيف تصنع القهوة العربية.

ـ قهوة لذيذة.

ـ تخيل لقد تعلّمت صنعها من مرة واحدة صنعتها أمامها.

ـ يبدو أنها امرأة ذكية، بكل صدق أنت لا تستحقها؛ لأنني أعرفك فأنت رجل غبي.

وضحك بأعلى صوته. فلم يكن مني إلا أن سألته:

ـ إذا كنت أنا من لا يستحقها فمن يستحقها؟

ـ أنا بكل تأكيد؛ لأنني ذكي.

ضحكت وأنا أتذكر ذكاءه، هو الرجل الذي تستطيع الوصول إلى زوجته بأن تقترح عليه بأن يذهب ليتنزه على البحر. حاولت ألا أوغل معه في الموضوع، فسألته:

ـ لماذا لم تأتِ زوجتك معك؟

ـ رفضتْ بحجّة أنها متعبة.

ـ وهل هي متعبة حقاً؟

ـ لا أعتقد، لكنني حينما أخبرتها بالموضوع ردت رداً قاطعاً بأنها لا تريد الذهاب.

ثم أرتشف من قهوته، وأضاف:

ـ أنت تعرفني جيداً؛ فأنا لا أحب أن أفرض عليها شيئاً لا تريده.

كانت إجابة يحيى مؤلمة أكثر مما سبق، فهي لم تعطني سبباً مقنعاً، ودوماً الأفعال التي لا تبرر نفسها كما ينبغي تكون مؤلمة على الوعي والذاكرة معاً. تحدثنا كثيراً، فأخذ يسألني عن سحر بكثرة، وعن النساء البيضاوات، عن أحوالهن، وكيف يكنّ في الفراش، وكنت أجيبه، وأرى الدهشة والشهوة تتقاطر من عينيه، وبدأت أضيف كلاماً ملفقاً عنهن من ذاكرتي، فازداد شهوة ودهشة، حتى إنه قال في لحظة اندماج مهول:

ـ تصدق يا عبده أمنية حياتي أن أضاجع امرأة بيضاء.

فلم أعلّق على كلامه هذا إطلاقاً.

(اليوم الثالث عشر)

كنت أشعر بألم في ظهري، وهو ألم دوماً ما أشعر به حينما أنام عارياً تحت جهاز التكييف دون أن يسترني شيء سوى غطاء السرير، وأحلام الليلة الفائتة بعد أن أقضي ليلة زوجية موغلة في الإجهاد، لم أكن أستطيع التحرك من على السرير. كنت أريد أن أبقى كما أنا لمدة سنة، أو تزيد، لذلك لم أتحرك من مكاني، كنت مستلقياً على ظهري أفتح عينيّ، وأغلقهما، فالضوء الذي كان ينبعث من أنوار الحجرة كان يؤذيني في عينيّ عادة إذا استيقظت من النوم. لم تكن سحر بجانبي كالعادة، كانت تستيقظ من النوم قبلي دوماً، وكنت أسمع صوت جهاز التلفاز في الصالة يُصدِر تلك الموسيقى التصويرية التي ترافق المسلسلات، ناديت سحر بصوت لم أستطع أن أجعله عالياً، فلم تستجب، ربما لم يصلها صوتي، فعدت مرة أخرى وناديت عليها، ولم يصلها صوتي مرة أخرى أيضاً، فكررت مرة ثالثة بصوت أعلى، فجاءتني مسرعة، وهي تسألني:

- ما بك؟
- كم الساعة الآن؟
- اقترب أذان العصر.
-
- الغداء جاهز.

قمت والتعب يعتليني كسرج بعدما خرجت سحر من الحجرة، حاولت أن أقف على قدمي، لكنها آلمتني. يبدو أنني لم أستطع البارحة التحكم بنفسي، فأوغلت في سحر كأنني من يتهجى الموت. أخذت أسير ببطء، وبدت

عرجتي واضحة أكثر مما يجب، وعند مروري بالتسريحة أحببت التأكد من الساعة، فتناولت هاتفي المحمول، فإذا برسالة قصيرة على شاشته. فتحتها، وتفاجأت بأنها من ناجية سعيد التي كنت أحفظ رقمها في هاتفي المحمول باسم «ناجي» كتبت فيها: «**إنها أيام جميلة فعلاً لا أزال أذكرها جيداً، لقد كنتَ خبيثاً أيامها، فكيف استطعت أن تقنع يحيى بالذهاب؟. استمتع مع زوجتك، الله يسعدكم**».

مسحت الرسالة سريعاً وابتسمت، وأنا أتذكر تلك الأيام، لقد كانت محقة، فهي أيام رائعة بكل تأكيد، إنها أيام لا يمكن نسيانها. في تلك اللحظة بدأت أتوق إليها، فنحن نحنُّ إلى الأشياء التي لا نملكها، للأشياء التي ليست في متناول أيدينا. تناولت منشفتي من خزانة الملابس، واتجهت إلى الحمام لأستحم، وناجية سعيد عالقة في ذاكرتي كورم سرطاني حميد. دخلت إلى الحمام، وفتحت صنبور الماء، وما إن بدأ الماء يتساقط فوق رأسي حتى بدأت استعيد تلك الذكريات. بدأت أتذكر ذلك اليوم الذي اتصلتُ فيه بناجية، وقلت لها:

ـ زوجك سيأتيك الليلة، وفي ذهنه أن يذهب إلى البحر ليومين.

ـ ما الذي يدريك؟

ـ لأنه صديقي، فأنا أعرف عنه أكثر مما تعرفينه أنت.

ثم أكملتُ:

ـ سيكون لدينا يومان كاملان من الأجدر بنا أن نستمتع بهما.

ضحكتْ بصوت عال، وقالت:

ـ يا خبيث.

في اليوم التالي اتصلت بي ناجية عصراً، وأخبرتني أن يحيى قد سافر إلى البحر فعلاً، وبعد أقل من نصف ساعة كانت تركب معي في سيارتي. وقتذاك أخذنا نثرثر، ونطلق على يحيى بعض النكات، ونعلّق على عقله المثقوب كجدار بيت طيني، وبينما نحن نسير في طرقات مدينة تبوك، ونثرثر

ونضحك، وإذ بهاتف ناجية يرن، فقد اتصل بها يحيى ليطمئن عليها ويخبرها بأنه قد وصل إلى «حقل»، تلك المحافظة الساحلية التي تتمتع بشاطئ جميل ومغر، فلم يكن من ضميرها في ذلك الحين إلا أن بدأ في التضخم كحُكم بالاعتقال، ولم يكن مني إلا أن ذهبت بها إلى شرق تبوك، تلك التي اعتدنا أن نزورها معاً في أحيان كثيرة، تلك التي كانت معلّقة في ظهر ذلك الفندق المهيب. وصلنا إلى هناك وبدأتْ ناجية في التأرجح، وحين اندمجت بدأ ضميرها في الاضمحلال كغضبة طفل، وبعد نصف ساعة تقريباً بدأت تعود إلى غيّها. تركتْ أرجوحتها، وعدنا إلى السيارة مرة أخرى، وقد استحالت لامرأة مختلفة، فقد كان للأرجوحة دور السحر عليها، وفجأة قامت برفع صوت جهاز التسجيل في السيارة الذي كان يصدر عنه أغنية صاخبة، وأخذت في التثني في السيارة أمامي بشكل فاتن، ونظرات الإغواء التي تطلقها من عينيها تخترقني وتدمي فضيلتي، فلم يكن مني في ذلك الوقت إلا أن مددت يدي لأتحسس صدرها، فصفعت يدي بلطف، وهي تردد كلمتها المشهورة «عيب» وتضحك بغنج وشهوة. رددت يدي عليّ، وفي داخلي تجوس الكثير من الشهوات، والكثير من الخيالات، والكثير من الرذائل. حاولت أن أتناسى كل ذلك، فقدت السيارة إلى مطعم لتناول طعام العشاء، وحين انتهينا من تناوله عدنا أدراجنا إلى حي المنتزه، وعندما اقتربنا من منزلها الذي لم يكن يبعد كثيراً عن منزلنا في حي المنتزه أوقفت سيارتي، وتركتها تترجل إلى البيت. كان الوقت ليلاً، وحي المنتزه يستحيل إلى غابة في هذا الوقت؛ لا ضوء فيه ولا اطمئنان. يممت وجهي إلى منزلنا. أوقفت سيارتي، ووقفت أمام المنزل أنتظر اتصالاً منها، وبعد نصف ساعة جاءني اتصالها كومضة، قالت فيه: «تركت لك باب البيت مواربا، تأكد أنه لا يوجد أحد من شباب الحارة، وادخل سريعاً». انطلقت إلى بيتها تسبقني رذيلتي، انطلقت بلا عرجة، وبلا همّ، ففي تلك الأيام كنت لا أزال سليماً، وصلت إلى البيت، ولم يكن أحد هناك من شباب الحارة، فانسللت إلى الداخل، وأغلقت الباب خلفي. لم أكن

أشعر بالخوف؛ فناجية دائما ما كانت تبعث الطمأنينة في قلبي كأب، وما زاد طمأنينتي أنها كانت تلبس ملابس مثيرة جداً تركتني ألعق شهوتي، وأتناسى أنني دخلت بيتاً لا رجل فيه، بيتاً لا يحق لي أن أدخله، بيتاً يشبه وكر عاهر. احتضنتني، وبقيتْ ممسكة بي لأكثر من دقيقتين. تراجعتْ إلى الوراء قليلاً، ثم قبضتْ على رأسي بكلتا يديها، وقبّلتني فوق شفتي كأنني رضيع.

اتجهنا إلى الحجرة التي كان يتوسطها تلفاز ضخم، كانت تنتظرني فيها بعصير دوماً ما كنت أراه في البقالة المجاورة. تناولته، وأخذت أشرب، وهي تعبث بجهاز التحكم بين يديها، واستقرّتْ على قناة مخصصة للأغاني، كانت تبث أغنية غاية في الهدوء. وضعت جهاز التحكم جانباً، ثم بدأت ترقص أمامي بهدوء، والنشوة تزداد في داخلي رويداً رويداً. كنت أشرب من العصير في يدي، ولا أتذوق له طعماً مثل أن تكون في عزاء والدتك.. كان جل اهتمامي منصبٌّ على تلك اللوحة التي تتثنى أمامي. كانت ترقص باحتراف، هي سيدة الجغرافيا والتضاريس، كان منظرها شهوانياً جداً جداً. كنت أشعر بين لحظة وأخرى بأن أنيابي تزداد طولاً، وتضغط على شفتيّ، فشربت ما تبقى من العصير دفعة واحدة، وقمت باتجاهها. مشيت كمن يسير على أرض مفروشة بالمسامير. كنت أسير نحوها مبتسماً بتلك الابتسامة التي لا يجيد رسمها سوى من تتمدد أنيابه.

ـ كل هذا الوقت وأنت تستحم؟ الغداء سيبرد على السفرة.

أخرجني صوت سحر من ذكرياتي وعدت إلى وعيي، كأنني فقت للتو من مخدر بعد عملية جراحية، عاد صوتها مرة أخرى، قالت:

ـ أسرع.

كانت هذه هي أول وجبة تقوم بطبخها لي سحر منذ أن تزوجنا، ولم يكن في بالي أن أفسد هذه المناسبة. سحر التي تجيد الطبخ كمغنٍ يعرف جودة حباله الصوتية، فرددت عليها: «دقائق وأكون بين يديك». أغلقت صنبور الماء، ونشّفت جسدي سريعاً. انطلقت إلى الحجرة، ولبست أقرب ما تناولته

من الخزانة، وأخذت أعدو إلى الغداء، لأجد أمامي وجبة غاية في الروعة، فقلت لسحر، وأنا أهمّ بالجلوس:

ـ ما هذا الفن؟.

ابتسمت لي والخجل يتسلق وجهها، ولم ترد، فأردفتُ:

ـ إنني محظوظ حقاً أن تكون جميلة مثلك تجيد الطبخ وإعداد السفرة بهذا الشكل زوجة لي.

ـ لم أفعل شيئاً يستحق كل هذا الثناء.

ـ وهذه السفرة ماذا يمكن أن نسمّيها؟

لم ترد أيضاً هذه المرة، فقلت:

ـ زيادة على جمالك، وإجادتك للطبخ، أنت متواضعة. ما أحلاك!.

كنت أعرف مقدار خجلها الذي يلتحفها بعد كلماتي، اعتدت أن أغفر لها سكوتها هذا معي، فلن نقدّم شيئاً إزاء من يثني علينا سوى الصمت، لأن تكرار الشكر يضفي على المسائل بُعداً مملاً. كنت آكل بشراهة لا مثيل لها. صحيح أنها كانت تجيد الطبخ بشكل لم آلفه من قبل، لكنني أحببت أن أبالغ في شراهتي لأشعرها بأهمية ما فعلته، ولكي تشعر بأنني ممتن جداً لهذا الطبخ الذي يشبه لحناً خالداً. طرأ على بالي فكرة في تلك الأثناء فقلت لها:

ـ ما رأيك لو أدعو «يحيى أبو جركن»، وزوجته لزيارتنا غداً لكي تدهشيهما بهذا الطبخ.

ـ هدفك فقط أن يدهشهما طبخي؟

ـ طبعاً لا، لكنه صديق عمري ولم يحضر لزواجي، فجميل أن يأتي هو وزوجته لتتعرفي إليها.

ـ افعل ما تراه مناسباً.

لا أدري لماذا شعرت بأنني أريد التباهي بها، مثل فنان تشكيلي يقف أمام لوحة له يفاخر بها الزوار، أو كطفلة تحمل دميتها معها في كل حين لتغرس في دواخل الأخريات الغيرة والحسد الصغيرَين. أعترف بأنني أحمل

في داخلي امرأة لن تموت، ولم تمت، سأربيها، وأغدق عليها كل حبي، لأن من يملك زوجة كسحر لا ينبغي أن يكون متواضعاً أبداً. أنهيت غدائي، وككل وجبة أنهيها شعرت برغبة ملحة في التدخين، فقمت، وذهبت إلى المجلس بعيداً عن سحر، وأخبرتها بأنني أود أن أدخن فقالت باستغراب:

ـ لماذا تذهب إلى المجلس، وأنت دوماً ما تدخن معي هنا؟

ـ سأتصل بيحيى، وتعرفين أحاديث الأصدقاء القدامى تحتاج إلى خلوة.

ذهبت إلى المجلس وما إن جلست حتى اتصلت بيحيى، فرد عليّ بعد مدة بترحاب غير عادي. بدأ في السؤال عن أحوالي، وأخباري مع الحياة الزوجية الجديدة، وسأل: هل فيها ما هو مثير فعلاً بخلاف ما نعرفه؟ وبدأ يحلب شيئاً من الذاكرة، ويغمز ويلمز حول فحولتي كما يتنابز الرجال هنا عادة، كنت مشتاقاً له حقاً؛ فهو صديق العمر والمرحلة، فسألته عن أخباره، وأخبار عمله، فضحك وقال:

ـ تسألني عن العسكرية؟ كنت أعتقد بأنك حين تركتها لن تعود إليها مرة أخرى حتى بسؤال عابر تلقيه على صديق لك في مكالمة هاتفية.

كان يحيى يكره الخدمة العسكرية مثل كل رجل يعمل في السلك العسكري في هذا البلد، فأنت لا يمكن أن تستغرب أن تجد كل العسكر يذمون عملهم، لكنهم لا يستطيعون تركه مثل يحيى تماماً، فهو لا يقدر على ترك عمله؛ لأنه لم يكمل تعليمه، ولن يجد غير العسكرية مكاناً يقبل به، فالعسكرية مكان للجهلة، للأوغاد، للشواذ، ولعلية القوم أيضاً. كنا نتحدث بحميمية كأطفال، فسألني:

ـ متى سنراك يا عريس الغفلة؟

ـ هذا ما دعاني للاتصال بك.

ـ خير.

ـ أريدك أن تأتي أنت وناجية لزيارتنا غداً، وتناول طعام العشاء، أتمنى

ألا تعتذر.

ـ بكل سرور طبعاً، فلن أعتذر لأنه من غير المنطقي أن يُدعى رجل إلى منزل امرأة سورية ويرفض، فأنا أود صدقاً أن أتذوّق طبخ هذه السورية.

وضحك...

أخذت أصف له منزلي الجديد هذا؛ لأنه لم يكن يعرف أين أقطن بعد زواجي، وحين تيقنت بأنه عرف البيت أغلقت الخط، وسريعاً فتحت رسالة قصيرة على هاتفي المحمول، ووضعت رقم هاتف ناجية سعيد في خانة المرسل إليه وكتبت: **«لقد دعوت المحروس زوجك لتناول طعام العشاء عندي في المنزل مساء الغد، وأبدى موافقته، وأخبرته أن يصحبك معه، أتمنى أن تكوني معه غداً».**

وأخذت أمزّ سيجارتي التي كانت بين أصابعي حتى انتهت، وأشعلت أخرى، وحينما شارفت على الانتهاء من السيجارة الثانية سمعت صوت سحر، وهي تدلف مع باب المجلس، وتقول:

ـ جارتنا التي تقطن في الدور العلوي عندي الآن، جاءت لتسلّم وتتعرف عليّ، جئت لأخبرك بالأمر، وأرى إن كنت تريد شيئاً أصنعه لك.

ـ شكراً لك يا حبيبتي. استمتعي بوقتك معها.

وما إن خرجت سحر من باب المجلس حتى وصلتني رسالة قصيرة من ناجية كتبت فيها: **«أعتذر منك فأنا لا أستطيع الحضور».**

(اليوم الثاني عشر)

كنت أعرف إلى أي حد هو مضجر البقاء في المنزل إذا كنت متزوجاً حديثاً، لذا لم أتوانَ بعد أن أنجزت سحر تبديل ملابسها، فخرجت من البيت مسرعاً وهي تتبعني. كانت السماء رمادية اللون، تشبه لوحة رسامة مبتدئة، فاللون الرمادي خصلة المبتدئين دوماً. فتحت السيارة وأردت الركوب، فسمعت صوتاً يأتيني من بعيد، كان صوتاً خشناً وصلباً، فالتفت فإذا به صوت جاري الملتحي «أبو حسين».. طلبت من سحر الركوب في السيارة لحين معرفة ما كان يريد هذا الجار، اتجهت إليه فبادرني بالسلام، والسؤال عن الأحوال، وكنت أجيبه سريعاً كمن يتخفف من عناء هذه الإجابات، فسألني:

ـ منذ أن سكنت هنا وأنا لم أرك في المسجد، عسى المانع خيراً؟

ـ ربما أكون نائماً.

ـ أهل الحي يسألونني عنك دوماً. لماذا لا نراه في المسجد؟، فعللت بأنك ربما تكون مريضاً.

ـ الحمد لله أنا في أحسن حال.

ـ إنهم طاعنون في السن، وستقع في مأزق كبير أمام هؤلاء المسنين إذا كنت إمام مسجد، ولا يشاهدون جارك يداوم على الصلاة في المسجد.

ـ جزاك الله خيراً، وسأحرص على أداء الصلاة في المسجد إن شاء الله.

ـ أتمنى لك التوفيق والسداد، ولن أؤخرك عن أهلك. إلى اللقاء.

ذهب بعدما ترك في داخلي غصّة أو حجراً لا فرق، استدرت عائداً إلى السيارة، وكثيرة هي الأسئلة التي أخذت في مطاردتي كمتهم، لم أخطئ حينما

شعرت بأن صوت جاري هذا هو الصوت ذاته الذي كان يدلق على مسامع الناس قبل يومين كلمات عن الرق، وزواج العبد من الحرة، والعكس، فهل كان يقصدني بها؟ وهل قال أحدهم عني كلاماً بحضرته؟ أم أنه يشعر بأنه من الواجب ألا يتعامل الناس مع السود هنا بهذه الطريقة؟ ولماذا قال كلمته في المسجد أمام الملأ؟.

أشعر بأن هذه الكلمة ستبقى في آذان أهل الحي، ولن تخرج منها أبداً، ستكون في ذاكرتهم كوشم، ونحن عادة لا ننسى النصائح والمواعظ التي ينثرها الوعاظ في آذاننا. كنت مشغولاً بتساؤلاتي، وسحر منهمكة في قراءة لوحات المحال التجارية، فسألتني حينما انتبهت إلى غرقي في نفسي:

ـ بماذا تفكر؟

ـ بجاري أبو حسين.

ـ ماذا به؟ هل قال لك شيئاً يجعلك تفكر فيه بهذه الطريقة؟

ـ نعم، لقد قال إنه إمام المسجد.

ـ وإذا كان إمام المسجد!. هذا الأمر لا يدعو للتفكير به. أساساً هيئته تدل على أنه إمام المسجد.

ـ هل تتذكرين قبل يومين حديثه عن الرق، وجواز زواج العبد من الحرة والعكس؟

ـ لا أتذكر.

ـ سمعت موعظته قبل يومين كاملة، قالها بعد صلاة المغرب.

ـ طيب!

ـ ما الدافع لقولها؟ من المؤكد أنه يقصدني، فهؤلاء البيض لا يتورعون في إبراز أنفسهم على أنهم الأفضل.

سكتتْ، فربما شعرتْ بأنني أقصدها لأنها في نهاية المطاف امرأة بيضاء، لكنني لا أستطيع أن أغفر لكل هؤلاء البيض الذين يشعرون بأنهم مثل الآلهة، فهل لأنني رجل أسود؛ أستحق كل هذه القسوة؟. إنه شيء قدري

ورياني أن أحمل جلداً أسود، فبشرتك مثل العاهة لا دخل لك فيها، إنه اختيار الرب، لكن هؤلاء البيض لا يؤمنون بذلك: فكيف لي أن أناقشهم؟ أن أدافع عن نفسي أمامهم؟، وأنا أحمل شيئاً لم يكن لي فيه اختيار؟. إن لوني ذائقة من السماء يجب احترامها.

كنا نذرع شوارع تبوك دون أن نهتدي إلى مكان نجلس فيه، كنت مثل المصاب بحمى شديدة لا يدرك قيمة الأشياء من حوله، وكانت سحر موغلة في غيّها ذاك في قراءة لوحات المحال التجارية، وفجأة انتبهتُ إلى نفسي، وقلت:

ـ هل تودين أن نذهب إلى مقهى لتناول كوبين من القهوة.

ـ لقد اقترب موعد صلاة العشاء، والمقاهي ستقفل.

يبدو أنها حفظت الدرس جيداً، وما أذكاها تلك المرأة التي تحفظ دروسها أولاً بأول، فعلى الرغم من الغرابة التي بدت على محياها مساء البارحة حول هذا الأمر إلا أنها ذكرتني به اليوم، كنت لا أعرف إلى أين سأذهب؟ لكنني اتجهت شرقاً باتجاه طريق المدينة المنورة، إلى أن وصلت إلى ذلك الفندق الضخم الذي يتربع شرق تبوك كمارد، فندق «صحاري تبوك مكارم» بجبروته الذي يزرع في داخلنا الرهبة والبذخ، أوقفت سيارتي بجانبه، وترجلت منها كشرطي مرور، وسحر تسألني عن سبب نزولي هذا، أخذت دورة كاملة على السيارة حتى وقفت أمام زجاج السيارة من جهتها، وطرقت الزجاج عليها، ففتحته، وقلت:

ـ هل ترين تلك الأرجوحة؟

وأشرت بيدي إلى أرجوحة كانت تقبع عن يميني، تبعد قرابة خمسين متراً عن السيارة، فقالت:

ـ نعم.

ـ وقفت هنا لكي تنزلي وتتأرجحي بها.

ضحكت بخجل باد، فنزلت سريعاً فرحة بهذا الاقتراح، كنت أنظر

إليها بسعادة قصوى. كنت أحتاج إلى أن أبدد كل الكراهية التي نبتت في داخلي تجاه ذلك الملتحي المنافق، وكل هؤلاء البيض الذي يمرون من أمامي ويتبسّمون في الطرقات، لم أكن أستطيع إلا أن أُبهج سحر وأتركها تتأرجح، وأقف أمامها مبتسماً. لم أكن أملك أكثر من ذلك، وإنه لشيء سيء ألا تملك إزاء بهجة زوجتك إلا أن تتركها تتأرجح في أرجوحة شرق مدينة صغيرة، وتقف أمامها مبتسماً.

أخذت سحر تتأرجح، وأنا أحدق بها، وكلما زاد تأرجحها يعود بي الزمن إلى الخلف أكثر، إلى تلك الليلة التي وقفت فيها في مكاني هذا أتأمل فيه فتاة تتأرجح، وابتسم معها بهذه الابتسامة الملقاة على وجهي الآن، لكنها لم تكن زوجتي، ولم تكن امرأة بيضاء أبداً. لقد كانت «ناجية سعيد» حينما تضخم ضميرها كمارد بعد اتصال «يحيى أبو جركن» للاطمئنان عليها، فلم أكن أملك في ذلك اليوم إلا أن أذهب بها إلى هنا ليتلاشى الضمير الضخم في داخلها بعد اتصال زوجها عليها، وسؤالها عن أحوالها، وإخبارها بأنه وصل إلى البحر. أخرجت هاتفي المحمول بينما كانت سحر تبتسم في أرجوحتها، وفتحت رسالة قصيرة كتبت فيها: **«أقف الآن في المكان ذاته الذي وقفت فيه أتأملك عندما اتصل بك يحيى حينما سافر إلى البحر، وزوجتي تتأرجح في الأرجوحة ذاتها التي كنت تتأرجحين فيها. لقد تذكرتك بها. إنها أيام جميلة»**. وأرسلتها إلى هاتف «ناجية سعيد» المحمول.

لقد كانت هذه الرسالة الثانية التي أرسلها إلى ناجية منذ أن تزوجت من سحر، فيبدو أنني لن أستطيع الخلاص منها، ففي اليوم التالي لزواجي اتصل بي يحيى ليبارك لي فرحي وقراري هذا، وأخبرني أنه يهيم في شوارع تبوك لوحده كسجين، وعندما أغلقت المكالمة قمت بإرسال رسالة إلى ناجية كتبت فيها: **«الكل بارك لي زواجي إلا أنتِ، حتى أن زوجك اتصل بي قبل قليل، وبارك لي، لكنني لا انتظر منك مباركة، فقط سأطلب منك طلباً صغيراً، وهو أن توفري ليحيى ليلة عروس اليوم تضامناً مع زواجي، وقدميها له كهدية»**.

وضعت هاتفي المحمول في جيبي، وعدت لتأمل سحر وهي تتأرجح برفق، فأعجبتني هيئتها كثيراً، لأنه مدهش حقاً أن ترى امرأة بيضاء وهي تتأرجح. سرت إلى أن وصلت إليها، وبدأت في دفعها برفق فلم تتكلم، وبدوري لم أكن أتكلم أيضاً، كنا صامتين ندفع لذّتنا وبهجتنا بهدوء، وبلا صخب، ثم رويداً رويداً بدأت أدفعها بشكل أقوى فلم تتكلم أيضاً، لكنني حينما بدأت في دفعها بشكل أقوى من سابقه قالت لي:

ـ بهدوء يبدو أنك تريد إسقاطي.

فقلت لها مغازلاً:

ـ لا أحد يجرؤ على إسقاط قلبه.

فلم ترد، كنت أحاول دوماً أن أسوّغ لها هذا المد الخجول الذي كان يستولي عليها عندما أغازلها، فالمرأة البيضاء أكثر خجلاً من المرأة السوداء؛ هذا ما كنت أحس به عندما أغازل سحر الآن، وأقارن بين ردود أفعالها وبين ما كانت تفعله «ناجية سعيد» حينما كنت أغازلها، فناجية لم تكن تخجل من تقبيلي بشدة حين أغازلها بعد أن تقبض على رأسي بين يديها ككنز.

بعد أن شبعت سحر من التأرجح أمرتني أن أتوقف عن دفعها، ونزلتْ. عدّلتْ من هيئة عباءتها التي تلاعب الهواء بها، وأعادت وضع غطاء رأسها الذي لا تحسن لبسه على رأسها، وقالت:

ـ دعنا نذهب لتناول العشاء فقد بدأت أشعر بالجوع.

ركبنا السيارة وعدنا من الطريق ذاته الذي سلكناه متجهين غرباً. تجاوزنا إشارة ضوئية واثنتين وثلاثاً، كانت صلاة العشاء قد انتهت للتو، ولم يعد أمامنا إلا أن نبحث عن مكان نتناول فيه طعامنا. أوقفت سيارتي أمام مطعم «البستان» الذي يعرف كيف يدلل معدتك. أتذكر أنني ذهبت إليه كثيراً مع «ناجية سعيد» في سنوات غيّنا، وأتذكر أيضاً أنها كانت تحب دوماً أن تطلب دجاجاً مشوياً على الطريقة الهندية، وتتناوله بشغف، لأتشرّب قناعة بأننا لا نعترف بالثقافات وبخصوصيات المجتمعات إذا تعلق الأمر بطعام نأكله.

دخلنا إلى قسم العائلات في المطعم، وبدأ الناس في التوافد، لقيتُ صديقي العامل الهندي الذي أعتدت أن أكرمه حينما أزور هذا المطعم، فقابلني بترحاب كما عهدته وأخذ بيدي ووضعني في زاوية قصية من هذا المطعم، في مكان يمكنك أن تفعل فيه ما تشاء بكل أريحية، دلفنا أنا وسحر إلى تلك الجلسة المطوّقة من كل الجهات، وأغلقت الباب خلفي، وطلبت منها أن تخلع عباءتها وغطاء وجهها، وتتعامل مع المكان كما تشاء، فسألتني:

ـ هل كل مطاعم السعودية هكذا؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد هل كل مطاعم السعودية مقسومة إلى قسمين: قسم للعائلات، وقسم للشباب؟

ـ نعم كلها كذلك، يجب أن تعتادي على هذا؛ ففي كل مكان هنا ستجدين جزءاً مخصصاً للشباب، وجزءاً مخصصاً للعائلات.

تناولتُ قائمة الطعام الوحيدة التي كانت مرمية على الطاولة أمامنا، وسألتها:

ـ ماذا تريدين أن أطلب لك؟

ـ ماذا هناك؟

قمت بعد أن كنت جالساً أمامها، وجلست بجانبها، ووضعت قائمة الطعام أمامنا على الطاولة، وأخذنا في تقليبها، اختارت عدة أصناف كمقبّلات، لكن الغريب أنها طلبت دجاجاً مشوياً على الطريقة الهندية كوجبة رئيسية، ولم أعلّق على طلبها أبداً، فالمرأة تعرف بحاسة لديها متى تنافسها امرأة غيرها في زوجها. قمت بعد أن حفظت ما كنا نريده جيداً، واتجهت إلى صديقي العامل الهندي القصير ذاك الذي حينما رآني ابتسم، ووشوش في أذني:

ـ كل يوم فيه مدام جديد. (كل يوم لديك امرأة جديدة).

وأخذ في التبسّم. لقد لاحظ الفرق بين المرأتين إذن، ومن هو الأخرق الذي لا يمكن أن يلاحظ الفرق بينهما؟ فتلك امرأة سوداء واضح سوادها

علناً، وهذه امرأة بيضاء تشبه كوباً من اللبن. لم أرد عليه. اكتفيت بالابتسام. لم أكن أريد أن أحرق الانتصار الذي شعرت به ينمو في داخلي، كان انتصاراً لذيذاً على الرغم من رداءته بأن أكون رجلاً متعدد النساء، فالرجال يطربهم أن يكونوا في أعين الآخرين متعددي النساء، والمرأة هنا إما أن تكون انتصاراً أو هزيمة، والهزائم تكسر ظهور الرجال دوماً.

عدت إلى سحر بعد أن أمليت على العامل ما نريد أن نأكله، فأخذتْ تثرثر مثل كل مرة عن الأكل وأصنافه وفوائده، وعن أجوده باعتقادها، إنها امرأة تعرف وظائفها جيداً. إنها تعجبني حينما تتحدث عن الأكل والمساحيق والأزياء، ربما لأنني لم أتعوّد أن أجلس أمام امرأة تعرف كيف تتحدث، فالنساء اللاتي عرفتهن لم يكنّ يعرفن كيف يتحدثن. إنهن نساء لا يعرفن سوى الرقص والضحك والأكل والنوم، لم يعرفن يوماً كيف يدربن ألسنتهن على الأحاديث الجادة، على الرغم من أن سحر هي المرأة الوحيدة التي كانت تقرأ ممن عرفتهن، فدوماً حينما نكون في المنزل أو في الفندق، وحينما لا يكون لديها ما تفعله كانت تقرأ في كتب لم أعرفها، ولم أسمع عنها، ولم أكن أفهم ما تقوله، ولم أحاول في يوم من الأيام أن أفهم أيضاً؛ لأنني رجل لم أتعوّد على القراءة، كنت أجيد فقط فعل تلك الأشياء التي أحبها بإخلاص، وربما بإفراط أيضاً...

لذا فعلت كل ما أعرفه بحب وإخلاص، وإفراط أيضاً عندما عدنا إلى المنزل بعدما أنهينا طعام العشاء، وبعدما أطفأنا أنوار غرفة النوم، وبدأ الظلام في التمدد.

(اليوم الحادي عشر)

المدن الجديدة تربّي الثعالب في دواخلنا، وتجعلنا حذرين دوماً!

بعدما وضعت سحر أمامي كوباً من عصير الفراولة الذي قمت بشرائه مساء البارحة ذهبتْ إلى حجرة النوم، فبقيت في الصالة أدخن، وأستلذ بشرب هذا العصير ومشاهدة التلفاز، كنت أسمع صوتاً يأتيني من غرفة النوم، فعرفت بأن سحر كانت تقوم بترتيب الحجرة، شعرت بحرج من بقائي هنا، فذهبت إليها، وأخذت أساعدها في ترتيب أغراضنا التي امتلأت بها الحقائب، فحينما سافرنا من سوريا أخذتْ سحر كل ما لديها هناك، وكأنها ستموت دون أن تزور سوريا مرة أخرى، طلبت إليّ أن أستريح، فستقوم هي بترتيب الحجرة كما ينبغي، لكنني رفضت حياء، فأنا أريد مشاهدتها ربة منزل لأول مرة، فمنذ أن تزوجنا ونحن نزور الفنادق الفخمة والمنتجعات، فلم يحصل أن رأيتها ربة منزل من قبل، كانت في كل تلك الأيام ضيفة فقط. ساعدتها في ترتيب الملابس كابن يريد أن يغرس في داخل أبيه بأنه ابن جيد ومهذب، وحينما فتحتُ حقيبتها التي تحتوي على ملابسها الداخلية قالت لي فَزِعَة:

ـ دعها أنا سأرتّبها.

ـ سأساعدك.

ـ رتّب أي شيء آخر، لأنني أخجل منك. اترك لي ترتيب هذه الحقيبة.

ضحكتُ بخبث، وضحكتْ هي بخجل وعدنا إلى الترتيب في تواطؤ مقصود؛ لم يستغرق منّا ذلك سوى ساعة ونصف، بعدها سمعت مؤذن الحي يؤذن لصلاة العصر، حينها تذكرت الكلمة التي قالها إمام المسجد مساء البارحة عن العبودية والرق، لكن الغريب أن صوت إمام الحي يشبه كثيراً

صوت جارنا الملتحي الذي يسكن في الطابق الأعلى ويدعى «أبو حسين». جلسنا في الصالة نشاهد التلفاز، وفي لحظات اندماج سحر أقوم باستراق النظر إليها كمذنب، لقد كانت فاتنة بتلك البيجاما البيضاء التي يفترشها ورد أخضر، وتحشر جسدها وكأنها صورة فتذكرت شيئاً فقلت لها:

ـ ألم أخبرك؟

ـ بماذا؟

ـ لقد صادفت جارنا الذي يقطن في الطابق الأعلى، وأنا خارج من المنزل مساء البارحة.

ـ طيب.

ـ إنه رجل ملتح، لكنه لطيف وقد دعاني لتناول العشاء.

يبدو أنها لم تكن مهووسة بهذا الحديث فلم تعلّق، وشعرت بندم على كلامي هذا على الرغم من أنني كنت أود أن أدلق أي شيء على مسامعها لنفض بكارة هذا الصمت الموحش والكئيب، وعلى الرغم من ندمي ذاك عاودت ما بدأته، وسألتها:

ـ ما رأيك في مدينة تبوك؟

ـ لا أعرفها جيداً، لكنها تبدو رائعة، فهي تصلح للمتزوجين الجدد.

وأخذت تضحك...

صحيح أنني فرحت بكلامها هذا، وشعرت بنشوة غريبة من خلاله، لكن أين هي الروعة التي تتحدث عنها سحر؟ فتبوك مدينة تقترف الحمق دوماً إزاء شهواتك. إنها مدينة تشبه نظام الطوارئ في النظم السياسية الاستبدادية؛ تستطيع مصادرتك واعتقالك وتعذيبك وحرمانك من كل الأشياء الجميلة دون أن يكون لك أي حق في قول ما تريد لمجرد أنك لم تَرْق لها. إنها مدينة تشبه المعتقل تماماً. أبغضها لأنها تذكرني بسنوات حياتي في العسكرية، وكيف اخترقت تلك الرصاصة فخذي بكل يسر وسهولة في ذلك المشروع العسكري الفاشل الذي أقمناه في إحدى ضواحي مدينة تبوك. كيف يمكنني أن أغفر

لمدينة تعيد تكديس الحسرة في نفسي؟ فهي تذكرني بعرجتي الدائمة، وتذكرني بأنني شاب متقاعد لظروف طبيّة، فهل ينبغي أن يتقاعد الشباب لظروف طبيّة؟.

في ذلك اليوم خرجنا من بيوتنا فجراً، تكدسنا فوق بعضنا بعضاً في تلك السيارة التي يطلقون عليها اسم «لوري»، وهي السيارة التي تستطيع مشاهدتها بكثرة في تبوك، واتجهنا شمالاً حيث كل شيء أخضر. اتجهنا إلى منطقة لا تبعد عن تبوك مسافة طويلة يطلقون عليها اسم «جبال شرورة». كان المشروع العسكري في ذلك اليوم عبارة عن رماية بالذخيرة الحيّة. في ذلك المشروع وخلال سماعي لدوي الذخيرة من حولي لا أدري كيف سقطت بندقيتي من يدي، وحين ارتطمت بالأرض انطلقت منها رصاصة لتخترق فخذي، فصرخت بأعلى صوتي، وبكيت، نعم بكيت لأنه ليس أمامك حينما تخترق رصاصة فخذك إلا أن تبكي، وتصرخ بقوة. جاءت مجموعة من زملائي، وتجمعوا من حولي وأنا أبكي، كنت أشعر بأن بكائي هذا سيرد لي فخذي معافى، لكنني كنت واهماً؛ فالمصائب لا تعود إلى الوراء إطلاقاً. إنها من طغيانها تتقدم دون أن تلتفت إلى الخلف. حملني الزملاء على أكتفاهم والدم يتقاطر من فخذي كصنبور ماء، كان منظري مرعباً ومخيفاً كشرير قارب على الموت في أحد أفلام الإثارة، كنت أصيح، وهم يركضون بي ويصـ ...

ـ أين أنت؟

شاهدت يد سحر، وهي تلوّح بها أمام وجهي كمسافرة، أو كمن ترغب في إيقاف سيارة أجرة، كنت معها بجسدي فقط، بينما عاد عقلي إلى الوراء إلى زمن لا أريد أن أتذكره، فقلت لها:

ـ أنا هنا.

فضحكتْ، وقالت:

ـ يبدو أنك لم تسمعني. كنت أتحدث معك.

ـ ماذا قلت؟

ـ البيت فارغ من كل شيء. ما رأيك لو ذهبنا لشراء مستلزمات المطبخ والأكل والتنظيف؟

ـ بكل سرور. جهزي نفسك سنذهب بعد صلاة المغرب.

بقيتُ طوال فترة العصر، وأنا أستعيد ذكرياتي حول يتم رجلي المعافاة، وأتذكر أشياء كثيرة لا أود البوح بها لأحد. فالمأساة حينما تعبرك لا تنتظر منك أن تعيد النظر فيها، إنما تتركك تجتر منها الذكريات فقط، فهذه الذكريات جزء مني كرجلي نصف التالفة، ونصف الحيّة هذه. كانت سحر في الحجرة تعيد ترتيب هيئتها وكأنها مقدمة على الزواج، وحينما خرجت لي بكامل زينتها سألتها، وأنا أضحك:

ـ لماذا كل هذه البهرجة؟ فنحن لن نذهب لعرس.

فأجابت ضاحكة:

ـ لم أعتد الخروج من المنزل إلا وأنا بكامل زينتي، فعلى الرغم من هذه العباءة وهذا الغطاء الذي يتعبني كثيراً إلا أنني لن أتخلى عن هذه الخصلة.

ـ الحمد لله أنك تلبسين عباءة وغطاء رأس، فهنا وحوش لو رأوك من دونهما فربما أكلوك؛ لأنهم لا يتورعون عن أكل النساء الجميلات.

قذفت هذه العبارة في وجهها، ومضيت لأبدل ملابسي في حجرة النوم، تناولت أحسن ما لدي من الملابس أنا أيضاً، ورششت عطراً نفاذاً على ملابسي، وعلى عنقي من الأمام، وخرجت من الحجرة لأجدها تنتظرني في الصالة كحورية، أو كقطعة من سحابة بيضاء، ومضيت لتلحقني، وعندما أحكمت إغلاق الباب جيداً كنت أرى أهل الحي عائدين من المسجد بعد أدائهم لصلاة المغرب.

ركبت السيارة، واتجهت غرباً، كنت أسير باتجاه مجمع أسواق «استرا». وصلت إلى دوار، وما أكثر المستديرات في هذه المدينة!. انعطفت يساراً تاركاً فندق «ميسلون» عن يميني بجماله الخارجي المهيب، واتجهت نحو شارع الخمسين جنوباً، أخذت أمشي في هذا الشارع الذي يمتحن صبرنا إزاء وقوفنا

أمام إشاراته الضوئية الكثيرة. كانت سحر تحدق في الناس، وفي السيارات، وفي الشوارع، وفي لوحات المحال التجارية، وأنا أعلم بأنها سعيدة، لأننا نحب أن نحدق في الشوارع التي لا نعرفها، كانت سعيدة، وكنت متماهياً مع القيادة دون أي متعة في مشاهدة هؤلاء الناس الذين أعرف وجوههم جيداً. كنت أقود السيارة، وسحر تُسمّع لي أسماء المحال التجارية كعادتها، فتثني على اسم هذا المحل، وتعيب على ذاك، كانت تحب هذه العادة التي اكتسبتها من صغرها، وظلّت وفيّة لها طوال حياتها، ففي دمشق وعمّان وفي كل مكان يمكن أن نجد فيه لوحة محل أو لوحة إعلانية كانت تردد أسماء تلك المحال بصوت عال، لقد اعتدت على هذه المسألة حتى أنني أشعر الآن بأنني لم أعد أطيق قيادة السيارة دون هذا الفصل التعليمي، ووصلنا إلى أسواق «استرا».

أوقفت سيارتي في المواقف المخصصة لذلك أمام هذا السوق، ونزلنا منها، ودلفنا إلى الداخل تدفعنا ذائقتنا دفعاً. تناولت عربة تسوّق وأخذنا نسير في ممرات هذه السوق، وسحر تعبئ العربة بذائقتها. لقد كانت شديدة الحرص على ما نأكله، وبالمقابل كانت تملك ذائقة غير عادية تجاه المأكولات.

كنا نسير في الممرات، وأنا ألحظ وجوه بعض الرجال البيض وهي معلقة بنا، كانت نظرات ملؤها الاستغراب والدهشة؛ مثل تلك النظرات التي يمكن أن تلحظها في أعين الأطفال حينما يشاهدون رجل سيرك أو مهرّجاً، أو حتى حين يشاهدون مشاجرة بين شباب سكارى. لم أكن أحفل بنظراتهم التي كان يدفعها الحسد والغيرة والشهوة تجاه زوجتي الجميلة هذه، فهي امرأة تزوجتها بحُرّ مالي، ولا لأحد من هؤلاء البيض الأوغاد أي حق في أن يناقشني في مشروعية أن أتزوج امرأة بيضاء جميلة كسحر؛ كنت أتصارع مع أفكاري حتى سمعت صوت رجل بجانبي يقول:

ـ لو سمحت يا أخ: أين يمكن أن أجد أدوات التنظيف؟

التفت إليه فإذا به شاب أبيض يقف أمامي بكامل أناقته، وبابتسامة

ملؤها الكذب يحشو بها وجهه. احتقرته كثيراً فقد كان ينظر إلى نفسه بزهو مبالغ فيه، فقلت له:

ـ نعم!

ـ أين يمكن أن أجد أدوات التنظيف؟

ـ هل ترى في هيئتي بأنني عامل هنا؟. يمكنك أن تذهب، وتبحث عنها بنفسك.

مضيت وتركته، وتركت احتقاري يثرثر معه كأي شيء تافه لا قيمة له، وحينما ابتعدنا عنه سألتني سحر بحيرة:

ـ لماذا قلت له ذلك؟

ـ يستحق أكثر من ذلك، ألم تلاحظي نظرة الزهو الكاذب في عينيه؟ هو يريد لفت انتباهك فقط لتنظري نحوه، فهو يشعر بأنه سيفتنك، هكذا يفكر الرجال البيض هنا.

امتلأت عربة التسوق التي كنت أدفعها أمامي، امتلأت حتى لم يعد فيها مكان يمكن أن يتسع لفرشاة أسنان، فذهبت إلى القسم الأمامي من السوق، وطلبت من المشرف على القسم أن يقوم بحراستها إلى أن أعود، تركتها، وأخذت عربة أخرى، وعدنا أنا وسحر لنشتري ما تبقى لنا من حاجيات، ونظرات الموجودين كلهم ملعقة بظهر سحر كحقيبة رياضية، كنت أشعر بهذه النظرات والانتصار يتعملق في داخلي، فلم يكن يملك كل هؤلاء البيض إلا أن ينظروا إلى سحر فقط، وأنا الوحيد الذي أستطيع أن آخذ منها ما أريد.

انهمكنا في عملية الشراء حتى ظننت بأننا لم نترك شيئاً إلا حملناه معنا، مثل أطفال يعبثون بنقود حصلوا عليها من أقاربهم يوم العيد، وفجأة سمعنا صوتاً عبر مكبر الصوت ينادي: «زبائننا الكرام: نرجو الإسراع في التوجه إلى قسم المحاسبة نظراً لدخول وقت الصلاة»، فسألتني سحر:

ـ لماذا يطلبون من الجميع سرعة التوجه إلى المحاسبة؟

ـ لقرب أذان صلاة العشاء.

- وما دخل هذا في الموضوع؟
- لأنهم سيغلقون المحل وقت الصلاة.
- ولماذا يغلقون وقت الصلاة؟
- لكي يذهب الناس للصلاة، فالمحال التجارية كلها في السعودية تغلق وقت الصلاة، فنحن لسنا مثلكم.
- أمر غريب حقاً.
- ليس غريباً، إنه أمر جيد لكي يذهب الناس لأداء الصلاة.
- يعني أنهم سيصلون رغماً عنهم.
- لا، لكن لكي لا ينشغل أحدهم بالبيع والشراء، وتفوته الصلاة.
- من يريد أن يصلي فسيصلي؛ سواء أغلقت المحال التجارية أم لم تغلق.
- لكن فتح المحلات وقت الصلاة سبب في عدم صلاة الناس.
- وهل كل من يخرج من المحال التجارية وقت الصلاة سيصلي؟
- لا أدري، ربما لا يصلي الجميع، لكن الدولة قامت بكل ما عليها.
- كل ما عليها أن تغلق المحال التجارية وقت الصلاة؟
- نعم.

لم تكمل سحر حديثها معي بهذا الخصوص، وأظن بأنها فعلت خيراً في ذلك.اتجهنا إلى المحاسب، ووضعنا أمامه كل تلك المستلزمات التي لم تدهشه بقدر ما أدهشه حضور سحر بجانبي. حينما طلب مني الحساب أخرجت له بطاقتي الائتمانية، وسحب منها كل المبلغ، وطلبت من عامل بنجلاديشي كان يقبع خلفه بأن يلحقني بكل هذه المستلزمات، وحين وصلنا إلى السيارة طلبت من هذا العامل أيضاً أن يضعها في مؤخرة سيارتي الضخمة هذه، وأدرت المحرك، وسألت سحر:

- هل تودين أن نتناول العشاء في أحد المطاعم.

ـ لا أشعر بالجوع، إنني أشعر بتعب فظيع فقط، فقد عملت اليوم، ومشيت أكثر مما ينبغي.

اتجهنا إلى البيت، وسحر منهمكة في قراءة لوحات المحال التجارية والإعلانات التي تسبح في طرقات هذه المدينة، كنت أسمع صوتها وفي داخلي ألف حكاية حول العشاء الذي أود منها أن تطبخه لي هذه الليلة، لكننا حينما وصلنا إلى المنزل لم تصنع لي سحر أي عشاء، إنما اتجهنا بملء إرادتنا إلى ما بعد العشاء سريعاً.

للخفافيش عيونٌ أيضاً

(اليوم العاشر)

«أبو حسين»

وقفت أتحدث مع جاري «أبو أمجد الثويني» بعد خروجنا من صلاة العصر، لقد كان شيخاً طاعنا في السن، لكنه لم يكن يفارق المسجد، فهو مثل حمام الحرم يتكاثر حول الأماكن المقدسة، أسأل الله له المغفرة وحسن الخاتمة. وأثناء وقوفنا بجوار البيت ونحن نتحدث سألني:

- أرى سيارة جديدة أمام منزلكم.
- هذه سيارة جار لنا جديد.
- ما شاء الله، من أي القبائل هو؟
- والله لا أعلم يا أبا أمجد، لكنه أسود البشرة.
- عبد!
- لم يعد هناك عبيد يا أبا أمجد فالزمن تغير.
- العبد سيبقى عبداً إلى أن يموت.
-
- ومتى سكن هنا؟
- وصل بالأمس، ويبدو أنه عائد للتو من شهر عسله.
- إذن هو عريس جديد.
- نعم، وزوجته سورية الجنسية.
- إخس يالعبد!

لقد كان «أبو أمجد الثويني» متعصباً أكثر مما ينبغي، لكنني لا يمكن

أن أنكر أن في داخل كل إنسان منا هذا العنصري الأعمى، ومهما حاولنا أن ننتشله فإننا لن نستطيع، فالمسنون لا يدركون بأن الزمن قد تجاوزهم؛ لذلك يبقون على قناعاتهم ذاتها، وكذلك، على مبادئهم. تركت أبا أمجد، واتجهت إلى المنزل وقول الله تعالى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» يتسكع في ردهات عقلي: فما دام جارنا أبو أمجد لا يفارق المسجد لماذا لا يمتثل لكلام الله عز وجل؟ فالله لم يفرّق بين أبيض أو أسود.

طرقت باب بيتي ففتحت لي زوجتي باسمة، ودخلت ورائحة القهوة تستقبلني، اتجهت إلى الصالة، وجلست على كنبة الصالة ذات اللون البني، وأمامي طبق فيه دلة قهوة وصحن من التمر، كنت مثل كبار السن لا يقبلون العصر بلا قهوة. صبّت لي أم حسين فنجان قهوة تناولته منها شاكراً، سمّيت بالله، وارتشفت رشفة أولى، عندها سألتني:

ـ لقد سمعت صوتاً فجر اليوم في الشقة التحتانية.

وضعتُ القهوة على الطاولة أمامي، وأجبتها:

ـ يبدو أنه جار لنا جديد للتو عاد من شهر العسل.

ـ ما شاء الله، الله يوفقهم. ما اسمه؟

ـ لا أعرف، فكل ما أعرفه أنه رجل أسود متزوج من سوريّة.

قالت بدهشة بادية لا يمكن محوها:

ـ ماذا؟

ـ قلت لك رجل أسود زوجته سورية.

ـ كيف تزوجها؟ كيف رضيت به؟ وكيف أقنعها؟

ـ لا أدري لأنني لست أباه.

ـ غريبة.

ـ لماذا غريبة؟ هو رجل تزوج من امرأة.

ـ لكنه عبد.

ـ اتقي الله في نفسك يا امرأة، ربما يكون هذا الرجل أفضل عند الله مني ومنك.

ـ استغفر الله، لكنك تعرف بأن العبيد عادة بعيدون عن الله.

ـ خلاص اسكتي.

سكتتْ وسكتُّ، وأنا أشعر بأنها تقسو فعلاً على ذاكرتي، على تاريخي، على كل أشيائي التي مضت، كنت أرى الدهشة والأسئلة تحوم في وجهها، وكنت أدرك حجم العجز الذي تشعر به هذه المرأة إزاء أسئلة لن تجد لها إجابات، ولأنني لا أريد أن ترهق نفسها أكثر، وتدخل في متاهة لن تخرج منها قلت لها:

ـ إياني وإياك إن زارتك زوجة جارنا، أو قمت بزيارتها أن تسأليها مثل هذه الأسئلة. احترمي مشاعرها على أقل تقدير.

كنت أعرف بأن زوجتي مشدوهة من كلامي هذا، لكنني لا أستطيع أن أجامل أحداً في كلام الله عز وجل، كيف ذلك وأنا إمام الحي؟ سأخجل من نفسي حتماً حينما تسأل زوجتي زوجة جارنا مثل هذه الأسئلة التي ليس لها إجابات مقنعة، وهي تعرف بأن زوجها إمام مسجد الحي. مددت فنجان القهوة لأم حسين لتسكب لي فنجاناً آخر، وفي تلك الأثناء بدأت أحدّثها:

ـ إن فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع بلال بن رباح كان في قمة الإنسانية والاحترام، لقد كان بلال عبداً حبشياً، لكنه يعد من أهم رجالات الدين الإسلامي، كيف لا وهو مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم؟

ثم رشفت رشفة من قهوتي، وأكملت:

ـ أتعلمين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتعامل مع أحد وفق أي مفهوم عنصري، كان الناس في نظره سواسية لا يفرّق بينهم شرف ولا نسب ولا عرق ولا لون، كانت التقوى هي المقياس الحقيقي للتفضيل بين البشر.

ثم دلقت أم حسين سؤالها، بعد أن بدأت تندمج مع حديثي:

ـ وهل زوّج النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً من امرأة بيضاء؟

ـ دعيك من هذا، وتأملي كيف كان بلال قبل الإسلام وبعده، فالإسلام رفعه وقدّره، إن الإسلام أُوجِد ليحرر الإنسان من عبوديته للبشر، فكل الناس باختلاف أجناسهم وأعراقهم وأنسابهم تحت مظلة الإسلام متساوون.

كنت أرى التأثر واضحاً على وجهها، هي المرأة التي تخاف الله، لكنها لا تستطيع أن تحبس لسانها، فالنساء هكذا لا يتورعن في مد ألسنتهن في كل مكان. بدت موعظتي هذه أشبه ما تكون بشتيمة أطلقتها لتفسد جو الحديث، فصمتت زوجتي صمت من لا يريد الحديث. طلبت منها أن تسكب لي شاياً، وأخذت الكوب من يدها، وبدأت أشرب، كنت لا أريد أن ابتدئ معها حديثاً لتعرف جديتي في الكلام، وتدرك أهمية هذا الأمر بالنسبة لي على الأقل، لأنه سيء جداً أن يصل إلى مسامع جاري الجديد حديث زوجتي عن نظرتها الدونية له، ليقول فيما بينه وبين نفسه «إذا كنّ زوجات أئمة المساجد بهذا الشكل، فكيف يمكن أن يكنّ زوجات غيرهم من الرجال؟».

أنهيت شرب الشاي، فأرادت أم حسين أن تسكب لي كوباً آخر، اعتذرت منها لأنني أعرف بأن الإكثار من شرب الشاي ليس بالأمر الجيد، وقبل أن تعيد الكوب من يدها إلى الطبق سمعتْ صوت ابننا «حسين» يبكي في غرفة النوم، فوضعت الكوب سريعاً في الطبق، وانطلقت إلى الحجرة، ثم عادت وحسين في يدها، حسين الذي لم يبلغ من العمر سوى عام واحد، أو لأكون أكثر دقة فقد بقي له ثلاثة أسابيع ليكمل عامه الأول، كان هادئاً حينما حملته أمه بين يديها فسألتها:

ـ ماذا به؟

ـ يبدو أنه جائع.

ـ ومتى أرضعتِه؟

ـ الساعة الثانية ظهراً تقريباً.

ـ حرام عليك، أرضعيه.

جلست أمامي، ووضعت حسين في حجرها، كان الطفل يحدق في

السقف من دون وعي، فأخرجت ثديها الأيمن وألقمته إياه، وأنا أنظر إليها، فقالت:

- لا تنظر إلي إنني أستحي منك.
- أنا لا أنظر إلى ثديك، إنني أنظر إلى ابني.
- حتى ولو.

أشحت بنظري عنها، وفي ذهني تدور أسئلتها: فعلاً كيف تزوج هذا الرجل الأسود بزوجته السورية التي ستكون جميلة حتماً؟ وكيف أقنعهم بذلك؟ ربما أقنعهم بالمال، لكنني لا أعتقد بأن المال هو كل شيء، ربما تكون امرأة كبيرة في السن؛ لأن الفتاة الشابة لن تقبل بزوج كهذا، خصوصاً أن السوريات جميلات، وسيجدن بدلاً من هذا الأسود آلاف الشباب البيض ذوي الحسب والنسب والوسامة ليتزوجن منهم. لم يكن يدور بذهني ذلك السؤال الذي يدفعني لأن افترض في جارنا أن يتزوج فتاة سعودية، لأنني موقن بأن امرأة سعودية بيضاء لن تقبل بمثل هذا الرجل الأسود زوجاً، حتى لو انطبقت السماء على الأرض، لكن لماذا لم يتزوج امرأة سعودية سوداء مثله؟. كل تلك الأسئلة كانت تلعق عقلي حتى بدأت أشعر بالدوار، فثمة أسئلة تغدو معها الإجابة مستحيلاً، ولا تقبل التكهنات. تركت أم حسين ترضع حسين وذهبت إلى مكتبتي. أخذت كتاب (العدة في شرح العمدة) لبهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي، وبدأت أتصفحه، كنت أريد الغوص في الأحكام الفقهية التي تتحدث عن زواج العبد من حرّة، وزواج الأمَة من حر، فقد كان يحاصرني جارنا الجديد هذا من كل جهة. صحيح أن زمن الرق قد ولّى، لكنني كنت أود أن أتخلّص من أفكاري هذه بقراءة أي شيء، كنت أشبه رجلاً مصاباً بالجرب يقوم باستخدام أي شيء في سبيل أن يتخلص من تشوّهات جلده. في الأثناء التي كنت أقرأ فيها ذلك الكتاب، وقعت عيني على عبارات كتبها المؤلف، وأسهب في شرحها، قال: «وإن عُتقت المرأة، وزوجها عبد خيّرت في المقام معه، وفراقه، ولها فراقه من غير حكم الحاكم

فإن أُعتِق قبل اختيارها، أو وطئها بطُل خيارها، وإن عتق بعضها، أو عتق كلها، وزوجها حر فلا خيار لها».

أخذت أغوص في هذا الكتاب حتى سمعت أذان المغرب، فقمت سريعاً، وتوضأت كملدوغ وهرعت إلى المسجد. صليت ركعتين، فأقام المؤذن الصلاة، وصليت بالناس ولم أطل في صلاتي، وحين انتهيت سحبت المايكروفون إليّ، وبدأت في التحدث عن حكم زواج العبد من الحرة والعكس، وعرّجت على مفهوم الرق في الإسلام، ثم تحدثت عن انتفاء الرق هذه الأيام، وأن العصبية التي نحملها في دواخلنا تجاه كل من يحمل بشرة سوداء هي من رائحة الجاهلية، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نهانا عنها، كنت أتحدث وأرى الاهتمام البالغ في أعين المصلين، فشعرت بأنني أثّرت فيهم، وبدأ يتنامى في داخلي ذلك الشعور الذي يعقب تحقيقنا انتصار من الانتصارات.

خرجت من المسجد وجاري المسن «أبو أمجد الثويني» يسير بجانبي بتؤدة، كان يشعر بأنني كنت أقصده بكلمتي هذه، فقال لي عندما ابتعدنا قليلاً عن المسجد:

ـ يا شيخ، أتمنى ألا تفهمني خطأ، فلم أكن أقصد بكلامي عن جارنا الجديد عصر اليوم أية أذيّة، أبداً لا والله.

ـ يا أبا أمجد، أنت رجل عاقل، ولن أفكر بك بهذه الطريقة، لكنني أحببت أن أقول هذه الكلمة ليستفيد الناس.

ـ جزاك الله خيراً.

كنا نتحدث ونحن نسير إلى البيت، وعندما اقتربنا من بيتي ودّعني أبو أمجد، وذهب إلى منزله، فقد كان بيته يبعد عن بيتي مقدار بنايتين فقط، وبدوري اتجهت إلى المنزل، وحينما أردت الصعود إلى الطابق الأعلى وجدت جاري الأسود الجديد يقبع في سيارته، وهو يرتدي ملابس بيتية. تقدمت منه، وطرقت عليه زجاج السيارة، وكان فيما يبدو وكأنه استيقظ من

النوم تواً، فآثار النوم كانت بادية على محياه كدهشة أولى، أخفض زجاج السيارة، فقلت له:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
- وعليكم السلام، أهلا.
- أنا جارك الذي يسكن في الطابق العلوي، ويكنونني بأبي حسين.
- أهلاً أهلاً.

همّ بفتح الباب، لكنني دفعته لكي لا يفتحه، وحلفت عليه ألا ينزل من سيارته. باركت له زواجه، ورحبت به، ودعوت له، فعرفني بنفسه قائلاً:

- أنا عبده غطفان.

وبدأنا نتحدث بطريقة ودية كرجلين التقيا في طائرة، وأرادا أن يقطعا الوقت بالثرثرة، أخذت بعضاً من أخباره، ودار حديثنا في المنطقة التي نجيد فيها اللعب حينما نقابل أشخاصاً لا نعرفهم، وفي النهاية رحبت به مرة أخرى، ودعوته إلى العشاء، لكنه رفض، فألححت عليه في ذلك قائلاً:

- أنت ضيف علينا، ولك واجب عندنا.
- الله يسلمك، دعها لوقت آخر.

حاولت فيه مراراً وتكراراً، لكنه اعتذر بشدة.. كنت ألمح النقص في عينيه كمعلم يحاول دعوة أحد طلابه لتناول العشاء معه.. كنت أرى في عينيه عدم تصديق لما كنت أقوله، لذا لم يكن يأخذ دعوتي له إلى العشاء على محمل الجد، كان يعتذر بطريقة لطيفة، لكنني في قرارة نفسي كنت مدركاً بأنه لم يكن يصدقني، فالأشخاص الذين لا يثقون في أنفسهم لا يمكن أن يثقوا بالآخرين إطلاقاً. كررت دعوتي له أكثر، لكنه اعتذر بشدة أكبر، وعندما رأيت اعتذاره هذا استأذنته في الذهاب، وصعدت إلى بيتي.

طرقت الباب لتفتح لي زوجتي، دلفت إلى الصالة، ووجدت حسيناً يلعب في وسطها غير قادر على المسير، أخذته في حجري، وبدأت أداعبه، وألعب معه، فجاءتني زوجتي، وسألتني:

ـ هل أصنع لك شيئاً لتأكله؟

ـ شكراً، فأنا لا أشعر بالجوع.

ـ كلمتك قبل قليل التي ألقيتها في المسجد جميلة، أتمنى ألا يكون قد أغضبك كلامي.

ـ أبداً، لكن جارنا المسن أبو أمجد تحدث معي عصر اليوم، وأثّر في كلامه، أخذ يصف جارنا بالعبد، وأنا لا أعلم ما سر الفوقية التي يراها البيض في أنفسهم؟

ـ

ـ الغريب أن هذا المسن لا يعجبه أحد، حتى جيراننا البيض ينظر إليهم بدونية وكأنه أحد الملائكة!

ثم كمن تذكر شيئاً أضاعه قلت لها:

ـ بالمناسبة قابلت جارنا الجديد قبل قليل عند أسفل البناية، ودعوته إلى العشاء لكنه اعتذر.

فأشارت لي برأسها تحثني على الحديث أكثر، فقلت:

ـ إنه شاب لطيف يدعى «عبده غطفان».

(اليوم التاسع)

«عائشة- أم عبده غطفان»

منذ أن استيقظت صباحاً وقلبي لا يحترم المسافة الفاصلة بين القدر وروح الأمهات. أشعر بأن شيئاً ما قد حدث، لا أدري بالضبط ما هو؟ ولا أريد أن أتكهن بأي شيء، فأنا لم أسمع صوت حبيبي عبده منذ ثلاثة أيام، منذ ذلك اليوم الذي قال لي فيه «سأكون عندك بعد ثلاثة أيام»، فهل يمكن أن يكون قد حدث له مكروه؟.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً، وأنا لا أعرف استخدام الهاتف المحمول لأتصل به، فعجوز في مثل سني لا يمكن أن تعرف كيف تستخدم الهاتف المحمول حتماً، ومن المخجل إيقاظ حسينة من النوم لتتصل به، مع علمي بأنه لن يكون مستيقظاً في هذا الوقت، فالمتزوجون حديثاً يحبون أن يسهروا كثيراً. فمنذ أن جاءني قاسم البارحة، وأنفه ينزف دماً بعد عراكه مع ذلك البدوي والخوف يتسلّقني على عبده، فإن كان قاسم بين يدي وأمام عيني وجاءني بأنف نازف، فماذا يمكن أن يحدث لعبده وهو بعيد عني؟.

كان الشر في داخلي يصهل ويركض ولا يتعب، ولو بقيت على هذه الحالة سأجن حقاً، لابد أن أقوم بفعل شيء ما لأستطيع الهرب من خيالاتي المرعبة هذه، بدلت ملابسي سريعاً، ووضعت طرحتي القديمة على رأسي، وفتحت باب البيت، واتجهت لأم شوعي، فهي التي ستخرجني من هذا الوحش الكاسر من الشؤم. كنت أعرف بأنها ستكون مستيقظة في هذه اللحظة، فليس أمام المسنات إلا الاستيقاظ مبكراً. طرقت عليها الباب ودخلت، ونادراً ما

أجد باب بيتها مغلقاً، هي التي تعيش في شبه وحدة، وجدتها في طرف حوش بيتها تستظل بالجدار، وأمامها قهوتها، وطبق فيه بعض التمر، رحبت بي حين رأتني بحميمية المسنات، تلك التي تشعر من خلالها بأنك طفل على الرغم مما تحمله على ظهرك من السنين. جلست أمامها، فسألتني عن حالي، ثم سألتني عن حسينة، ثم عن قاسم، وفي الأخير سألتني عن عبده. كانت تسأل وأنا أجيب بآلية من يشعر بالرعب، فثمة لحظات لا تملك معها إلا أن تجيب ببرود كحالي الآن تماماً، قالت:

ـ ألن تزوجي حسينة يا أم عبده؟

ـ لا تزال صغيرة على الزواج يا أم شوعي.

ـ ليست صغيرة فنحن تزوجنا في مثل عمرها، أو أقل بقليل.

ـ الزمن تغيّر يا أم شوعي، تغير كثيراً.

بقيتْ صامتة قليلاً، أخذتْ ترتشف من قهوتها بهدوء، وأنا أحدق في فنجان القهوة بين يدي، ولا رغبة لي في الحديث، فسمعتها تقول:

ـ سلامات، لقد سمعت بأن قاسماً تشاجر البارحة مع «سعيد البدوي». ماذا حصل؟.

ـ لا أدري بالضبط، فأنت تعرفين بأن الذكور لا يخبروننا بالحقيقة، فكل ما أعرفه بأن «سعيد البدوي» وجماعته من البيض يحسبون أنهم ملوك.

ـ نعم، نعم وأنت تذكرين أمه كيف كانت تعرض عن الحديث معنا؟

ـ ماذا تنتظرين من أناس هكذا؟ وهم لا يعلمون بأننا نراهم كالكلاب.

ـ أتمنى ألا يكون قاسم قد أصيب بمكروه.

ـ الحمد لله مرّت بسلام.

ثم عادت لتكون أكثر لطفاً لتغيّر مجرى الدم الذي كان يسيل في حديثنا، فقالت:

ـ متى سيأتي العريس؟

وكأنها وضعت وسط قلبي جمرة بسؤالها هذا، فلم يكن مني إلا أن

تنهّدت، فنحن نتنهّد إذا لم نستطع أن نجد رداً مقنعاً لما يقوله الآخرون، وأجبت:

ـ والله يا أختي إن قلبي يؤلمني عليه.

ـ خير إن شاء الله.

ـ منذ ثلاثة أيام لم أسمع صوته؛ فقد أخبرني أنه سيصل بعد ثلاثة أيام، وبالتحديد سيصل اليوم، لكنه لم يتصل.

ـ لا تخافي، ربما يكون مشغولاً مع عروسه، وأنت تعرفين شباب هذه الأيام.

ـ الله يحفظهم.

كنت ارتشف من قهوتي التي ناولتني إياها أم شوعي. لم يكن لها أي طعم، كنت أشرب بصنميّة لا أطيقها مثل أن تجبرني حسينة على تناول دوائي الذي لا أستسيغه، في تلك الأثناء قالت لي أم شوعي:

ـ ما دام موضوع عبده قد فُتح أود أن أسألك، فنحن جيران منذ زمن بعيد.

ـ تفضلي يا أم شوعي؛ فأنت نعم الجارة.

ـ لماذا زوّجتِ عبده فتاة غير سعودية؟ فبنات بلدنا يملأن البيوت.

ـ ما لك عليّ يمين يا أم شوعي إنني حاولت فيه كثيراً أن يعدل عن زواجه هذا، لكنك تعرفين عبده منذ أن كان صغيراً، فرأسه يابس.

ثم أكملتُ بعد أن ارتشفت رشفة من قهوة أم شوعي:

ـ قلت له: بناتنا لا ينقصهن شيء، وهن نعم البنات، لماذا لا تتزوج منهن؟ فتصوري ماذا قال!

ـ ماذا؟

ـ قال لي: أنا أحبها يا أمي، ولن أتخيل حياتي بدونها!

ـ وكيف أحبها؟

ـ لا أعلم كيف. هو كما تعرفين كان كثير السفر إلى سوريا بعد تقاعده من العسكرية، ولا أدري كيف عرفها؟.

ـ إحساسي يقول بأنه يحب اللحم الأبيض ليس إلا. فالمسألة ليست مسألة أنه أحبها.

ضحكت على كلامها وقلت:

ـ شبابنا لن يجدوا أفضل من بناتنا اللاتي يملكن ألوانهم ذاتها، وطبائعهم ذاتها، ولن يتذوقوا مرارة اللحم الأبيض إلا حينما يتذوّقونه.

ـ صدقت يا أم عبده، فستكبر رؤوس البيضاوات على أزواجهن إن كانوا سوداً.

ـ ما أقدر أقول إلا الله يوفقهم ويسعدهم.

بقيت عندها قرابة الساعة، أو تزيد قليلاً، لا أدري بالضبط كم بقيت بالتحديد، لكنني استمتعت حقاً بحديثها، فأم شوعي تعرف جيداً كيف تنتشلني من همومي، فهي رفيقة العمر والمكان. عدت إلى منزلي، وعندما دخلت عاد هاجس الخوف على عبده ليسكن روحي كدكتاتور مخلوع لا يمكن أن يتنبأ بالمستقبل، جلست في الصالة أتخيل ماذا يمكن أن يحدث لعبده إلى أن سمعت أذان صلاة الظهر. كان الأذان في ذلك الوقت بالنسبة لي يشبه طوق نجاة، ذهبت، وتوضأت، وصليت، وأكثرت من الدعاء بأن يحفظ الله لي عبده وزوجته التي كنت أريد أن أراها فقط. وأم شوعي لا تعلم بأنني كذبت عليها في نقاشي معها حول زواج عبده، فأنا أدرك جيداً بأن الغيرة تمزق قلبها، لأن ابني تزوج من فتاة بيضاء، فلو تزوج أحد أبنائها من فتاة بيضاء فستتباهى به كثيراً بيننا، وستعتبر ذلك انتصاراً لها لا محالة.

قمت من فوق سجادتي، واتجهت إلى غرفة حسينة. كانت نائمة بهدوء ككل المراهقات اللاتي ينمن بهدوء أيضاً. حاولت إيقاظها. في البداية لم تستجب لي، لكنها بعد لحظات رفعت رأسها، ونظرت إليّ، وقالت: «حسناً يا أمي سأقوم الآن». ذهبت إلى قاسم النائم في مجلس الرجال، وحاولت إيقاظه

هو الآخر، لكنه لم يستيقظ، حاولت أكثر، لكنه كان كالميت، كنت أريد رؤية أحدهم ليبدد عني وحشة خيالاتي التي لا تأتي فرادى، إن الخيالات المرعبة لا تعترف بالوحدانية، إنها تأتي مجتمعة كالجيوش. عدت من المجلس، وجلست في الصالة فمرّت حسينة من أمامي عائدة من الحمام بعد أن غسلت وجهها، فسألتني:

ـ هل أقوم بصنع الغداء؟

ـ قبل أن تصنعي الغداء اتصلي بعبده، أريد أن أسمع صوته.

ذهبتْ إلى حجرتها لتأتي بهاتفها المحمول، فبدأ الألم يتصاعد من أقدامي إلى أن استقر في بطني، كنت خائفة فعلاً، ولم أكن أريد أن تتنبه حسينة لهذا الأمر، حاولت كظم هذا الخوف والألم ككل أم لا تريد أن تكون ضعيفة في نظر أبنائها. جاءت وهاتفها المحمول في يدها يرن على عبده، وبعد لحظات جاء صوت عبده عبر مكبر الصوت في هاتف حسينة بعيداً وثقيلاً، فقد كان نائماً حتماً. قال:

ـ أهلاً حسينة.

ـ أنا أمك يا ولدي، ولست حسينة، كيف حالك؟

عدّل عبده من هيئة صوته حينما سمع صوتي، وقال:

ـ أهلاً يا أمي، أنا بخير كيف حالك أنت؟

ـ الحمد لله. أين أنت؟ لم تكلمني منذ فترة.

ـ أنا موجود وفي أتم صحة، وأعتذر منك يا أمي لقد انشغلت بالسفر من سوريا، أنا الآن في عمّان.

ـ وكيف هي زوجتك؟

ـ إنها بخير، وهي مشتاقة لكم كثيراً.

ـ بلغها تحياتي. متى ستصلان إلى السعودية؟

ـ الليلة إن شاء الله، حينما نستيقظ، ونتناول طعام الغداء سنتحرك إلى السعودية.

ـ حسناً سننتظركم للعشاء، تصلون بالسلامة.

ـ بإذن الله. بلغي تحياتي لحسينة وقاسم.

أغلقت حسينة الخط، وبدأ الألم الذي كان يسكن بطني في التلاشي كقطرة ماء وُضعت في صاج تحته جيش من اللهب، شعرت بالاطمئنان والهدوء، فنظرت إلى حسينة، وقلت: «اذهبي واصنعي لنا الغداء أمامنا عمل كثير هذه الليلة». كنت سعيدة كمراهقة بوصول عبده، فاتجهت إلى المجلس مرة أخرى وأيقظت قاسم الذي لا يزال كجثة، وأخبرته أن عبده سيصل الليلة، ولابد أن يستيقظ؛ لأن أمامنا عمل كثير. لم أخرج من عنده إلا بعدما اعتدل في جلسته، وتأكدت بأنه لن يعود إلى النوم، وذكرني ذلك بتلك الأيام التي كنت أوقظه فيها للذهاب إلى المدرسة، ولا أذهب عنه إلا بعد أن يجلس، عندها أتأكد بأنه لن ينتظر خروجي من الباب ليعود إلى النوم مرة أخرى. دخلت على حسينة في المطبخ، وكان هاتفها المحمول معلقاً في عنقها كالعادة، وطلبت منها أن تتصل بصالحة، لأنني أريدها في أمر ضروري. اتصلتْ بها، ووضعت المكالمة على مكبر الصوت ككل مكالماتي التي أطلبها منها، فردت صالحة. وسألتها عن صحتها، وصحة أبنائها وزوجها، وأخذت أثرثر معها قليلاً، فالفرح عادة ما يدفعنا إلى الحديث والثرثرة. بعد لحظات سألتها:

ـ أين زوجك؟

ـ في العمل يا أمي. ماذا هناك؟

ـ لا شيء لكن عبده وزوجته سيصلان الليلة، وسيتناولان العشاء عندي، وتعرفين بأن قاسم لا يُعتَمد عليه، فإذا جاء زوجك، تعالي معه لتساعديني، ولأعطيه مبلغاً من المال ليقوم بشراء ذبيحة للعشاء.

ـ إن شاء الله.

وأغلقت حسينة الخط مرة أخرى، بعد أن دلقت على صالحة أوامري...

كثيرة هي الأحداث التي مرّت في رأسي بعد الانتهاء من هذه المكالمة، حتى أنني لم أرد على حسينة حينما قالت: «كل هذا الاهتمام بعبده أم

بزوجته؟»، وأخذتْ تضحك، هي التي طرحت سؤالاً حقيقياً، فلماذا كل هذا الاهتمام؟ هل هو فرح بعبده؟ أم بزوجته؟ أم لكي لا نصغر في عيني تلك الفتاة البيضاء الجميلة؟.

جاء العصر فنقدتُ فيه حسين مبلغاً من المال ليذهب لشراء ذبيحة، ويهتم بأمر العشاء، وجاء المغرب، ونحن منهمكون في تحضير الأطباق ودعوة الجيران، وجاءت بعد ذلك صلاة العشاء، والبيت يغص بالمدعوين، وجاء عبده وزوجته لأحتضنهما، أنا التي لم أستطع حضور زواجهما، أو ربما لأن عبده لم يلح عليّ كثيراً في الحضور بحجّة أنني امرأة كبيرة في السن، والسفر إلى سوريا سيتعبني. لقد كانت زوجته جميلة حقاً، تختلف كثيراً عن كل الصور التي رأيتها لها مع عبده، لقد ظلمَتْها صورها بشدة، وبدأت أشعر حيالها بالغيرة والاهتمام، حتى إنني شتمت قاسم حينما اقترح عليّ بعد انتهاء العشاء أن أجعله يرى زوجة عبده، فهو لم يرها في هذه الليلة حتى غادرا إلى بيتهما قرابة الساعة الرابعة فجراً، ولا أدري هل رآها حينما ذهب معهما إلى البيت ليساعدهما في تنزيل حقائب سفرهما، وكل تلك الأشياء التي امتلأت بها سيارة عبده؟

(اليوم الثامن)

«محمود مرزية»

حين استويت في فراشي تأكدت بأنني مشرد فعلاً. كان منظري مثيراً للشفقة، فليس هنالك من سوء أكثر من أن تشعر بعزوبيتك، وأنت في بيتك وامرأتك على بعد أمتار منك. أشعر بأسى بالغ على حالي. لماذا كل هذا؟ وهل استحق فعلاً أن يحصل لي هذا كله؟، ربما لأنني رجل لم يكن يملك الخيار في أشيائه، وربما لأنني رجل كان الآخرون هم من يصنعون له حياته، ويقررون عنه. ربما لهذا كله وصلت حياتي إلى هذه المرحلة. فأن تكون أنت من يصنع نفسك بنفسك فحتما لن تنام وحدك كمشرد، ولن تشعر بأن الآخرين يسرقون منك آراءك، وأحلامك، وأوهامك، وقناعاتك. نظرت إلى شاشة هاتفي المحمول بجانبي، فكانت الساعة تشير إلى السادسة عصراً، وكنت أتقاطر جوعاً. قمت كسجين وذهبت إلى المغسلة، وغسلت وجهي جيداً. كنت أفركه بشدة، وكأنني أريد فرك الخزي الذي يتعلق بوجهي كندبة، بقيت أنظر في المرآة طويلاً: هل أذهب لخيرية وأطلب منها أن تصنع لي شيئاً آكله؟ أم أذهب إلى المطبخ وأصنع ما يساعدني عليه وعيي أو تساعدني عليه ذاكرتي؟

مكثت أنظر في المرأة أمامي لفترة طويلة، كنت متردداً في الذهاب، فنومي البارحة في مجلس الرجال وحدي أشعرني بأنني غير قادر على التماسك أمام جبروت وطغيان هذه المرأة، خيرية التي تتسلط عليّ؛ لأنها تشعر بأنني أقل منها في كل شيء، وما مقدار البشاعة التي يمكن أن تتلبّسك إذا شعرتْ زوجتك بأنك أقل منها بكثير. فتحت الباب الفاصل بين قسم

الرجال والنساء في البيت، كانت الصالة خالية من كل شيء، وهدوء البيت يبعث على الخوف والريبة. اتجهت إلى غرفة النوم، كنت أريد تفتيت هذه الوحشة، ففتحت الباب، لكنني تفاجأت بأنها كانت خالية أيضاً، بدأ البيت أمامي يتحول إلى مسجد في وقت لا تقام فيه الصلاة، خال من كل شيء ما عدا تلك الدعوات المعلقة في السقف. لم أكن أسمع صوت التلفاز، لكنني مع ذلك اتجهت إلى غرفة الجلوس ولم أتفاجأ من خلوّها، فأين ذهبت خيرية؟ وهل تركت البيت حقاً؟. لا أدري لماذا شعرتُ بالخذلان والخيبة؟

دلفت إلى المطبخ أريد صنع أي شيء لآكله، واكتشفت فجأة بأنني لا أعرف صنع شيء مثل طفل لا يجيد القراءة وجد نفسه فجأة بين مجموعة من التلاميذ في فصل دراسي. أخذت أحدّق في الأشياء من حولي، فدوماً ليس أمامنا إذا لم نعرف أمراً سوى التحديق في الأشياء، كنت أنظر إلى الأواني المنزلية دون معرفة ماذا يمكنني أن أفعل، فعدت إلى المجلس، وتناولت هاتفي المحمول وطلبت رقم خيرية. لم ترد على مكالمتي بعد أن لهث الهاتف عندها كثيراً، فبردتْ رجلي بعد ذلك مثل شاب للتو نجا من حادث سير. أخذت حاجياتي التي كانت متناثرة حول مكان نومي في المجلس، وخرجت من الباب.

شعوري بالجوع ضاعف عليّ إحساسي بالمرارة والخيبة، اتجهت مباشرة إلى البوفية. كنت بحاجة ماسة لأن آكل لأخرج من ضآلتي، فالجوع يشبه تناول جرعة أفيون يفقدنا شيئاً من تماسكنا. عاودت الاتصال بخيرية مرة أخرى أثناء مسيري، وبعد أن رنّ الجوال طويلا وصلني صوتها مملوءاً غيظاً، قالت:

- نعم.
- أين أنت؟
- عند بيت أمي.
- ومتى ستعودين؟

ـ لا أدري، ربما بعد يوم أو يومين، أو ربما بعد شهر، منذ متى وأنت تهتم بمثل هذه الأمور؟

ـ أنت زوجتي قبل كل شيء.

ـ احلف!

ـ

ـ أتمنى ألا تتصل بي مرة أخرى، وحينما أفكر في العودة إلى البيت سأعود، حاول أن تهتم بشؤونك.

وأغلقتْ الهاتف.

صعقتني خيرية بخيبة أخرى. كل هذا لأنني كنت في حياتها أشبه بلاعب الاحتياط الذي لا وظيفة له غير أن يملأ الفراغات فقط، بدأ الندم يتسرب إلى داخلي كخيط من نار، فقد ندمت على ارتباطي بهذه المرأة الخائبة، فالمرأة المصابة بلعنة ما لا تتورع في زرعها في نفسك إن استطاعت.

كان المغرب على مقربة مني في أثناء توجهي إلى البوفية لأجد لي ما آكله، ومن حسن حظي أن البوفية لم تكن مزدحمة بالأطفال السود كما هي العادة، طلبت من العامل (ساندويتشاً) وكوب شاي، جاءني بهما، فافترستهما ولم ينته جوعي، فطلبت (ساندويتشاً) آخر وأكلته، وطلبت ثالثا لكنني لم أنهه. في تلك الأثناء سمعت صوتاً في الخارج من مجموعة من صبيان الحارة ينطلقون شرقاً باتجاه الهضيبة، فخرجت من الباب، ووجدت صبياً أمامي في الثالثة عشرة من عمره تقريباً، فسألته:

ـ ماذا يحدث؟

ـ يقولون بأن «قاسم غطفان» تشاجر مع «سعيد البدوي» في الملعب.

دفعت الحساب إلى العامل سريعاً، وانطلقت باتجاه الهضيبة حيث الملعب الذي يلعبون فيه الكرة عصراً، وأنا لا استبعد صدق هذا الخبر؛ لأن «سعيد البدوي» يشعر بأنه يملك الناس والأرض هنا، ويحسب أن بشرته البيضاء سبب في أن يكون كل السود هنا أجراء له.. ليست هذه هي المرة

الأولى التي يتسبب فيها «سعيد البدوي» في مشاجرة بين السود والبيض في الحارة، فعلى الرغم من كبر سنه الذي تجاوز الثلاثين عاماً إلا أنه يملك عقل مراهق، فأنت حينما تقف أمامه ستدهشك سذاجته حتماً. كنت أركض بأقصى ما أستطيع، ولم تمض سوى دقيقة حتى وصلت إلى المكان، وتبين لي ما حدث، لقد كان ثمة تجمّع مهول جداً من الناس، مجموعة منهم يمسكون بقاسم غطفان ويبعدونه عن التجمهر، ومجموعة أكبر تمسك بسعيد البدوي الذي كان يصرخ بأعلى صوته: «أتركوني لأربي هذا العبد، فهل وصل به الحد أن يتطاول على أسياده؟!»، ثم صرخ على قاسم غطفان الذي كان يبتعد عنه بمسافة كافية: «والله لأربيك يا عبد!».

كان «سعيد البدوي» يحاول جاهداً التخلص من المجموعة التي تمسك به، وهو ينظر إلى «قاسم غطفان» الذي كانت تسيل الدماء من أنفه، وهو يغالب تنفسه بصعوبة، فجئت إلى قاسم، وسألته: «هل أنت بخير؟». لم يرد عليّ، وأخذ يحدق في «البدوي» والغضب يتقاطر من عينيه كرصاص مذاب، سحبته من جذعه وطلبت منه الذهاب إلى المنزل، وأنا أحاول تهدئته قائلاً:

ـ لا عليك، هو كثير الصراخ، اذهب الآن إلى المنزل واغتسل، وإن كان رجلاً فليحاول الاقتراب منك.

في أثناء عودتنا وجدت صبياً أعتقد بأنه أحد أحفاد «أم شوعي»، فسألته عن سبب المشاجرة، فسرد لي ما حدث: لقد كان قاسم غطفان يلعب مراناً مع مجموعة من شباب الحارة ـ وكنت أعرف بأن قاسم غطفان لاعب رائع ـ وفي أثناء لعبه بدأ يراوغ كل اللاعبين، ويسخر منهم، وكان سعيد البدوي خارج الملعب يتابع اللعب، فاغتاظ من سخرية قاسم غطفان بمن يلعب معهم، فصرخ به: «هكذا هم السود لا يجيدون إلا الركض والتحميل»، فلم يرد عليه قاسم غطفان في بداية الأمر، وبدأ يسخر ممن يلعب معهم أكثر فأكثر، ويبدو أن ذلك سبب غيظاً أكثر لسعيد، وبعد أقل من عشر دقائق سجّل قاسم غطفان هدفاً، فانطلق إلى الجهة التي يتابع فيها سعيد البدوي اللعب،

وأشار إلى الأرض بحركة استهجن منها سعيد البدوي، وعند انتهائه من هذه الحركة بصق على الأرض أمام سعيد البدوي، وتركه وذهب، فلم يكن من البدوي إلى أن انطلق إليه، واشتبكا في شجار عنيف.

كنت أسير إلى المنزل، واستمع إلى حديث هذا الصبي الذي انتهى من سرده عليّ، كان المغرب قد غشانا والناس عائدون إلى بيوتهم، ففي حي المنتزه ينبغي لك إن كنت تملك خصلة البياض، التي لا تتواجد عند أغلب أهل الحارة، ألا يدخل عليك الليل وأنت تتسكع في الطرقات، فحي المنتزه يعلّمك كيف تكون الحياة حياتين؟ فحينما يجنّ الليل تنتهي واحدة لتبدأ أخرى، إنهما حياتان تختلفان عن بعضهما بالمطلق.

وصلت إلى المنزل، ولم يكن لي رغبة في الدخول، وقفت أمام باب البيت أتأمل جدار بيت جارنا الذي أمامنا، وأفكر: بماذا تفكر خيرية الآن؟ وما الذي تنوي فعله معي؟ وهل هي سعيدة مع أمها؟. كنت أشعر برغبة عارمة في رؤيتها الآن، لأنني بدأت أحس بأنني سأخسرها. كنت أهذي مع نفسي كمريض، وحين عدت إلى رشدي خجلت من نفسي كثيراً، فهل يمكن أن تبعثرني امرأة، كل ما قامت به أنها ذهبت إلى بيت أمها؟ حاولت أن أتعاطى مع هذه المسألة ببساطة، وحاولت أن أتناسى ما أحدثته خيرية في نفسي. فاتجهت إلى عزبة «حسن خبزة».

كنت على ثقة بأن «خبزة» لم يستيقظ من النوم بعد، لذا لم استغرب خروجه لي بعد أن طرقت الباب مراراً والنوم يغسل وجهه، نظر إليّ بعينه اليمنى بينما اليسرى مغمضة، ولم يبادرني بأية كلمة؛ إنما تركني واقفاً عند عتبة الباب، واستدار عائداً إلى العزبة مرة أخرى فلحقت به. اتجه إلى الحمام، وبقيت أنا في تلك الحجرة التي يغدو معها التقزز والقرف مبتذلاً، كنت أسمع صوت خرير الماء حينما كان حسن يغسل وجهه، وأنا أتأمل منفضة السجائر المرمية وسط الحجرة وقد امتلأت بأعقاب السجائر، حرضني ذلك على

التدخين فأخرجت سيجارة، وبدأت أدخن، وحسن منهمك في غسل وجهه، وعندما دخل علي الحجرة بادرته بقولي:

ـ لقد تشاجر اليوم «قاسم غطفان» و«سعيد البدوي» في الملعب.

ـ لماذا؟

ـ يقال بأن البدوي شتم قاسم، فلم يكن من قاسم إلا أن تحيّن فرصة، وبصق على الأرض أمامه، فتشاجرا.

ـ ومن الذي انتصر؟

ـ البدوي أدمى أنف قاسم.

ـ يستاهل!

لم أُرِد إغاظته أكثر، لأنني كنت بحاجة له للوقوف معي في محنتي مع خيرية، فهو يملك رأياً لن تترد أمامه خيرية إطلاقاً. فحاولت أن ابتدئ معه الموضوع، لكنني تجابنت، وأنا لا أعرف ما سر جبني أمام «خبزة» بهذه الطريقة. لكنه سألني:

ـ أين ثلاجة الشاي؟

وجدتها فرصة في أن أفاتحه في الموضوع فقلت له:

ـ خيرية ليست في المنزل.

ـ أين هي؟

ـ استيقظت عصراً، ولم أجدها. وحينما اتصلت عليها أخبرتني بأنها عند أمك.

ـ بسبب ما حدث البارحة؟

ـ أعتقد ذلك.

وحينما لم يتحدث في الموضوع أكلمت:

ـ تقول بأنها ربما تبقى عند أمك لفترة طويلة.

ـ

ـ وأنا أحتاجها في المنزل كثيراً.

-

- أتمنى أن تتدخل في الموضوع.

- سأرى، لكن قم الآن، ورتّب العزبة وحينما تنتهي اذهب، واشتر لي شيئاً آكله.

فرحت كثيراً بردّه هذا، فاندفعت في ترتيب العزبة. كنت أشعر بسعادة لا مثيل لها، فقد كان تنظيف العزبة في هذا الوقت يشبه وجهات النظر التي نريد من خلالها إقناع أحدهم بأمر ما، كنت أعمل بجد لكي يرضى «خبزة» عني، ويأمر أخته بالعودة إلى المنزل، لأنني أعرف جيداً بأن خيرية لا يمكن أن ترفض ما يقوله لها حسن إطلاقاً.

كنت أتمنى دوماً أن يهبني الله شخصية قوية مثل خبزة، لكنني حينما أقف أمامه وأتحدث معه لا أدري ما السبب وراء تلاشي تلك الأمنية. كنست العزبة، وأعدت ترتيب المفارش على الأرض، وجمعت المنافض الممتلئة بأعقاب السجائر ورميتها في الخارج، وأعدت توزيعها على أرجاء العزبة، كل هذا كان على مرأى من حسن، وهو يستند إلى أحد المساند، ويدخن سيجارة على لحم بطنه وهو يتابع التلفاز. أخذت النقود التي نقدني إياها حسن حينما انتهيت من الترتيب، واتجهت إلى المطعم القريب، وفي داخلي أمل بأن يأمر حسن أخته خيرية بالعودة إلى المنزل، ابتعت له شيئاً ليأكله، وعدت إلى العزبة، حيث كان الليل أو الغيّ لا يزال في أوله.

(اليوم السابع)

«خيرية»

عندما انتهى من تناول الغداء، سألته:

ـ أين ثلاجة الشاي؟ لم أرها في المطبخ.

ـ يووه .. لقد نسيتها في عزبة حسن.

ـ كم مرة تنساها؟ وكم مرة أطلب منك ألا تنساها؟

ـ نسيتها، وانتهى الموضوع، ماذا تريدين بكلامك هذا؟

ـ أريدك أن تقوم الآن، وتغسل يديك، وتذهب لتأتي بها؟

ـ الآن! إنه وقت الظهيرة.

ـ نعم الآن، لا يهمني الوقت، يجب أن تذهب وتأتي بها.

قام متأففاً. غسل يديه وهرع إلى الباب وأنا أسمعه يتمتم بكلام لم أتبيّنه، ولم أكن أطمح يوماً لسؤاله عن تمتماته التي يكثر من دلقها خلف أذنيّ عندما يعبرني، فمحمود بالنسبة لي يشبه الحائط تماماً، أقف خلفه لأختبئ وأفعل ما أريد، فمنذ زواجي منه وأنا لا أشعر بأنني أزداد أنوثة، فثمة بعض الرجال يصبح القرب منهم أشبه بالاقتراب من كومة حطب مشتعلة لا تزيدنا إلا تيبّساً كمحمود تماماً، هذا الرجل الذي دخل حياتي فجأة، ولم يكن مني إزاء هذه المفاجأة إلا أن أقف مندهشة لعدة سنوات، فمنذ ذلك اليوم الذي جاءني فيه حسن ليقول: «لقد تقدّم صديقي محمود لخطبتك!»، وأنا أشعر بأن أيامي لم تعد ملكي، بدأت تنسل من يدي كثلج بدأ يذوب، ولم أعد مسيطرة عليه إطلاقاً... منذ ذلك الحين وأيامي متشابهة، وما أبشع تشابه الأيام فعلاً، كل

يوم يسير على خطى سابقه، فبعد صراخي على حسن برفض محمود، وإصراره الفظيع على إتمام هذا الزواج، استحالت حياتي إلى صرخة عظيمة جداً. الفرق أن حسن قام بما يريد بينما محمود لم يكن يجرؤ على القيام بذلك.

صرت أحترم حسناً، لأنه وقف أمام رفضي بجبروت الذكور هنا، فأشعرني من خلال ذلك بأنني أنثى. صحيح أن نفسي تأذّت كثيراً من ذلك، لكنني احترمت حسناً لأنه كان يملك مبدأ، بغض النظر هل كان هذا المبدأ صحيحاً أم لا؟ بينما كنت أشعر مع محمود بأنني أقف أمام حائط ورقي، فمنذ تلك اللحظة شعرت بأنه لا يستحقني. أصبحت لا أحترمه ولا ألقي له بالاً؛ لأنني أستطيع أن آمره بكل شيء في أي وقت أشاء، أنا التي لم أخلق لآمر أحدهم، أنا التي خلقت لأتزوج من أحبته وأحبني، والمرأة تحترم من يجابه رفضها بقسوة، لكنها لا يمكن أن تحترم ذلك الخانع الذي تشعر من خلاله بهزيمتها. كنت أتوغل في نفسي منذ خرج محمود وعاد وفي يده ثلاجة الشاي، فوضعها أمامي وقال: «هذي هي، ارتحت الآن؟». نظرت إليه بطرف عيني، وهي نظرتي له في العادة، كان يرسم على شفتيه ابتسامة بلهاء مثل تلك التي يقدّمها لنا العمال الأجانب الذين لا يحسنون النطق بالعربية، تلك الابتسامة المعلقة بوجوههم بعد كل جملة مكسّرة يدلقونها على مسامعنا ليقيسون بها ردود أفعالنا. لم أرد عليه، وأخذت في ترتيب السفرة وحملها إلى المطبخ، كان ينظر إليّ كطفل، وكنت حريصة على أن أبين له مدى وقع بلاهاته عليّ، تركته، وذهبت إلى المطبخ، وسمعت صوته بعدما اتجه إلى غرفة النوم يقول: «إذا انتهيت من عملك أريدك في غرفة النوم».

كانت جملته هذه تثير غبار اشمئزازي، وكنت دوماً أحاول أن أناكفه في مثل هذه الأمور، فحين غسلت الأطباق، وانتهيت من ترتيب المطبخ، لم أذهب إلى غرفة النوم، إنما ذهبت للجلوس أمام التلفاز، وأخذت في متابعته، وبعد قرابة نصف ساعة كان يقف على باب الغرفة، ويسألني:

ـ ألم أطلب منك بعد الانتهاء من غسل الأطباق أن تأتي إلى غرفة النوم؟

ـ ماذا تريد؟

ـ ماذا أريد؟ أنت غريبة حقاً، ماذا يمكن أن يريد رجل من زوجته حينما يطلب منها الحضور إلى غرفة النوم؟

ـ أنت فعلاً قليل أدب، ألا يكفيك أنك تأتي من عند حسن ليلياً ورائحة الخمر تفوح منك، وتستلقي بجانبي كجثة؟

بدأت في الانفعال، وإذا ما انفعلت عادة لا أبقي كلمة واحدة معلقة بلساني، أكملتُ:

ـ يا أخي اتق الله في نفسك، على الرغم من أنك ميت، وليس لديك أي إحساس بالمسؤولية، تريدني أن أصير خادمة لك؟ المفترض أن تحترمني على أقل تقدير؛ لأن امرأة مثلي كثيرة على رجل مثلك!

ـ يا خيرية استعيذي من الشيطان، لماذا كل هذا الانفعال؟

ـ وتسأل: لماذا كل هذا الانفعال؟ أنت لا تملك أدنى إحساس، أنت رجل ميت، لاحظ أنني لم أناقشك يوماً في سهرك، وفي شربك للخمر مع مجموعة السود الذين تعرفهم؛ لكن أن تأتي لتأمرني بأشياء تمسني لن أسمح لك.

ـ أنت مجنونة فعلاً!

ـ أنا مجنونة يا محمود؟! أنا مجنونة فعلاً، لأنني رضيت بواحد مثلك كزوج لي، والحمد لله الذي لم يرزقني منك بطفل، لأبقى معلقة بك طوال حياتي، فإن كنت مجنونة فعلاً فطلقني الآن.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ـ أعوذ بالله منك، ومن وقاحتك. أخرج الآن، لا أريد أن أرى وجهك.

استدار، وذهب دون أن يقول أي كلمة، وهذا ما كان يقتلني فيه: برودة الزائد عن حده ككل الأشياء التي تزيد عن حدها، وتصبح مؤلمة أكثر مما

ينبغي، أخذتُ أبكي على حظي الذي يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وبدأت أدرك بأن الخيبات التي تحصل لنا تتحول إلى مصائب إذا ما تكررت بطقوسها ذاتها، كنت أحتاج فقط أن يصبح محمود رجلاً، ويصفعني ليخرجني من خيبتي هذه، أو يكون أكثر رجولة ويطلقني، وأنا أعرف بأن طلاقي منه ليس حلاً، فالحلول لا تعترف ببتر علاقاتنا مع الأشياء إنما سيكون البتر قراراً يعيد لي كل لحظة خيبتي، ويربيها في نفسي. كنت أحتاج رجلاً فعلاً، وهذا ما يجعلني أعود مراراً لتذكّر يحيى، فهو الذي كان سيسعدني حقاً، فأقصى طموح امرأة أن تعيش تحت ظل رجل تشعر من خلاله بالطمأنينة، فالمرأة لا تبحث عن السعادة؛ إنما تبحث عن الطمأنينة فقط، هذه الطمأنينة التي لم أشعر بها ولو للحظة منذ أن عرفت محموداً.

كانت الدموع تجري على خدي وأنا لا أصدر صوتاً كطفلة تبكي في آخر الفصل وهي تشعر بالظلم، ومع توالي الذكريات بدأ صوتي يعلو شيئاً فشيئاً؛ كنت أبكي والحرقة تأكل فؤادي كغرغرينا على قرار اتخذته دون أن أعلم بأننا لا نفطن لقراراتنا الخاطئة إلا في مرحلة يغدو معها الألم والخيبة والهزيمة مضاعفة. لا أدري كم بقيت على حالي هذه وأنا أبكي؛ لأن البكاء يشبه الخشوع لا يشعرنا بقيمة الوقت، لكنني تنهدت بصوت واضح حينما سمعت مؤذن الحارة يؤذن لصلاة العصر. أعاد صوت المؤذن ترتيب الفوضى التي في داخلي كأم تجمع مكعبات ابنها التي امتلأت بها حجرته، فذهبت إلى حجرة النوم، كان محمود مستلقياً على ظهره يحدّق في السقف، لم يلتفت إليّ وأنا أدخل، وزاد هذا من كرهي له، أخذت هاتفي المحمول من فوق التسريحة، واتجهت إلى الصالة، طلبت رقم حسن، وبدأ هاتفه المحمول يرن لكن دون أن يجيب أحد، كنت على يقين بأن حسناً نائم الآن بعد ليلة حبلى بالموبقات، وحينما انقطع الخط دون أي رد أرسلت إليه رسالة قصيرة على هاتفه المحمول كتبت فيها: **«تعال لترى ماذا يفعل صاحبك في منزله؟ انتظرك الليلة»**.

وضعت هاتفي المحمول بجانبي، وأخذت أتخيل ماذا يمكن أن يحدث؟ هذه هي المرة الأولى التي استعين فيها بأخي حسن على صديقه منذ أن تزوجت، ولا أعرف ماذا يمكن أن يحصل؟ فهل سينحاز إلى أخته؟ أم سينحاز إلى رفيق دربه وموبقاته؟. كان التفكير في هذا الموضوع يتعبني، فندمت حقاً على إرسال الرسالة إلى حسن، فلو لم أرسل هذه الرسالة ربما لتفاديت الموقف حينما يتصل بي حسن فيما بعد، فأقول له بأنني كنت أود أن تشرب الشاي معي، ولكن ما دمت قد قتلت كل الأكاذيب، فيجب أن أقف بحزم وشراسة إزاء موقفي هذا. في تلك الأثناء التي كنت فيها أتجرّع مرارة ندمي عبر محمود من أمامي يبحث عن سجائره، فحين سألني عنها، قلت:

ـ لا أدري.

ثم أضفت بنبرة فيها نوع من الوعيد:

ـ لا تذهب الليلة، لقد أخبرت حسن بما حدث.

ـ ولماذا أخبرته؟

ـ لكي يؤدبك.

ـ أنت غبية فعلاً.

حينما أردت الانفلات عليه كلبوة شعرت بالخوف على أشبالها ذهب، وتركني... تركني ألتحف غضبي. ازداد غيظي منه وبدأ يتضخم كغول، وبدأت أكرهه بزيادة، وصرت آكل نفسي أكثر فأكثر كمعدة خاوية من كل شيء. لم أتحدث، ولم أشاهد التلفاز، لم أكن أفعل شيئاً سوى أن أقوم بين دقيقة وأخرى بزيادة جرعة كرهي له، كنت أحاول أن أتذكر كل مواقفه غير الجيدة معي، وأحلبها من ذاكرتي لتقف في صف غيظي وأتثبّت من كرهي له، فنحتاج دوماً لأن نستعين بذاكرتنا لنتيقن من قراراتنا تجاه شخص ما كالحب، كالكره، كالشفقة.

بعد قرابة ساعة سمعت صوت رنين هاتفي المحمول الذي نسيته في سكرة غضبي، كان المتصل حسن؛ فشعرت بنشوة، ورددت عليه سريعاً:

ـ أهلاً حسن.

ـ أهلاً خيرية، ماذا حصل؟

كان صوته يأتيني بأبعاد ثلاثية، ضخم، ومخيف، ومدهش أيضاً، حتماً لم يكن قد قام من فراشه بعد، وهذا ما أشعرني بالأهمية، فقلت له بتلك الطريقة التي نحاول فيها أن نقنع الآخرين بوجهات نظرنا مع الاحتفاظ بتلك الشعرة الرفيعة جداً من الكبرياء:

ـ لقد شتمني محمود، يقول عني مجنونة وغبية. أنا لم أعد أطيق هذا الحقير.

وانخرطتُ في شتمه، فلم يكن من حسن إلا أن قال:

ـ اهدأي سأكون عندك بعد ساعة.

أغلقت الهاتف، والغضب لا يزال يندفع من داخلي كثورة جياع، فلقد زاد اتصال حسن من احتقاري لمحمود، هذا الرجل الذي لا يعرف من حياته سوى شيئين: عزبة حسن، وغرفة النوم، وما أوقح ذلك الرجل الذي لا يملك في حياته خيارات متعددة. بعد ساعة جاء حسن، فحينما فتحت له الباب سألني:

ـ أين محمود؟

ـ في الداخل.

ـ اذهبي، وناديه لي، واصنعي لي شيئاً لآكله.

ذهبت وأخبرت محموداً بوجود حسن، وهرعت إلى المطبخ أحضّر لحسن ما يأكله، وفي الأثناء التي كان فيها الأكل على النار اقتربت من باب الصالة المغلق لأسمع حسناً وهو يخاطب محمود بنبرة أعجبتني، وزادت من احترامي لنفسي، فقد شعرت من خلالها بالأهمية حقاً. كان يقول:

ـ لم أزوجك إياها لتشتمها؛ فأنت تعرف نفسك جيداً، وتعرف بأن خيرية هدية لك من السماء، وتدرك أيضا بأنك لا تستحقها، والأهم من ذلك

أنها أختي، ولن أرضى أن تخطئ بحقها، ولو بجزء بسيط، فلو سمعت مرة أخرى أنك ضايقتها لأي أمر كان فلا تَلُم إلا نفسك.

حاول محمود الدفاع عن نفسه قائلاً:

ـ لكنها لا تحترمني. إنها تقول أشياء لا ينبغي أن تقولها الزوجة لزوجها.

فرد عليه حسن لينهي الموضوع:

ـ أنت لست محترماً لتحترمك، أنا من تفضّل عليك وزوّجك، وصنع منك رجلاً، دعها تقل ما تريده. الأهم ألا تضايقها.

ـ لكن...

ـ لا لكن، ولا هم يحزنون، قم الآن واستعجلها في الأكل؛ لأنني أتضوّر جوعاً.

انطلقت إلى المطبخ على أطراف أصابعي بعد هذه العبارة، وما إن وقفت أمام الفرن الذي يخرج منه اللهب ككرهي لمحمود، حتى سمعت صوت باب الصالة يُفتح، ويطل عليّ محمود من باب المطبخ ليقول: «استعجلي بالأكل، فأخوك يتضوّر جوعاً». لم أرد عليه، فعاد إلى حسن مرة أخرى، كنت أشعر بانتصار لا يضاهى، كنت أحس بأن هذا اليوم يوم استثنائي حقاً، فما أجمل أن تتذوق حلاوة الانتصار بعد سنين من الهزائم، فحتى انتصاراتنا الصغيرة لها حلاوة تضاهي حلاوة أعظم الانتصارات في الأرض. قدّمت الأكل لحسن، فأكل وشبع، ثم قدّمت له الشاي، فشرب ودخّن، كنت مستمتعة بوجوده على الرغم من كل الجراح التي تسبب بها لي في يوم ما، الغريب أنه لم يفتح معي الموضوع بحضور محمود، لكنني شعرت فعلاً بانتهاء الحكاية، فجاء دوري لأعاقب محموداً فقررت ألا ينام معي، وعندما جنّ الليل ذهب لينام في مجلس الرجال وحده، لأنني أعرف بأن أقسى عذاب يمكن أن يواجهه الرجال هنا أن يُحرموا من ملذاتهم؛ فالحرمان يؤدب الرجال حقاً.

(اليوم السادس)

«حسين منخلي»

كان عمل اليوم شاقاً، كنت أنتظر اللحظة التي ينتهي فيها هذا العمل لأعود إلى المنزل، وأتوسد راحتي لأنام، لذا حينما وصلت إلى المنزل اتجهت إلى غرفة النوم بأسرع ما يمكن، حتى عندما أخبرتني صالحة بأن الغداء قد جهز لم أقم لأتناوله، كنت أود أن أنام فقط، نزعت عني بدلتي العسكرية في حجرة النوم، وارتميت على الفراش، وعندما بدأ النوم يغزو جفوني دخلت عليّ صالحة، وقالت:

ـ لا تنم، سأصنع لك كوباً من الشاي، وانتظر لحين انتهاء صلاة العصر لتذهب وتجلب العمال ليقوموا بتركيب مطبخ عبده، فاليوم موعد تركيبه.

تذكرت ما حدث، وتذكرت وعدي لها فامتعضت في داخلي أكثر، وبدأت ألعن نفسي، لأنني وعدتها بذلك، فلم أكن أرغب في هذا الوقت إلا أن أنام، فقلت لصالحة:

ـ سأذهب بعد صلاة المغرب، أود أن أنام الآن.

ـ المشكلة كما تعلم أن تركيب المطابخ أمر معقد وطويل، وربما لو ذهبت لهم بعد صلاة المغرب ستضطر أن تبقى معهم يوماً آخر، فلن يكفيهم الوقت من المغرب إلى الساعة العاشرة، أو الحادية عشرة مساء.

كانت تحاصرني من كل جانب، وكنت أشبه قطاً سجيناً في حجرة مغلقة تكوّم على نفسه في زاوية. ذهبتْ، وتركتني مع غيظي، ولعناتي، ونعاسي، وعادت وفي يدها كوب شاي، وأنا لا أزال أتململ في فراشي، تناولته منها،

وبدأت أشرب منه دون رغبة حقيقية في ذلك، شربته إلى أن أنهيته. بقيت أنتظر حتى جاءت صلاة العصر، وانتهت، وكنت لا أزال في صراع مع غيظي، ونعاسي، ولعناتي؛ فالحالات الإنسانية لحظات مؤرشفة في أنفسنا. اتجهت إلى المحل الذي كان يغص بالعمالة، أعطيتهم ذلك الإيصال الذي أعطتني إياه صالحة، وبقيت انتظرهم، وهم يرفعون قطعاً كثيرة من المطبخ في سيارة التحميل الخاصة بالمحل، لقد كان مطبخاً ضخماً فعلاً، والسود يحبون المطابخ الضخمة عادة، لأنهم يقدسون الأكل كما يقدسون الجنس.

اتجهت شرقاً حيث الفتنة للوصول إلى بيت عبده الكائن في حي المروج، هذا البيت الذي يليق بامرأة بيضاء جميلة إلى ما لا نهاية، فليس من الأدب حقاً أن تتزوج امرأة بيضاء وتتركها تمكث بين السود، فقد كان عبده حكيماً في تصرفه هذا؛ لأن القرب من الأشياء الدميمة يطبع الدمامة في أنفسنا، ولن يمحوها الزمن، وعندما تُطبع الدمامة في نفس إنسان ما يتحول إلى قطعة لحم تسير على قدمين، فأن تكون دميماً شيء، وأن تُطبع الدمامة في نفسك شيء آخر.

كنت بين همّي في البقاء كل الوقت القادم مع هؤلاء العمال، وبين خيالات رجل أسود سيدخل بعد قليل إلى منزل امرأة بيضاء إلى أن وصلنا، فتحت الباب، وجاءتني رائحة ليست كروائح السود إطلاقاً على الرغم من أن صاحب هذا البيت رجل أسود، وجدت تنسيقاً متقناً لأثاث هذا البيت. لقد اختار عبده بيته في الطابق الأرضي لكي لا يحلّق كثيراً، فالسود عادة لا يحبون المرتفعات. كان للبيت بابان، أحدهم يفضي إلى قسم الرجال، والآخر يفضي إلى قسم النساء مثل كل البيوت التي تبنى في السعودية. دخلنا من الباب المفضي إلى قسم النساء، صدفنا في البداية مدخلاً كبيراً ذا لون ذهبي، تتوسطه مرآة كبيرة بارتفاع متر، وبعرض نصف متر تقريباً، فتساءلت حينها: هل يريد عبده أن يتأكد من سواده كلما دخل من هذا الباب؟. كان لا بد أن تنعطف يميناً لكي تتجنب الجدار أمامك، وحينما تنعطف ستفاجئك صالة

كبيرة في صدرها شاشة تلفاز معلقة بحجم يقارب المتر، تحتها حامل كبير يحمل مستقبل القنوات، وجهاز تحكم.. لم تكن الصالة مفروشة بالكامل، كان في وسطها سجادة ذات لون أحمر، يحيط بها كنب أحمر مطبوع عليه ورود بيضاء، وبين كل نصف متر من الكنب وسادة لونها أبيض، وقد زيّنتها الورود ذاتها التي طبعت على الكنب لكنها باللون الأحمر، والطاولات تتوسط تلك السجادة الحمراء، متكومة بجانب بعضها بعضاً كمساجين، أو أسرى حرب. كان على يميني باب مغلق، فتحته لأطلع عما في داخل تلك الحجرة، كانت مفروشة، وقد علّقت ستارة تقارب لون (الموكيت) المفروش، وخالية تماماً من أي أثاث كمسجد.

سحبت الباب، وأغلقته، واتجهت إلى المطبخ الذي كان يقبع عن يميني بعد أن دلفت إلى ممر ضيّق، فتحت بابه لأجد ثلاجة كبيرة جداً تستند إلى أحد جدرانه، وبرّادة ماء تقبع في الجهة المقابلة من الجدار الذي يحتضن الثلاجة، طلبت من العمال الدخول، وأوصيتهم أن يقوموا بتركيب المطبخ مع ملاحظة أن تبقى الأجهزة الكهربائية قريبة من المصادر المخصّصة للتزود بها.. ومضيت لأتفقد بقية البيت.

عندما تخرج من باب المطبخ يصدمك باب خلفه باب آخر، وعن يمينك حينما تعبر الباب الأول، باب كنت أدرك بأنه باب لدورة مياه، فتحته ليصدمني حجم الحمام الذي تتربع وسطه غسالة أوتوماتيكية، وفي أحد أركانه حوض استحمام كبير جداً، كان نظيفا بالطريقة التي تجبرك على البقاء، والاستحمام فيه، كان مثل كل الحمامات التي نراها في المسلسلات. دلفت إلى الداخل فيه، وأخذت أحدّق في وجهي عبر المرآة لأكتشف بأن ثمة شيئاً ينقصنا نحن السود لا أعرفه على وجه الدقة، لكن حتماً هنالك أشياء لم نمارسها ولن نمارسها ما دمنا نملك بشرة سوداء.. أخذت أداعب بعض البثور التي خرجت في جبهتي مثل كل مرة أقف فيها أمام المرآة، فمنذ زمن بعيد، وليس أمامي

حين أحدّق في المرآة سوى أن أداعب البثور التي تنتشر فوق جبهتي وخدّيّ؛ لأنني لا أملك خياراً غيرها أمام ما أشاهده.

بعد مضي ما يقارب خمس دقائق كنت أعبث فيها بوجهي خرجت من الحمام، كان عن يميني مدخل باب مغلق بإحكام، فتحته، وأدهشتني غرفة النوم. لقد كانت هذه الحجرة أشبه برسمة مثل تلك الغرف التي يغدو معها النوم مطلباً، كان سرير النوم عن يساري بملاءاته التفاحيّة اللون القريبة من لون العشب في فصل الشتاء، ومخداته الصفراء التي تشبه وجه فتاة جميلة خرجت للتو من حمى، وعلى الجدار ستارة مخططة باللونين التفاحي والأصفر، لكنك لا تعرف أيهما هو اللون الأصلي في الستارة، وفي اليمين امتلأ الجدار بخزانة ملابس عملاقة كهمّ أو كفرحة.

كانت عن يسّاري مباشرة تسريحة شبه كبيرة تفترش الجدار، فوقها مرآة تصلح لأن تحدق فيها امرأة بيضاء، وعند طرف السرير من الجهة الأمامية أريكة تمتد بطول السرير عرضاً، وكل (كوميدينة) عن يمين وعن يسار السرير تعطي لمنظره روعة كأنهما جناحان. بعدما أغلقت باب الحجرة خلفي اقتربت من السرير كطفل، وارتميت عليه كعروسة، وأخذت أتأمل السقف كراهب، وفي داخلي آلاف من الخيالات، فكيف سينام عبده مع زوجته البيضاء هنا؟ هل سينام معها مثلما نمت أول ليلة مع صالحة؟ لا أعتقد؛ فالبيضاوات لهن طقوسهن في النوم حتماً، ليس مثل صالحة التي بقيت لأكثر من ثلاثة أيام كقطعة بالية، كنت أنام معها، وأنا أشعر بأنني أنام مع إحدى الأوراق التي تسكن جيب ثوبي العلوي، أو كميدالية مفاتيحي التي أرميها في أقرب مكان حينما أدخل على أحد.

كنت أغبط عبده على هذه الفخامة التي لا مثيل لها، وأنا أحس بأنني أحلم كنت أتخيل زوجة عبده، وهي تدلف عليه بقميص نوم وردي، وهو مستلق على ظهره كقائد معركة ينظر إليها مبتسماً، وتنظر إليه كرب، فهو الذي يملك حقيقة الأشياء هنا. أعترف بأنني بدأت في اشتهاء زوجة عبده، وأن ثمة

رغبة ملحة في داخلي لرؤيتها، لأن امرأة تُستَقبل بكل هذه البهرجة والحفاوة ستكون جميلة حتماً. كنت أحدق في السقف، وأثرثر مع خيالاتي وذكرياتي، وصوت الجلبة التي يحدثها العمال في المطبخ تمتحن صبري، لكنني على الرغم من ذلك شعرت بأنني أنام، فليس هنالك أفضل من اشتهاء امرأة جميلة إلا النوم في سريرها، حتى لو لم تكن موجودة.

سمعت طرقاً خفيضاً على باب الحجرة، كنت أحس بأنني أحلم، لكنني لم أكن أحلم حقيقة، ولم يحدث أنني رأيت باباً واحداً في أحلامي، فكل أحلامي تختبر الفضاءات، ولا تقف خلف الأبواب الموصدة، فتحت عيني والطرق لا يزال مستمراً، تكاسلت في النهوض، فصرخت بمن يطرق: «من؟»، ففتح الباب أحد أولئك العمال الأربعة، وحينما رآني أنظر إليه شزراً تدارك الأمر، وأخبرني أنهم يريدون ماء ليشربوا، فتذكرت أن هذا المنزل خال من المؤونة وخال من الحياة، فرددت عليه وكأنني أطرده: «طيب».

خرج وبدأت ألعن، فهل هذا وقت شرب ماء؟ أم أن هذا العامل الذي يحمل لوناً قريباً من لون التراب تحالف مع القدر ضدي؟ يريد أن يخرجني من فرحتي بالاستمتاع بالنوم في سرير امرأة بيضاء بطلب قارورة ماء. بقيت لأكثر من ربع ساعة ممدداً فوق هذا السرير الذي يشبه أثاث الجنة، وبعدها قمت. مررت بالعمال، وهم يعملون بِنَهَم، ويدخنون سجائرهم التي تفوح منها رائحة لا تطاق، وخرجت. ولأنه لم يكنْ قريباً من منزل عبده أية بقالة، ركبت سيارتي، واتجهت إلى الشارع الرئيسي، وابتعت لهم من البقالة ماء وعصيراً، وعدت محملاً بكيس كبير فيه كل شيء.

حينما أردت الدخول إلى المنزل، صادفت رجلاً أبيض البشرة منتفخاً كأنه عبئ ماء، ذا لحية كثيفة، وثوب قصير يصل إلى منتصف ساقه، كان هذا الرجل يقف بجانب باب بيت عبده مبتسماً، وحينما رآني مقبلاً على المنزل ازدادت ابتسامته اتساعاً، وقال لي:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

صافحني بحرارة من يعرفني منذ زمن بعيد، بحرارة قلما نجدها من هؤلاء البيض الذين يملكون كل شيء، وأردف:

ـ أهلاً بجارنا الجديد.

ـ

ـ أنا جارك الذي يسكن في الطابق الأعلى، يمكنك مناداتي بأبي حسين.

ـ أهلاً وسهلاً بأبي حسين، لكنني لست جارك الجديد.

ثم أضفت بعد برهة من قياس ردة فعله التي بدأت تزداد:

ـ أنا زوج أخته، وجئت اليوم لأقف مع العمال، وهم يقومون بتركيب المطبخ؛ لأنه في سوريا الآن.

ـ ولماذا هو في سوريا؟.

ـ لأنه متزوج حديثاً.

ضحك ضحكة ذات مغزى، وبدأ يتنامى ذلك الكائن الظريف في داخله، فقال:

ـ نعم، نعم، يحتاج المتزوجون حديثاً إلى أماكن يقضون فيها أمتع أوقاتهم، وبيني وبينك عرسان هذه الأيام يعرفون أشياء لم نكن نعرفها فيما مضى.

ثم أضاف:

ـ جميل أن يختار أحدهم دولة مثل سوريا لقضاء شهر عسله بدلاً من الذهاب إلى أقصى الأرض؛ لأنه سيقضي جل رحلته في الطائرات.

لم يكن في عمر كبير، ولم أستغرب أن يدّعي أنه من الرعيل الأول؛ لكنني ربما أغفر له ذلك كونه رجلاً ملتحياً فأصحاب اللحى عادة لا يستمتعون بالحياة بالقدر الكافي، فقلت له:

ـ هو لم يختر سوريا لقضاء شهر عسله هناك، إنه متزوج من امرأة

سورية، وسيبقى فترة من الزمن في سوريا قريباً من أهل زوجته، ومن ثم سيعود إلى السعودية، هذا كل ما في الأمر.

شعرت بارتباك في نظرته لي، وبدأت تتقلص تلك الابتسامة الممتدة على وجهه رويداً رويداً، وسأل:

- ومتى سيأتي؟

- ربما بعد ثلاثة أيام أو أربعة، لا أعرف بالضبط.

- الله يرده بالسلامة.

ثم أضاف:

- دعنا ندخل لتناول فنجان قهوة.

- الله يسلمك، عندي عمال الآن لا استطيع تركهم. دعها في وقت آخر.

- على راحتك.

ومضى

دخلت على العمال، وهم لا يزالون في غياهب عملهم، ناولتهم ذلك الكيس الذي ملأته ماء وعصيراً، فتلقفوه كمجانين، وأخذت أنظر إليهم، وكل منهم يناول رفيقه قارورة ماء، أو بعض العصير، ويثرثرون بلغة لا أفهمها. عدت إلى الصالة، وفتحت التلفاز، وأمرتهم بأن يغلقوا الباب خلفهم لأن جلبتهم لا تطاق، تمددت على ذلك الكنب الأحمر المائل إلى البياض، ووضعت تحت رأسي وسادة من تلك الوسائد البيضاء المائلة إلى الحمرة، وأخذت أتماهى مع التلفاز. بقيت على هذه الحالة ربع ساعة تقريباً، ولم أدرك أنني نمت إلا حينما أيقظني أحد أولئك العمال ليخبرني بأنهم انتهوا من عملهم.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساء، قمت متثاقلاً، وألقيت نظرة على ذلك المطبخ الكثيرة قِطَعُه، كان مطبخاً فاخراً يليق بامرأة بيضاء، أغلقت جهاز التلفاز، وأطفأت أنوار البيت، وطلبت من العمال أن يسبقوني. ألقيت

نظرة أخيرة على المنزل لأبقيه في ذاكرتي واطمئن، وخرجت... أغلقت باب الشقة خلفي، وذلك السؤال الصغير جداً معلق في جمجمتي: هل من المعقول أن أبا حسين لا يعرف عبده؟

خرجت وأنا لم أتفقد بقية المنزل؛ فقد أذهلتني غرفة النوم بحميميتها، وبطريقتها لدفعنا إلى الرذيلة والموبقات.

(اليوم الخامس)

«ناجية سعيد»

قال يحيى:

- ما رأيك لو نسافر إلى البحر ليوم، أو يومين.
- ما الذي يجعلك تقترح هذا الاقتراح في هذه الأيام بالذات؟
- لاشيء، لكنني أشعر بملل من الجلوس في المنزل.
- أنت لا تجلس في المنزل أساساً.
- أقصد أنني مللت من البقاء في تبوك، سنذهب لنغيّر الأجواء.
- لكن يمكن أن يأتي صديقك في أية لحظة.
- سيتصل بي إن جاء، وسأعود حالاً؛ فالبحر لا يبعد سوى ساعتين من تبوك.

كنت منشغلة في إعداد سفرة الغداء وأنا أناقشه، وكنت أعرف جيداً بأن السبب وراء هذا الاقتراح هو زواج عبده غطفان، فمنذ أن قرر عبده الزواج والاضطراب يلوك يحيى كقطعة لحم لم تستوِ بعد، لم يعد ذلك الزوج الذي اعتدت هدوءه وسذاجته، تحوّل ليصير أكثر ريبة في تعامله معي، وربما في تعامله مع الناس. لم يعد يفرح بزيارة عبده إلى البيت، بعكسي أنا التي لا أشعر بفرح أبداً إلا حينما أسمع صوت عبده وهو يثرثر مع يحيى في مجلس الرجال، ويطلق نكاته الجنسية بصوت مرتفع يريد مني سماعها كما كان يقول، فيحيى أصبح يتعامل مع عبده بطريقة عدائية جداً؛ مثل شريكين دخلا في مشروع استثماري، وفجأة بدأ أحدهما في التلاعب بالآخر، مع أن عبده

كان حذراً معه، وكان يتعامل معه بلطف دائم، هو الذي لا يعنيه خسارة يحيى إلا لأنه سيخسرني.

ذات ليلة، وبعدما أخبر عبده يحيى بزواجه من فتاة سورية، عاد يحيى إلى المنزل منهاراً، وكاد أن يبكي، فسألته:

ـ ماذا بك؟

ـ عبده سيتزوج.

ـ وماذا يمكن أن يحصل إذا تزوج؟

ـ لا شيء.

ـ ولماذا لست سعيداً بزواج صديقك؟

ـ

ـ من سيتزوج؟

ـ سيتزوج من فتاة سورية!

كنت أعرف بزواج عبده قبل هذه الليلة بأسبوع تحديداً، لأنني تقاسمت معه كل شيء: همومه، أحلامه، آهاته، فقلت ليحيى:

ـ المفترض أن تبارك لصديقك هذا الزواج، وألا تبقى عابساً هكذا.

ـ الله يوفقه.

ـ والمفترض أيضاً أن تساعده في هذا العرس، وتقف إلى جانبه.

ـ هو رفض مساعدتي.

ـ لا أعتقد بأنه سيرفض، ربما يكون قد جهّز كل أموره المالية، لكن حاول أن تكون معه ليلة زواجه.

ـ رفض حضوري أيضاً، ولن يحضر زواجه أحد من أهله أيضاً.

ـ ربما لا يريد منك أن تقطع كل هذه المسافة؛ فهو لا يريد أن يتعبك.

ـ لا لا، هو يستحي من وجود أقربائه وأصدقائه من السود، أنا أعرف ذلك، لكن أخبريني أنت لماذا تدافعين عنه؟

ـ أنا لا أدافع عنه، أنا أحاول أن أجد له الأعذار في تصرفاته، لكنني آسفة للتدخل في شؤونكما.

لم أكن أريد أن أجادله أكثر في هذا الموضوع، لكي لا يلج إلى داخلي ويكتشف الحقيقة، تلك الحقيقة المؤذية لنفسي وليحيى ولعبده أيضاً. فهذا ما جعلني أتوقف اليوم معه عن الحديث أكثر في موضوع البحر هذا لكي لا يعرف الحقيقة، أنا التي كنت ولا أزال أحتفظ بعبده في داخلي، ولا أريد خسرانه، لأنه وعدني قبل يوم من زواجه حينما سألته:

ـ هل ستسرقك مني زوجتك الجديدة؟

ـ أنت في داخلي إلى أن أموت، ومن المستحيل أن تسرقني منك قطعة لحم بيضاء.

ضحكت، وزاد يقيني فيه حينما أرسل لي رسالة قبل ثلاثة أيام يطلب مني أن أحضّر لصديقه المحروس يحيى هدية ليلية على شرف زواجه. كنا نأكل أنا ويحيى غداءنا صامتين، لا ننظر إلى بعضنا بعضاً مثل الساعات الأولى بعد المصيبة، كان يحيى يأكل بنهم، وكنت أتناول غدائي بأطراف أصابعي. لم أرد أن أخوض معه في أي حديث، لأنه لم يعد يحمل كل البراءات السابقة، صار أكثر تشكّكاً، أكثر ريبة، أكثر مؤامراتية مثل كل طاغية جبان، وحين انتهينا من تناول الغداء، وبعد أن غسل يحيى يديه دون أن يشكرني ارتدى ملابسه، وخرج

كان جدوله اليومي مزدحماً، ويسير وفق هذا المنوال: يأتي من عمله، يرمي بدلته العسكرية، يدخل إلى الحمام ليغسل قدميه أكثر من عشر دقائق، يعود والغداء جاهز تقريباً، وعندما يمتلئ بطنه يرتدي ملابس نظيفة، ويخرج إلى الاستراحة لكي يتناول شيشته. وكان جدولي يختلف بين يوم وآخر بعد خروج يحيى، مرة أقوم بغسل الملابس، ومرة أتفنن في غسل الأطباق، وأعيد غسلها مراراً، ومرة أترك كل شيء، وأشاهد التلفاز، وأحياناً تشدني أغنية صاخبة، فأقوم وأرقص على أنغامها بتلذذ. قمت ووضعت الملابس التي

امتلأت بها سلة الغسيل في الغسالة، وعدت إلى مشاهدة التلفاز الذي كان يبث مسلسلاً خليجياً، يحكي قصة رجل مسحور ضحكت عليه امرأة، وسحرته لتسرق ماله. لم يعجبني المسلسل، وعادة لا تعجبني المسلسلات الخليجية.. في تلك الأثناء سمعت صوت نغمة الرسائل في هاتفي المحمول، لم تكن نغمة رسالة نصية، إنما كانت رسالة من «حسينة غطفان» عبر برنامج المحادثة في جهاز البلاكبيري، سألتني:

ـ زوجك موجود؟

ـ لا.

ـ إلى متى سيبقى في الخارج؟

ـ لماذا؟

ـ أجيبي أولاً.

ـ ربما لصلاة المغرب.

ـ حسناً سآتيك الآن. هل لديك عمل؟

ـ أبداً، حياك الله.

استغربت هذا الغموض كله من «حسينة غطفان»، وكنت أحس بأنها تخفي أمراً مهماً؛ أنا التي لم أتعوّد منها كل هذا الغموض، ولاسيما بعد أن اكتشفت صوري في هاتف أخيها عبده المحمول ذات يوم. انتظرت لعدة دقائق لأسمع جرس المنزل، عرفت بأنها حسينة حتماً، فتحت لها الباب، ووجدتها تحمل جهاز حاسوبها المحمول، وكيساً ممتلئاً بملابس نسائية فيما يبدو، أدخلتها والدهشة تعتريني من وضعها هذا، كنت أشبه طفلاً اكتشف فجأة أن الحياة مليئة بالأشياء الجديد التي لا يعرفها. سألتها:

ـ ماذا هناك؟.

أجابت، وهي تلهث:

ـ لا شيء.

دخلت إلى الصالة، وارتمت على الكنبة بعدما وضعت جهاز حاسوبها

المحمول بجانبها، ورمت بالكيس عند قدميها، ونظرت إليّ وأنا لا أزال مندهشة من تصرفاتها، فلم يكن منها إلا أن ضحكت بصوت مرتفع، وقالت:

ـ لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة؟

ـ لأن وضعك مريب.

ـ ليس هناك أية ريبة، سأخبرك لماذا كل هذه الهالة، لكن عديني أولاً أن يبقى ما بيننا سراً.

ـ أعدك.

ـ جئت بجهازي المحمول لأنني أريد أن أدخل إلى الانترنت من هنا، أما هذا الكيس ففيه ملابس لي.

ـ وماذا تريدين بها؟

خجلتْ في بادئ الأمر، وترددت في البوح، فحثتها على الحديث، استمرت في التردد هذا، لكنها فجأة تجاسرت على نفسها، وتمالكت أنفاسها، وقالت:

ـ لم أتجه إليك إلا لأنني واثقة بأنك ستقدرين موقفي.

ثم سكتت قليلاً، وأضافت:

ـ تعرّفتُ إلى شاب عن طريق الانترنت، وقد طلب رؤيتي. في البداية رفضت، كنت أريد أن أتأكد من أخلاقه، لكنه شاب شهم حقاً، وهو يريد أن يراني الآن.

ثم كمن تخفف من حمل ثقيل أكملت:

ـ لم آتِك إلى هنا إلا لأن صالحة وزوجها وأطفالها يتناولون طعام الغداء عندنا في المنزل.

تنفستْ الصعداء، فكل ما كنت أحمله في داخلي من أفكار سوداء بدأ في التلاشي كغبار سيارة يقودها شاب متهور، فأخذت أسألها عنه، وعن الطريقة التي عرفته بها، فكانت تجيب بشغف لا يصدّق، قالت بأنها أحبته،

وهو يقطن مدينة الرياض، هو الشاب الوحيد في أسرته المكونة من ثلاث فتيات، وأم، وأب، وأضافت:

ـ هو يحب سماع صوتي وأنا أغني، فدوماً ما أغني له.

كانت تتحدث عنه بحب صاف، وبلهفة لا مثيل لها، وفجأة رن جرس هاتفها المحمول فقفزت من مكانها فرحاً، لأنه هو من كان يتصل، انطلقت إلى الغرفة المجاورة، بعد أن أخذت جهاز حاسوبها المحمول، وكيس ملابسها النسائية معها، وأغلقت الباب خلفها، أوصدته بإحكام، فأخذت أتذكر بعض الأحداث التي أثارتها هذه الفتاة الشقية، كنت مثلها تماماً، والنساء عادة لا يختلفن، كنت شغوفة به لدرجة لا تصدق، فأنا من كثرة ما أحببته أشفقت على نفسي، وما أقسى أن تشفق على نفسك لمجرد أنك أحببت إنساناً ما!، أتذكر أنني حينما سمعت بخطوبة يحيى لي اتصلت بعبده، وقلت له:

ـ صديقك جاء لخِطبتي.

ـ من هو صديقي؟

ـ يحيى أبو جركن.

ـ ألف مبروك.

ـ هل أنت سعيد بذلك؟

ـ نعم، فأنا أحبك، ويحيى صديقي. ستصبحان ثنائياً رائعاً.

ـ ولماذا لم تتقدم لخِطبتي أنت؟!

ـ لأنني لا أفكر في الزواج حالياً.

ـ سأرفضه، وسأنتظرك.

ـ أرجوك لا تفعلي ذلك، فهي فرصة ذهبية لنا، أن تتزوجي صديقي الذي أستطيع أن أدخل بيته متى ما أردت.

ـ هكذا إذن.

وأغلقت خط الهاتف...

بقيت لأكثر من أسبوعين لا أكلمه، ولم ألتقِهِ خلالها أبداً، كنت أحاول

أن أنتصر لنفسي، أنا العاشقة البريئة التي لم تكن تحلم إلا بأن تتزوج رجلاً أحبته، لكنني اكتشفت فيما بعد بأن براءة العشاق لا يمكن أن تقدّم حلاً واقعياً؛ فالعشاق هنا مخلوقات خيالية ومريبة، مخلوقات تبني حياتها على الزيف، ولا شيء غير الزيف، انقطعت عنه وشيء في داخلي يتآكل، مثل قدِم كرسي خشبي وقع فجأة في طريق سرب من النمل الأبيض، فمن الصعب جداً أن تحاول الكذب على نفسك لمجرد أنك صُدِمت ممن يحبك، فالبراءات وحدها لا تكفي، ففي النهاية انهرت تحت ضغط اتصالاته بي، فعدت له، أتذكر أنه أهداني في ليلة زواجي خاتمي الذي لا أزال ألبسه إلى الآن، وبعد زواجي بستة أشهر زارني في منزلي بعد أن ذهب يحيى إلى البحر، ومن بعد تلك الليلة انغرس في داخلي كجين من جيناتي، انغرس إلى هذا اليوم.

على الرغم من زواجه إلا أنني أشعر بأنه لن يتركني، فهو الذي اتصل بي في أول ليالي شهوته وفرحه، وأعتقد بأن رجلاً يتذكر عشيقته في لحظات شهوته هو رجل وفيّ فعلاً، فالرجال أوفى من النساء، لأن المرأة عاطفية، والعواطف لا تبقينا على مقربة من قراراتنا المصيرية. واثقة أنا بأن زوجته تحمل وجها ملائكياً، جميلة لدرجة لا يمكن قبولها عقلاً، لكن رجلاً مثل عبده أعتاد على تواضع الجمال في عينيه لن يصمد أبداً أمام كل ذلك الجبروت الملائكي، سيشعر بالدونية حتماً، وسيعود إلي.

كنت مشغولة حقاً بتلك الذكريات التي تشبه تجربة مرض مريرة، لكنني في الوقت نفسه كنت أسمع صوتاً في الحجرة المجاورة التي دخلتها «حسينة غطفان» قبل قليل، وبين الفينة والأخرى يزداد الصوت علواً، ويظهر لي بأنه صوت بكاء مُر. ذهبت إلى الحجرة وطرقت الباب، لكن حسينة لم ترد، طرقته مرة أخرى، فسمعت ما يشبه الخشخشة، ولم ترد أيضاً، بدأ الخوف يدب في قلبي كنملة عملاقة، ففتحت الباب رويداً رويداً، وحينما انفتح الباب وجدت حسينة متكورة على نفسها في زاوية الحجرة تبكي، وقد بدّلت ملابسها

لترتدي فستاناً أبيض أنيقاً جداً، كان منظرها جميلاً بكل صدق، لكنه محزن في الوقت ذاته، انطلقت إليها، واحتضنتها، وسألتها:

ـ ماذا حصل؟

ازداد نحيبها وارتفع صراخها، فاحتضنتها بقوة، وأخذت أقرأ عليها بعض الآيات القرآنية، ونحيبها في ازدياد، وكأنها كانت تنتظرني أن أدخل عليها لتخرج كل ما في داخلها من بكاء، فسألتها مرة أخرى:

ـ حبيبتي حسينة ماذا حصل لك؟

أخذت تشهق من جديد، فلم تكن تستطيع التحدث، وبقيت أنظر إليها رافعة حواجبي تارة، وأحثها على الحديث تارة أخرى، واحتضنها تارة ثالثة، فقالت وهي تغالب دموعها:

ـ الكلب

ـ من هو؟

ـ هذا الذي جئت من بيتنا لأجله، هذا الذي أراد أن يراني...

ـ ماذا به؟

ـ حينما اكتشف أنني سمراء، أغلق المحادثة وخرج بعد أن قال لي «آخرتها عَبْدَة»!

فأخذت تبكي بحرقة، وتشهق بطريقة كان جسدي معها يهتز، فلم يكن مني إلا أن احتضنتها بقوة أكثر، وتركتها تبكي، لأن البكاء إخراج اليأس من قلوبنا علناً.

(اليوم الرابع)

«قاسم غطفان»

أعلن المسؤول في الخطوط الجوية السعودية عن إمكانية صعود الطائرة للرحلة المتجهة من تبوك إلى جدة، قام كل المنتظرين في الصالة الداخلية، واصطفوا في صف طويل استعداداً لركوب الطائرة، كنت الوحيد بين كل هؤلاء البشر الذي يلبس ملابس رياضية، ولا أدري ما سر تأنق السعوديين بالثوب والشماغ حينما يريدون السفر، أو حينما يزورون المطارات؟. كنت أنوي الذهاب إلى جدة بعد أن اتصل بي ابن خالتي إبراهيم يطلب مني الحضور إلى جدة، ويخبرني بأن فرص العمل في الشركات في جدة أكثر منها في تبوك، وربما أجد فرصة للعمل في شركة ما براتب مجز، فذلك أفضل من بقائي بجانب أمي وأختي بلا فائدة، وأضاف: «جدة مدينة رائعة ستجد فيها كل ما تريده، لا تخف ستستمتع!».

كانت الرحلة من تبوك إلى جدة تحمل الروتين نفسه الذي نراه منذ أن عرفنا الطائرات، أعطونا كل الإرشادات التي نسمعها في كل مرة نركب فيها الطائرة، وتأملنا جمال المضيفات الذي نراه في كل مرة، ذلك الجمال الذي يشبه مشاهدة قطع من الألماس خلف زجاج المحلات، لكننا لا نستطيع لمسها. فمنذ أن أمرنا طاقم الطائرة بربط حزام الأمان والنوم بدأ ينتابني، وما إن حلقت الطائرة في السماء حتى أخذ النعاس يطوّقني، وما هي إلا لحظات حتى تمكّن مني، وغرقت في نوم عميق.

لم استيقظ إلا حينما وصلت الطائرة إلى مطار الملك عبدالعزيز في جدة، نزلت منها بعد أن عرّجت على دورة المياه في مقدمتها وغسلت وجهي. كان رنين هاتفي المحمول متواصلاً منذ أن فتحته، لقد استبطأني ابن خالتي إبراهيم، ولم يكف عن اتصاله بي. ففي كل مرة يتصل بي، ويسألني: «أين أنت؟»، ثم يضيف:»أنا أنتظرك أمام بوابة الخروج مباشرة».

وصلت إلى حيث إبراهيم بعدما التقطت حقيبتي الصغيرة من الدرج الذي كان في أعلى رأسي، وخرجت مسرعاً من الطائرة. تفاجأت بوجود فتاة في المقعد الخلفي لسيارته، وما إن ركبت السيارة حتى عرفتها من صوتها عندما ألقت عليّ التحية، لقد كانت «هدية» أخت إبراهيم، وابنة خالتي الصغرى، كانت أصغر من إبراهيم بستة أعوام. أخذنا نثرثر في الطريق عن كل شيء، وكان الحدث الأبرز في حديثنا هو زواج أخي عبده من تلك الفتاة السورية، فسألني إبراهيم:

ـ ما هي أخبار عبده؟

رددت عليه:

ـ إنه بخير.

ـ وكيف الزواج معه؟

ـ من المؤكد أنه سعيد بهذا الزواج.

ـ يحق له!

ضحكتُ بطريقة مواربة، وسمعت صوت هدية في الخلف وهي تضحك، فقالت بعد أن حاولت تهذيب صوتها:

ـ حرام عليكم، حتى وهو في شهر عسله لا يسلم من ألسنتكم!

ثم أضافت:

ـ أي رجل في مثل وضعه سيسعد حتماً، ليس لأنه تزوج امرأة بيضاء، إنما لأن شهر العسل هو أفضل أيام العمر.

فرد عليها إبراهيم:

ـ ليس الرجال وحدهم من يفرحون بالزواج، حتى النساء سيسعدن؛ لأن المرأة تبحث عادة عن

صمت قليلاً، وأخذ ينظر إليّ كرئيس عصابة، وحين ضحكت بصوت شبه مرتفع قال ساخراً:

ـ لماذا تضحك؟ أنا أقصد أنها تبحث عن زوج!

فردت عليه هدية ساخرة أيضاً: «لا يا شيخ!»، وضربت إبراهيم على كتفه، وأضافت:

ـ اترك عنك هذا الكلام، واذهب بنا إلى أي مطعم لنتناول الغداء، فأنا سأموت من الجوع.

فقلت بخجل:

ـ بالنسبة لي لقد تناولت غدائي في الطائرة.

فقال إبراهيم وهو يضيء مصباح السيارة الخلفي، لأنه كان ينوي أن ينعطف يميناً وهو ينظر في المرآة الأمامية:

ـ ستأكل رغماً عنك.

في طريقنا إلى المطعم أُثخن الحديث بالترحاب والمحاباة والمجاملة، والسؤال عن الأهل والإخوان، وكررت هدية أكثر بأنها تود زيارة تبوك، وبعد أن أكثرت من إلحاحها في تكرار فكرتها هذه قال لها إبراهيم لامزاً:

ـ لن تجدي هناك أجواء جميلة مثل جدة!

ـ وأنت لا يهمك سوى هذه الأجواء يا ماصخ!

توقفنا أمام أحد المطاعم، وترجلنا من السيارة، ودلفنا إلى المطعم، وما إن اخترنا مكاناً قصياً في زاوية من قسم العائلات في ذلك المطعم حتى استأذنتْ هدية في الذهاب إلى الحمام، وبقيت أنا وإبراهيم نتشاور في ما سنأكله، فأعطيته طلبي، وهمّ بالذهاب، فأخبرته أن ينتظر حتى يعرف طلب هدية، فرد عليّ كمن يملك الحقيقة: «إنها أختي، وأعرف ما تحبه». ذهب إبراهيم ليطلب لنا الأكل، وعادت هدية تتهادى في مشيتها مثل وزيرة

خارجية، وقد كان واضحاً أنها وضعت شيئاً من المساحيق على وجهها، لكنها كانت أنيقة جداً، كانت على الرغم من بشرتها السوداء تشع نوراً، لم أعلق على هيئتها، فوضعت عباءتها على حقيبتها بجانبها على الكرسي الفارغ، وسألتني:

- هل ذهب إبراهيم لطلب الغداء؟

- نعم.

ثم أخذت تعبث بهاتفها المحمول، وأنا أدرك جيداً بأنها لم تكن تفعل ذلك إلا ليأتي إبراهيم بأقصى سرعة، ويصير عنصراً محايداً في جلستنا هذه، بقيت لفترة أحدق في الطاولة أمامي، وليس أمامنا في حضرة امرأة جميلة نتعامل معها بحياد إلا أن نحدّق في الطاولات، سمعت صوت إبراهيم يأتي قريباً من رأسي، كان يقول: «ما هذا الجمال كله يا هدية!». ضحكت هدية بخجل مثل الأطفال حينما يثني عليهم معلموهم، ولم ترد، فأحببت أن أكون أكثر لطفاً ولباقة، فقلت:

- فعلاً إنها جميلة، لقد تغيرت كثيراً منذ آخر زيارة رأيتها فيها، لقد ازدادت جمالاً.

فعلاً لم تكن هكذا هدية، هي ابنة التاسعة عشرة، أنا الذي لم أرها منذ سنتين، منذ تلك الحادثة التي لن أنساها، لقد تغيرت لتصبح أكثر جمالاً، أكثر أنوثة، أكثر نضجاً، في ذلك اليوم لم تكن بهذا الجمال؛ لأنها لو كانت كذلك لكنت التهمتها التهاماً، فالمرأة الجميلة لا ينبغي أن نتعاطى معها إلا دفعة واحدة. في تلك الأيام كنت في جدة مع أمي وحسينة، أتذكر أننا كنا في إجازة صيفية، وعادة ما تمتلئ البيوت بالأقارب في الإجازات الصيفية لاسيما لمن كانوا يقطنون المدن الكبرى كجدة، لقد مكثنا في منزلهم ما يقارب الأسبوعين، استضافتنا فيها خالتي «حسينة» بحب، ودفء، ومودة، كان الجو العائلي أكثر حميمية وقرباً، وكانت هدية لا تفارق أختي حسينة خلال تلك الأيام إلا في لحظات بسيطة، وكنت كلما التقيت حسينة تقول لي:

ـ يبدو أن هدية ستجنّ بسببك.

ـ لماذا؟

ـ إنها لا تنفك تتحدث عنك.

لم ألق لكلامها بالاً في البداية، كنت أفترض فيه أنه ثرثرة أفكار المراهقات فقط، لكنني بعد فترة بدأت ألاحظ اهتماماً خاصاً من هدية، كانت تسألني مراراً إن كنت في حاجة إلى شيء، وكانت لا تتورع في دخول المجلس إذا كنت وحدي، أو مع إبراهيم، وتقدم لنا الشاي، أو تعلّق على هيئتنا بكلمة وتذهب، وكانت تهتم كثيراً جداً بغسل ملابسي وكويها، فقد ازداد هذا الاهتمام حتى بدأ يلحظه إبراهيم، الذي علّق مرة على اهتمامها بي قائلاً: «يبدو أنك صرت أهم مني بالنسبة لهدية، وأنا أخوها!». بدأت أجاري هدية في اهتمامها، كنت أدلق على مسامعها الكثير من كلمات الشكر والثناء، وكنت أطلب من حسينة أن توصل لها بعض ما أريد، وكانت حسينة أمينة في نقل أفكاري إليها، كانت مهتمة بذلك جداً؛ ربما لأن المرأة تفرح كثيراً لعلاقات أخيها العاطفية.

ذات ليلة دخلت عليّ هدية، وأنا وحدي في مجلس الرجال في بيتهم، كان قد ذهب إبراهيم لشراء بعض المستلزمات للمنزل، وحين رأتني وحدي أحدثت ذلك الاضطراب الذي يوحي لنا بأن المرء قد تفاجأ بأمر ما، وسألت:

ـ أين إبراهيم؟

ـ ذهب إلى البقالة.

ـ ولماذا لم تذهب معه؟

ـ أشعر بملل في الذهاب إلى الأماكن التي أعتدت أن أذهب إليها في كل مرة.

ـ ماذا أقول أنا التي ليس لدي متنفس إلا الصعود إلى سطح المنزل؟

ـ معك حسينة ربما تنسيك مللك، ووحدتك.

ـ يمل الإنسان عادة من وجود شخص معه طوال الوقت.

ـ حسناً، يمكنني الصعود معك.

ـ الآن لا يمكن ذلك، فالجميع مستيقظون، لكن إن نام الجميع ستجدني أنتظرك في الأعلى.

خرجتُ من الحجرة، وبدأت أعد الدقائق والثواني لكي يناموا، كان الوقت يسير ببطء متناهٍ، وكنت أشبه بامرأة حامل في لحظات طلقها، ومع مرور الوقت بدأت أعضائي في الاضطراب، كانت هذه هي أول ليلة أعقد فيها صفقة لقاء مع فتاة جميلة، لذلك ظهر جلياً عليّ بأنني أخفي أمراً ما، فدوماً الأفكار الغريبة التي تسيطر علينا مهما كانت سهلة تُحدِث دوياً في دواخلنا إذا تقاطعنا معها لأول مرة. عاد إبراهيم من البقالة، وجلس يثرثر معي وأنا مضطرب بشكل واضح، فبدأ يشك في تصرفاتي، ولم يفاتحني في الأمر، وحين جاء وقت النوم لم ينم، وكنت أحثه على النوم بين لحظة وأخرى، وفجأة سألني:

ـ لماذا تريد مني أن أنام؟ ماذا بك؟

ـ لا شيء.

ـ مستحيل، أصدقني القول.

ترددت كثيراً في أن أفاتحه بهذا الأمر، كنت أخشى ردة فعله، أنا الضيف الذي بقيت في منزلهم لأكثر من أسبوعين، حاولت أن أخفي هذا الأمر لكنه كان يحثني على الحديث، ويدفعني للاعتراف بطريقة لم أكن أعرفها من قبل، كانت نظراته تشبه نظرات قس مرعبة، ومخيفة، وتعرف ما وراء النفس، فتجاسرت على نفسي، وقلت له:

ـ لقد طلبت مني هدية أن التقيها فوق سطح المنزل إذا نام الجميع.

ضحك بهستيريا وغرابة شعرت من خلالهما بفداحة اعترافي هذا، فندمت على ذلك وندمت بأنني اتفقت مع هدية أن التقيها فوق سطح منزلهم البائس هذا، وتمنيت لو أنني ذهبت مع إبراهيم إلى البقالة، ولم أقابلها وهي

داخلة إلى المجلس، وأنا وحدي وآثار اضطرابها من مشاهدتها لي وحدي في المجلس بادية عليها، لكنه قال:

ـ فقط؟!

ـ نعم.

فرد عليّ بطريقة فهمتها لاحقاً:

ـ ما هي هديتي لو ساعدتك في هذا الأمر؟

ـ ما تطلبه.

ـ حسناً أريدك أن تفاتح حسينة في موضوع أن نلتقي، ونصبح مثلك أنت وهدية.

ـ لا مانع لدي، لكنني لا أؤكد لك موافقتها، سأفاتحها في الموضوع.

ـ إذن امش معي الآن، وسأراقب لكما من تحت الدرج.

ذهبت إلى هدية، وقضيت معها ليلة ممتعة، فقد شعرت تلك الليلة بأنني أحمل جهنماً في داخلي، فحرارة جسدي بدأت في التصاعد تدريجياً حين رأيت هدية، فحرارة طقس جدة تكاتف مع كل شيء يقف في وجهي، حتى شعرت بأنني نهر في جهنم، وفي اليوم التالي فاتحت حسينة في موضوع لقائها مع إبراهيم، فأبدت موافقتها سريعاً، وكأنها كانت تنتظر مني أن أفاتحها في الموضوع فقط، وبقينا طوال تلك الفترة نتناوب على سطح المنزل، ليلة لي أنا وهدية، وليلة لإبراهيم وحسينة، لكن ما أشك فيه الآن أن تكون علاقة إبراهيم بحسينة لا تزال قائمة، فلم أحدثها في هذا الموضوع منذ فترة طويلة.

عدت إلى وعيي على صوت هدية، وهي تطلب مني أن أتناول طعام الغداء الذي أمامي، أكلته بنهم ولذة، لأنني لم أتناول الغداء في الطائرة كما زعمت، فقد نمت جيداً في الفضاء، وحينما انتهينا من تناول طعام الغداء، وركبنا السيارة، قال إبراهيم: «لقد قمنا باستئجار (شاليه) لترتاح فيه، ولكي نقضي فيه الليلة سهرة ممتعة». اتجه إبراهيم بسيارته شمالاً ناحية البحر، وناحية كل تلك الفلل الفاخرة التي تحمل في داخلها الحكايات الحمراء،

وصوت جهاز التسجيل يصدح بأغنية أجنبية، وأنا أدخن بشراهة، وبين الفينة والأخرى التفت إلى الوراء لأتأمل هدية وهي تتثنى على أنغام هذه الأغنية، وأهز رأسي ويدي مع الأغنية لتزداد حماساً في الرقص. وصلنا إلى الشاليه، فحملت حقيبتي، وأخذت المفتاح من إبراهيم، ودلفت إلى الداخل وصوت هدية يصلني من خلفي كذكرى: «حاول أن ترتاح جيداً. أمامك سهرة صاخبة الليلة»، وضعت حقيبتي على الكنبة وفتحت جهاز التكييف، وبقيت ممدداً فوق الكنبة بجوار الحقيبة، وفي رأسي ألف سيناريو لسهرة الليلة التي لم أحسب لها حساباً، وفجأة نمت.

استيقظت على صوت طرق على الباب، كان طرقاً فجاً ومزعجاً، قمت وفتحت الباب، فوجدت إبراهيم وهدية أمامي بملابس أنيقة جداً، ففسحت لهما الطريق للدخول، واستأذنتهما في الدخول إلى الحمام لأستحم بعد أن أخذت ملابس لي من الحقيبة، وبعد أن انتهيت من الاستحمام، وبعد أن شعرت بالخفّة، بدأ توافد مجموعة من الشبان والشابات السود، كانوا أصدقاء لإبراهيم وهدية في ما يبدو، منهم الأخوة والأخوات، وجاء شاب يمني الجنسية، وقام بتركيب جهاز تسجيل عملاق أوصله في سماعات ضخمة وضعها في زوايا هذا (الشاليه)، بعدها اشتعلت الموسيقى في كل الأرجاء حتى بدأ دخان الخطيئة يتصاعد في الجو، قمنا بالرقص والضحك والغناء مثل المجانين، فأحياناً يرفع أحدنا بفتاة، ويطوح بها عالياً ليتلقفها الآخر، وكانت هدية لا تتورع في الرقص معي مبرزة كل تفاصيلها بإثارة غير عادية، هي التي تجيد الرقص كرسام يرسم، يرسم لأجل أن يرسم فقط.

في نهاية تلك السهرة الصاخبة في كل شيء، وحينما انسل الشيطان من داخلي كبَرْدٍ، أردت أن أنام، فقد بقيتُ وحيداً في هذا (الشاليه)، فأحسست بالضآلة والوحدة، وأحسست بأنه لا ينبغي أن أبقى هنا أكثر، فقررت فيما بيني وبين نفسي ألا أبقى هنا ليوم آخر، فيجب أن أعود إلى تبوك في أقرب وقت ممكن.

(اليوم الثالث)

«حسن خبزة»

أسمع بوضوح صوت مؤذن مسجد الحارة يؤذن للصلاة، لكنني لست متأكداً ما هي الصلاة التي يؤذن لها، فالنوم لا يزال عالقاً بأجفاني، وليس أمامك عمل في بلد كهذا إلا أن تنام جيداً، خاصة إذا كنت قد قضيت البارحة كليلة من ليالي تبوك السوداء المائلة للحمرة. قمت، ودخلت إلى الحمام بعد أن أخذت منشفتي المرمية في زاوية هذه العزبة المتهالكة من كل شيء، ما عدا الخطيئة. لم يكن موجوداً أي من الأصدقاء، لقد كان آخر علمي بهم الساعة الخامسة فجراً، ورائحة العزبة تعج بالخمر، والكذب، والموبقات، دخلت لأنام، لأستيقظ ولا أجد لهم أثراً.

قبل أن أدخل إلى الحمام لمحت على جدار العزبة شيئاً يشبه العصير، ولم أعط هذا الأمر أي اهتمام، فعادة ما تخلف لياليا السوداء المائلة إلى الحمرة مثل هذه الفوضى والدمار. دلفت إلى الحمام، ودلقت الماء البارد على جسدي، وأغمضت عيني، ودخلت في خيالات كثيرة. كان الماء يجري فوق جسدي ليخفف عني عبء الليلة الماضية، ويزيد كل الذكريات والخيالات ألماً.

خرجت من الحمام، وصوت إمام المسجد يعلن عن انتهاء الصلاة، أدركت حينها بأنها صلاة المغرب؛ لأنها أخف صلاة وطأة على النفس، ارتديت ملابسي، وخرجت وأنا أشبك أصابعي بأصابع جوعي، سرت إلى البوفية التي يعرف عاملها البنجلاديشي كيف يسد ثغرات جوعي (بساندويشات) لا يعرف سر لذّتها غيره. وصلت إلى البوفية، ووجدت أمامي عدداً من الأطفال السود،

ولا أدري ما سر تكاثر الأطفال السود في (البوفيهات)؟. حينما انتبه العامل لوجودي أشرت له بإصبعي بأن يقوم بصنع ساندويشين، وما إن جلست على أحد كراسي هذه البوفية المتهالكة حتى سمعت رنين هاتفي المحمول في جيبي، أخرجته؛ فإذ بمحمود مرزبة يتصل بي، قال:

ـ مرحبا حسن.

ـ هلا محمود.

ـ أين أنت؟

ـ في البوفية.

ـ سآتيك حالاً انتظرني.

تناولت طلبي من العامل البنجلاديشي وبدأت آكل، وحينما أنهيت (ساندويشي) الأول وبدأت في الآخر، وصل محمود، فاقترحت عليه أن أضيّفه بساندويش فاعتذر، وقال: «أختك لا تسمح لي بالخروج من المنزل حتى آكل»، ثم سكت قليلاً. كان ينظر إليّ تارة، وينظر إلى الأرض تارة أخرى، وفجأة قال:

ـ ماذا حدث لك ليلة البارحة؟

ـ ماذا حصل؟

ـ لا تتذكر؟. مستحيل أنك لا تتذكر!

ـ والله لا أذكر شيئاً.

ـ لقد قلبت سهرتنا رأساً على عقب.

ـ ماذا حصل يا محمود؟

ـ لا شيء ما دمت لا تتذكر، فالأفضل ألا أخبرك، يبدو أنك أكثرت من الشرب، ولعب العرق برأسك قليلاً.

ـ والله لا أذكر ماذا حصل، كل ما أذكره أنني ارتميت على الفراش منهكاً، لأستيقظ قبل ساعة، ولا أجد أحداً من الشباب نائماً في العزبة فقط.

ـ لقد قمت بطردهم!

ـ أنا؟!

ـ نعم، حتى أنا قلت لي (اطلع برّى لا تعتقد بأن زواجك من أختي سيجعلك ذا حظوة عندي)!.

ـ ماذا قلت أنت؟ يبدو أنها قلبة غير جيدة!

وبدأت أضحك...

ثم طلبت منه أن يسرد لي ما حصل، فما يظهر لي بأنني زدت شيئاً من الشرب لم يكن ينبغي أن أزوّده، أخذ محمود مرزبة يحكي لي ما حصل، وكأنه يتحدث عن إنسان آخر، قال لي كيف بدأت أعب من قارورة العرق أمامي حينما بدأ ذكر «عبده غطفان» وزواجه من سورية، فحين جاء «سليمان أبو وحيد»، وما إن بدأ بشرب كأسه الأول، حتى قال بحركة استعراضية وكأنه جاء بنصر مبين: «ألا تعلمون بأن الأسود عبده غطفان تزوج من سورية!». كنت أعرف هذا، ومحمود مرزبة كذلك، لذلك تجاوز محمود الحديث في هذا الشأن، وبدأ في سرد ما حصل بعدها، قال محمود: أخذ الوضع يتغيّر في الجلسة، وأصبح عبده غطفان محور حديث الشباب، وكل منهم يعلق على زواجه من السورية من زاوية معينة، حتى أن هادي أبا طالب قال:

ـ كيف ستستطيع أن تعيش سورية جميلة مع رجل أسود كعبده؟!

فرد عليه سليمان أبو وحيد:

ـ هل تريد أن تخبرنا بأنك تشبه وائل كفوري؟ أنت عبد وأسود مثله.

ازداد صخب الجلسة، وازداد الضحك، وكنت أنظر إليك يا حسن، وأنت تعبُّ من القارورة أمامك دون أن تنطق بكلمة واحدة، ورويداً رويداً بدأ اللغط يكثر، وبدأوا في الحديث عن عبده وأهله، وحينما جاؤوا على ذكر أخته صالحة غطفان تحولتَ إلى وحش كاسر، فقمت ورميت بكأسك الذي كان في يسراك على الجدار، وطردتهم شر طردة؛ كنت تقول لهم:

ـ نحن جئنا إلى هنا لنستمتع، وليس لنتحدث في أعراض الناس!

عندها ضحك محمود بخبث، وهو يقول:

ـ لقد تحولت إلى مطوع، مع أنك أكثر رجل يتحدث في أعراض الناس، فقد نزلت عليك السكينة مساء البارحة، واهتديت!

ضحكتُ على كلام محمود هذا؛ فأنا أدرك أنه يعرفني جيداً، ويستطيع أن يستوعب كل حماقاتي، لكنني لم أصدق ما قاله قطّ؛ لأنني لم أتذكر شيئاً مما قاله، كنت أحس بأن ما حدث أو ما قاله عبارة عن رواية عن أطفال صغار تعلموا كيف يشربون العرق حديثاً. لم أعلّق على كلامه، ولم أُرِد الخوض في هذا الحديث، لأنني حينما أتحدث مع أحدهم عن صالحة أشعر بشرخ في نفسي، وأشعر بقسوة غير مسوّغة على ذاكرتي وتاريخي، وما أبشع أن يصير حديثك عن إنسان ما عبارة عن قسوة على الماضي والتاريخ!، كنت أشعر بهزيمتي أمام «عبده غطفان» وستبقى لعنة عليّ إلى أن أموت، وهي إلى الآن كذلك، وكنت أشعر بأن الحديث عن عبده أمامي يجعلني مثل المطلقة التي خسرت زوجاً وأطفالاً وأسرة، وهي مظلومة لا حيلة لها، فهذا البلد يعرف كيف يبذر الكره في دواخلنا تجاه الأصدقاء عادة قمت من مكاني، وأعطيت العامل التائه بين كثير من رؤوس الصبية السود حسابه، ومضيت...

أخذت أتجول في أزقة حي المنتزه وأدخن، وأنا أثرثر مع محمود في كل شيء ما عدا صالحة، فسألته سؤالاً بسيطاً، وكانت إجابته أبسط، وهذا ما جعلني أدرك بأن محمود يعرفني جيداً، يعرفني وكأنه نفسي، سألته:

ـ ماذا قالت خيرية عن زواج عبده من زوجته السورية؟

ـ لم تقل إلا «الله يوفقهم، ويسعدهم، ويرزقهم».

وسكتَ، وسكتُّ بدوري...

في تلك الأثناء شاهدت صبياً يسير من بعيد متجهاً إلى البقالة المجاورة، لقد كان هو، نعم هو «حسن» بن «حسين منخلي» وابن حبيبتي صالحة، اقتربت منه مثل كل مرة ألقاه فيها، وحين رآني ابتسم، كان يشعر بالسعادة دوماً حينما ألتقيه، ربما لأنني أعامله بلطف وحب زائدين، أعامله بمعاملة مختلفة عن كل أطفال وصبيان هذه الحارة البائسة، كنت أغدق عليه كل حناني، وكل

هباتي، لأنني دوماً ما كنت أحس بأن هذا الصبي كان جديراً بأن يكون ابني أنا، وليس ابن أحد غيري.

يا الله ما أحوجني فعلاً للموت أو للهجرة، لأنني رجل تكالبت عليه كل الظروف ليسكن سجناً إلى أن يموت، فهذا الصبي بكل براءته كان يشبه قيداً يطوّق ذاكرتي، وتاريخي، وتعاستي أيضاً. حملته من تحت إبطه، ورفعته عالياً وأنا أسأله نفس السؤال الذي كنت أسأله إياه في كل مرة ألقاه فيها، ليجيب عليّ بالجواب ذاته الذي كان يصبّه في أذني مثل كل مرة ألقاه فيها أيضاً، سألته:

- كيف حال أمك؟

- إنها بخير.

وكالعادة كان يذهب إلى البقالة لشراء خبز أو لبن أو زيتون لأهله، وكالعادة أيضاً كنت أدفع عنه الحساب، ولا يخرج من البقالة إلا وهو محمل بالهدايا، والهبات، وكل ملذات الطفولة، وكنت أعرف بأنه حين يذهب لأمه، وتسأله عن كل هذا، فإنه يخبرها بأنني وراء ذلك، لكن ما كان يحزنني، ويرعبني أنها لم تتصل بي يوماً، ولم تكلف نفسها أن تردعه عن أخذ أي شيء مني، يحزنني لأنني كنت أشعر بالتقزم أمام برودها ذاك، ويرعبني في أن تكون قد نسيتني فعلاً.

على الرغم من أنني كنت كثيراً ما أكذب على نفسي بأن نسيانها لي شيء مسوّغ، أنا الذي قضيت نصف حياتي في عزبة، وقضيت النصف الآخر مرمياً في زاوية زنزانة في ذلك السجن، فأنا إنسان ملعون، أو لأكن منصفاً: أنا إنسان تجمّع عليه كل شيء حتى نفسه ليصبح ملعوناً.

عندما أعطانا «حسن حسين» ابن صالحة ظهره محملاً بكل ما يريد، اقترح عليّ «محمود مرزبة» بأن أذهب معه إلى بيته لنشرب شاياً، وقد كان يعجبني ذلك الشاي الذي تتفنن في صنعه خيرية إلى الحد الذي كنت أطلب من محمود ألا يدخل عليّ العزبة إلا ومعه ثلاجة شاي تصنعها لنا خيرية، مع

معرفتي المطلقة بأن جبن محمود يجعله يتحاشى مواجهتها بهذا الطلب، فلو كان هذا الشاي لأشخاص غيري لبصقت خيرية في وجهه، وشتمته، وطردته أيضاً، وهو كثيراً ما كان ينام معي في العزبة بعد طرد خيرية له، فحين أسأله لماذا لا تنام في بيتك؟ يقول: «أختك مجنونة، لا أحد يستطيع النوم معها» فأضحك على كلامه بشدة وجنون..

ذهبت معه إلى بيته القريب من عزبتي، وحين رأتني خيرية ابتسمت، وقبّلتني على خديّ، كانت تفرح كثيراً إذا رأتني، فقد تجاوزتُ معها كل القسوة التي بذرتها أنا نفسي في داخلها حينما حددت مسار حياتها بطريقة مضحكة، بطريقة غير إنسانية، وغير عادلة. شربنا معها ذلك الشاي اللذيذ الذي كانت تحسن صنعه هذه السوداء الجميلة، وأخذنا نثرثر، ونتذكر كل الحكايات القديمة، فنحن عندما نتذكر حكاياتنا القديمة التي كانت تشكل لنا قمة الوعي في مراهقتنا نضحك، لا لشيء إنما لأن وعينا قد تجاوزها، تماماً كالعمر والأحلام. قمت بعد كل تلك الثرثرة، واستأذنتهما بالذهاب، فلحق بي محمود عند الباب ليسألني:

ـ هل ستسهرون الليلة؟

ـ بكل تأكيد.

ـ وماذا عن الشباب؟

ـ اتصل بهم، واعتذر لي منهم، فأنا خجلان منهم فعلاً، ولا أتذكر شيئاً مما حدث ليلة البارحة، ولا أريد أيضاً أن أخوض معهم في هذا الأمر لكي لا يفتح أحدهم معي هذا الموضوع، وتفلت مني كلمة تغضبه.

وذهبت...

مشيت خطوتين، أو ثلاثاً، لا أدري كم خطوة مشيت على وجه الدقة، ثم تذكرت شيئاً فالتفتّ إلى «المرزبة» الذي كان لا يزال يقف عند باب البيت، وقلت له: «قل للشباب إن شرابهم اليوم على حسابي».

ومضيت...

اتجهت إلى العزبة، وصور كثيرة تدور في رأسي، كنت أشبه ما أكون برجل يغرق، صورة خيرية وهي تبكي وتصرخ في وجهي بصوت عال، وشكل يحيى وهو صامت أمام انفعالي وتهديدي له، ووعدي له بأن لا يذوق طعم «خيرية»، وصورة عبده وهو يتأبط يد فتاة بيضاء، ويمشي وقد أخرج لسانه من فمه احتقاراً منه لي، وشكل صالحة وهي تطعم أطفالها، وتلحق بآمنة سريعاً لكي لا تسقط من فوق الدرج.. كنت بعد كل خطوة وأخرى أشعر بعجز عن التماسك، كنت أنهار رويداً رويداً، ذلك الانهيار المؤلم الذي لا يجعلك تتألم دفعة واحدة. لم أصل إلى العزبة إلا والدموع تتأرجح في عيني... ما آلمني حقاً أن عبده دمّر حياة الكثيرين في هذه الحارة التي تغوص في اللؤم، وفي الشبق، وفي الموبقات، ليفوز بفتاة فاتنة نشتهيها كلنا.

بكيت كثيراً جداً، ولم أتوقف عن البكاء إلا حينما نمت، حتى وأنا أسمع طرقاً مهولاً على الباب كنت أبكي، حتماً لقد كان الشباب هم من يطرقون عليّ الباب، فهم يطمحون لقضاء ليلة سوداء مائلة إلى الحمرة بالمجان.

(اليوم الثاني)

«يحيى أبو جركن»

ماذا ستشعر به حينما تتزوج امرأة لا تحبها، ويرفضها غيرك؟ هذا هو السؤال الذي يحاصرني من كل جهة بعد أن تزوج عبده، فأنا لا أستطيع أن أصف ما أشعر به، أو أكون دقيقاً في رسم ما أحس به، لكنني أعرف بأن زواجي من «ناجية سعيد» كان تحت ضغط هائل جداً من التاريخ، أنا الذي لم أحب في هذه الدنيا سوى خيرية، ودخلت مع أهلها في مقامرة رديئة بين أن يتزوج حسن خبزة من صالحة غطفان أخت صديقي المقرب لأتزوج أنا خيرية، فقد عشش في عقل «حسن خبزة» أنني السبب في تأليب عبده عليه، ورفضه له بعد أن رأيناه وهو يحتضن صالحة، ويقبّلها ويتحسس مؤخرتها، فقد جاءني بعد يوم من تقدمي لخطبة خيرية ليقول:

ـ أعرف جيداً بأنك تحب خيرية، وهي تحبك، وأعرف أيضاً بأنك السبب وراء رفض عبده لي، فقد أخبر أباه وأمه بأنني عربيد، لكنك لن تتزوج خيرية حتى تقنع عبده بأن يقنع أهله بأن أتزوج من صالحة.

كان ثملاً في ذلك اليوم، وكنت أخشى أن أدخل معه في جدل رخيص كخردة، ربما يدخلني في متاهة فيما بعد، كنت صامتاً أسمع حديثه دون تعليق، وحينما انتهى من كل شيء ذهبت وتركته يتخبط في سكره ليلحق بي، ويهمس في أذني بعد ذلك: «والله لن تذوق طعم خيرية ما لم أتزوج صالحة»، وتزوجت صالحة من قريبها القادم من القرية بعد فترة غير طويلة،

وبعدها بأيام قليلة دخل حسن خبزة السجن بعد تورطه في قضية مخدرات، وبعد أن زوّج خيرية لصديقه «محمود مرزبة».

ناولتني ناجية مفاتيح سيارتي وهاتفي المحمول، وخرجت من المنزل. كانت الشمس تحتضن المغيب في هذا اليوم البائس من أيام تبوك المتناسخة، فمنذ البارحة وأنا أتصل بعبده لكنه لا يرد على اتصالاتي، فهل يشعر عبده بأنه انتصر عليّ؟ أم أن طعم الهزيمة في داخلي يجعلني أفكر بأن صديقاً كعبده يمكن أن يضعني في زاوية المهزوم والمنكسر؟، ففي الحب فقط نشعر بطعم الهزائم والانتصارات ونحن لم نخض أي معركة.

ركبت سيارتي وأنا لا أعرف إلى أين سأذهب، كنت أريد الخروج من المنزل وكفى، لأن زواج عبده ذكّرني بأقبح قرار اتخذته في حياتي حينما تزوجت «ناجية سعيد»، وأنا أعلم جيداً بأنها كانت تحب عبده، فلم أفطن يوماً بأن مشاهدة وجه ناجية سيربكني، لكن زواج عبده وضعني في هذا الركن الذي كنت أحاول ألا أجلس فيه طوال حياتي الزوجية مع هذه المرأة التي لا أعرف منها غير فرجها، أصبح ذِكر عبده بالنسبة لي هزيمة لا أقوى على التصالح معها إطلاقاً، فلماذا تزوج بسورية؟ ولماذا لم يتزوج امرأة سوداء مثله ومثلي؟. أنا أدرك بأن المرأة السعودية التي تحمل بشرة بيضاء لن تتزوجه لكنني لا أعرف لماذا يصر على أن يتزوج امرأة سورية بيضاء البشرة؟. أنا الذي كنت أتصور بأنني أعرفه جيداً، فهو يكره البيض كثيراً ككرهه للموت وللمصائب، وعندما قرر الزواج من فتاة سورية لم أسأله لكنني حتماً سأسأله في أقرب فرصة ممكنة، هو الذي لم يكن يخفي عني شيئاً، وبالمقابل لم أكن أخفي عنه شيئاً أيضاً حتى علاقتي بناجية، كان يعرفها بشكل واضح، وكان يقترح عليّ بعض الاقتراحات إذا ساءت أموري معها، أعترف بأن عبده كان خبيراً بالنساء أكثر مني، أنا الذي لم أكن أعرف من النساء إلا أنني أحببت فتاة سوداء مثلي وقف أخوها في وجهي حينما أردت الزواج بها، وزوّجها لصديقه العربيد.

ففي يوم من الأيام كنت أشعر بأن ناجية صارت تكره رائحتي واقترابي

منها، لم يكن قد مضى على زواجنا إلا فترة قصيرة، ربما كانت في حدود الستة الأشهر أو تزيد قليلاً، فحكيت لعبده هذا الأمر، فنصحني قائلاً:

ـ سافر ليوم أو يومين، أو اذهب إلى البحر، واتركها لوحدها، وحين تعود اشتر لها فستاناً جميلاً كهدية ربما سيساعدكما هذا في الاشتياق لبعضكما بعضاً.

ثم أضاف:

ـ هي تجيد الرقص كما أعرف، فحاول أن تهتم بهذه الخصلة، وأثني عليها كثيراً.

وفعلاً ذهبت إلى البحر ليومين، وعندما عدت ومعي ذلك الفستان الأبيض المطرّز بخيوط بنفسجية فرحت به كثيراً، وأصبحت تتعامل معي بشكل جيد. لم أكن أغار من حديث ناجية عن عبده، لكنها حينما تحدثت عنه مساء البارحة شعرت بشرخ في نفسي، وغيرة شديدة لم أجد لها مسوّغاً، كانت غيرة لا تطاق مثل الاختناق تماماً، شعرت بأنه انتصر عليّ فعلاً، انتصر عليّ من حيث جلب لنفسه السعادة، فقد جاءتني مساء البارحة، وقالت وهي تضع أمامي كوباً من الشاي:

ـ هل اتصلت بصديقك العريس؟

ـ اتصلت به لكنه لم يرد على اتصالاتي.

ـ يبدو أن عروسه أخذته منا.

ـ ماذا تقصدين بكلمة «منا»؟

ـ أقصد أهله وأصحابه.

لم أكمل معها الحديث، وشعرتُ أيضاً بأنها أرادت ألا يطول الحديث أكثر، وأعرف بأن عروسه ستأخذه حتماً منا، فأن يتزوج رجل أسود من امرأة بيضاء جميلة حتماً فهي لن تأخذه ممن يعرفونه ويحبونه فقط، إنما ستجعله ينظر إليهم بازدراء، فزوجته الآن هدية نزلت عليه من السماء.

كنت أذرع شوارع تبوك دون هدى، كنت أشعر بأنني تائه حقاً، فماذا يفعل عبده الآن؟ وماذا يقول لزوجته عن أهله وأصحابه؟ وهل سيأتي على

ذكري أمامها؟ وهل سيقول لزوجته يوماً بأن صديقه المقرب جداً تزوج من امرأة رفضها هو؟. لا أعتقد، فأنا أعرف عبده كما ينبغي، لن يحدثها عن أي شيء من ماضيه، سيحتفظ بهذا الماضي في داخله إلى أن يموت، لكن ألن يكون جمالها ودهشته بها سبباً في أن يقول لها كل شيء؟ لا أدري فنحن لا نتنبأ بالأحداث في علاقة أي رجل وامرأة ليسا متكافئين!.

رن هاتفي المحمول الذي كان مرمياً على المقعد الأمامي بجانبي رنة واحدة، ثم انقطع الخط، مددت يدي إليه، ففرحت كثيراً حينما رأيت رقم عبده في المكالمات الفائتة، عاودت الاتصال به، فرد سريعاً:

ـ أهلاً بالوحش.

ـ أهلاً بك يا عريس كيف حالك؟

ـ بخير. كيف حالك أنت؟ وكيف حال ناجية؟

ـ كلنا بخير ولله الحمد، ألف مبروك، أتمنى لك حياة سعيدة.

ـ الله يبارك فيك، وشكراً لك يا صديقي.

ـ اتصلت بك مراراً لكنك لم ترد، يبدو أن عروسك أخذتك منا سريعا.

ـ لقد وقعت على الحقيقة.

وأخذ يضحك، وحينما سمعت ضحكته هذه تجاسرت على حيائي، وسألته:

ـ كيف الوضع؟

ـ الوضع كله في السليم، أشعر بأنني ملك.

ـ وكيف العروس؟

ـ مثل نجمات السينما لكنني لا أستطيع أن أتحدث الآن أكثر.

ثم أردف بجدّية:

ـ هل أنت في المنزل؟

ـ لا، إنني أتسكع في هذه المدينة التي تشبه السجن، ولك أن تتخيل رجلاً يتسكع في ردهات السجن.

ـ إذن استمتع بوقتك، واتركني لأستمتع بوقتي.

- أتمنى أن تستمتع بوقتك، اتصلت بك لأبارك لك، متى ستعود؟
- ربما بعد أسبوع، أو أكثر قليلاً.
- أتركك الآن مع نجمتك، وفي حال أردتَ شيئاً اتصل بي.
- بإذن الله. إلى اللقاء.

أغلقت الهاتف، فنظرت إلى شاشته مبتسماً أحاول أن أتخيل شكل هذه النجمة، فأنا أشعر بأنها جميلة فعلاً، وعبده لا يثني على امرأة إلا إذا كانت تستحق، لكن من الغباء أن يقدح أحدهم في جمال زوجته، فحتى أنا لو سألني أحدهم عن جمال ناجية فسأقول بأنها فاتنة جداً، مع يقيني المطلق بأنها امرأة متواضعة الجمال، لكن البيضاوات عادة لسن متواضعات الجمال، ويا ليت إحداهن تسقط الآن بين أحضاني لتعرف أي رجولة يمتلكها الرجل الأسود.

اتجهت شرقاً، أريد الوصول إلى طريق المدينة المنورة، وكثيرة هي الأسئلة والأفكار التي كانت تطوّق بجمجمتي، سرت حتى وصلت الاشارة الضوئية الأولى التي تقابلك حينما تسلك طريق المدينة المنورة، انعطفت يساراً. كنت أسير بآلية، لم أكن أستوعب الطريق حتى وقفت بسيارتي أمام باب الاستراحة، لم يكن هناك أحد من الأصدقاء فيما يبدو، فلا أثر لأحدهم، والمكان خال من السيارات. كان الوقت مبكراً للحضور، دخلت لأجد أمامي «علي حلّوش» وخرطوم شيشته معلقاً بفمه، سلمت عليه، ووضعت مفاتيحي وهاتفي المحمول على الأرض، وأخذت أعد لي رأس جراك ربما يعينني على أسئلتي وأفكاري التي تطاردني لأول مرة. كنت أسمع وأنا منهمك في إعداد رأس الجراك أسئلة «علي حلّوش» عن عبده، قال:

- ما هي أخبار العريس؟
- بخير.

كنت أجيب ولا التفت إليه، كنت مشغولاً بما بين يدي، ولم أحب أن أُظهِر اضطرابي الذي ينخر عقلي كسوس، كنت أحاول ألا يحس أحد من الأصدقاء بهذا الاضطراب الذي يأخذ طعم الملح؛ لأنه من غير المنطقي أن يسبب لك زواج صديقك المقرب جداً اضطراباً يُلحظ. قال:

ـ لقد فاز بها الأسود.

فرددت عليه باسماً:

ـ يحق له بين يديه الآن لحم أبيض.

لم أعر كلمة أسود التي قالها حلوش أي انتباه، ربما لأنها صدرت من رجل أسود لكنها لو صدرت من رجل أبيض ربما اشتبكت معه، لكنه أسود مثلنا، فهو لا يقولها إلا من باب الدعابة لا أكثر. سألني:

ـ هل كلمته؟

ـ نعم كلمته قبل قليل.

ـ متى سيأتي؟

ـ يقول بعد أسبوع، أو ربما أكثر قليلاً.

ـ الله يهنيه.

ـ تزوج أنت زوجة ثانية بيضاء على «أم يوسف».

ـ ومن سيقبل بي.

ـ نقودك تتحدث، وليس شكلك، إن كان معك نقود فلن يرفضك أحد.

ـ أنت تحلم!

ـ ها هو عبده قد تزوج امرأة بيضاء.

ـ لكنها سورية، لو أراد أن يتزوج امرأة سعودية بيضاء فلن يقبل به أحد، حتى لو لحس شحمة أذنه.

ـ حسناً تزوّج امرأة بيضاء غير سعودية، يمنيّة مثلاً.

ـ أنا أتزوّج يمنيّة؟! يبدو أنك فقدت عقلك!

لا أدري لماذا أحسست بالاحتقار لهذا الرجل الذي ينظر إلى نفسه بطريقة ملؤها العلو، فلو رضيت به امرأة بيضاء يمنيّة فسيكون ذلك أشبه بعلامات الساعة، لأنني أعتقد بأن رجلاً مثله لن تقبل به امرأة بيضاء كحذاء لها، فضلاً على أن يكون زوجها، فلماذا كل هذه الفوقية؟. وضعت الجمر على رأس الشيشة، واستندت جدار الغرفة ومزّيت منها مزة، وفجأة تذكرت

الشاي الذي يتوسط المجلس أمامي. قمت وسكبت لي كوباً، وأخذت أستلذ بالشيشة، وكم هائل من الكلمات يحلق فوق رأسي، كنت صامتاً أشاهد التلفاز الذي كان يبثّ نشرة الأخبار. وضع «علي حلّوش» خرطوم شيشته جانباً، واستأذن بالذهاب، فسألته:

ـ إلى أين؟

ـ سأذهب لشراء بعض الأغراض للمنزل، وسأعود.

ـ وهل سيأتي أحد من الأصدقاء الليلة؟

ـ نعم كل السود سيحضرون، ستبقى أنت هنا إلى أن يأتوا؟

ـ لا أدري فليس لدي خطط لهذه الليلة.

خرج «علي حلّوش»، وتركني متوحداً مع شيشتي، فعادت بي الذكريات لذلك اليوم الذي قابلت فيه عبده وقلت له:

ـ لقد رفض «حسن خبزة» تزويج خيرية لي.

ـ أسألك بالله، هل أنت صادق؟

ـ إي والله.

ـ وماذا ستفعل؟

ـ لا أدري، لكنني سأحاول بأقصى ما أستطيع أن أتزوجها، علماً بأنني سمعت بأنه سيزوجها لصديقه الأسود «محمود مرزبة».

ـ الأهبل محمود، لا مستحيل!

ـ هذا ما سمعته.

بعد مدة من الزمن سمعت عن خطبة محمود مرزبة لحبيبتي خيرية، وقبولها به، وبهذا يكون المرزبة قد قطع الطريق أمام زواجي بها، فهذا العبد لا يستحقها أبداً. أذكر أن عبده حينما سمع بخطبة محمود من خيرية اتصل بي، وطلب لقائي، وحينما قابلته حاول مواساتي كثيراً. كنت أبكي وأنا أرى حلم حياتي يتبدد أمامي كطفل ينفخ في رغوة صابون في حوض الاستحمام، قال لي عبده يومها:

- من رأيي أن تخطب في أسرع وقت ممكن لكي لا تظهر بصورة مكسور الجناح، ولكي يعرفوا بأن الحياة لا تقف على خيرية.

- لا أستطيع.

- حاول أن تكون شجاعاً، يجب ألا تكون جباناً طوال عمرك، وعروسك عندي.

- من؟

- ناجية سعيد.

- لكنك تحبها، وتريد الزواج منها!

- أنت صديقي، ويجب أن انتصر لك بأي طريقة كانت، حتى لو زوّجتك الفتاة التي أحبها.

ولم يمض سوى وقت قصير حتى زُفّت «ناجية سعيد» لي، كنت في تلك الأيام أشعر بأن عبده يكبر في داخلي شيئاً فشيئاً مثل جنين جميل، فقد ضحّى بحب حياته من أجلي، في تلك الأيام كنت أشعر بأنني مدين له بحياتي لكنني لم أكن أعلم بأن القدر يخبئ الأعظم، فقد تزوج الآن بامرأة أعظم من ناجية بمراحل...

أعترف بأنني بدأت أنسى خيرية رويداً رويداً، لكن حبها في داخلي يشبه الوشم لا يتلاشى بمرور الزمن، إنها كارثة ومن الصعب جداً أن تطلب من أحدهم أن يتناسى كوارثه، فلو تزوجت خيرية فلن اضطرب كثيراً من زواج عبده هذا، سأكون أكثر فرحاً بزواجه، وسأقف بجانبه دون أن أشعر بالهزيمة، فالهزائم العاطفية تشعرك بأنك دخيل على حياة إنسان ما، كما أنا دخيل على حياة ناجية تماماً.

كنت أتلاسن مع خيالاتي وذكرياتي، وفجأة سمعت صوت نغمة الرسائل في هاتفي المحمول، فقد وصلتني رسالة نصية قصيرة، تناولت الهاتف، وفتحت الرسالة، لقد كانت من ناجية، وقد كتبت فيها: **«حاول أن تعود الليلة إلى المنزل مبكراً، فأنا أنتظرك بهدية تحبها»!**

(اليوم الأول)

«صالحة غطفان»

أشعر بخزي كبير في هذه اللحظة، مثل أن ترتكب حماقتين مصيريتين في وقت واحد، أشعر بأنني خذلت عبده حقاً، وما أقسى أن يشعر الأخ أنه خذل أخاه!، لقد تزوج عبده مساء البارحة، وأنا هنا في هذا الحي البائس لا ألوي على شيء سوى مطاردة حسن وأخته، وإرضاع أخيهما الأصغر. فماذا يمكن أن يقول عني عبده؟ أنا أخته الكبرى التي لم تحضر زواجه، أشعر بتأنيب ضمير لا يطاق، على الرغم من أنني أستطيع أن أسوّغ لعبده بأن «حسين منخلي» لم يحصل على إجازة خارجية لنذهب إلى سوريا، فحينما قلت لحسين بأنني أنوي الذهاب مع أمي وقاسم لزواج عبده قال:

ـ ومن يبقى مع أطفالك؟

ـ سآخذهم معي.

ـ أبنائي لن يكونوا عالة على أحد، وعبده سيعذرك، لأنني لم أحصل على إجازة، وكما أخبرني البارحة فهو لن يتأخر.

وفي النهاية لم يذهب أحد لحضور زواجه، لا أنا، ولا أمي، ولا حتى قاسم...

لم أقتنع بكلام حسين، ربما لأنني لم أستوعب بعد ألا تحضر الأخوات زواج إخوانهن، لا أدري لماذا كل هذا التعاطف مع عبده، على الرغم من أنه كان سبباً في نكدي مع هذا الرجل الذي يقسو عليه ضباطه في العسكرية، ليقوم بتفريغ كل غضبه وكبته عليّ، فهل تعاطفي مع عبده نابع من فضولي

الشديد لمشاهدة زوجته؟ أم لأنه بقي صامتاً حينما رآني مع حسن خبزة؟ فهو لم يتحدث، لكنه فعل الكثير. لا يمكنني أن أجد إجابة محددة لكل أسئلتي، لكنني أحس بأنه كان ينبغي أن أكون معه مساء البارحة في دمشق، لأقف معه في يوم فرحه. كنت حزينة جداً حتى أنني دفعت بابني الصغير حسن ليقع على ظهره، ويرتفع صراخه دون أي اكتراث مني، هو الذي يحمل اسم ذلك الرجل الذي أحببته، وعرفت من خلاله كياني، وقلبي، وأنوثتي، فعلى الرغم من أن «حسن خبزة» كان عربيداً، إلا أنه كان يحمل قلب طفل، لأتيقن فيما بعد بأن أكثر الناس تصالحاً مع الخمر أرقّهم قلوباً.

كنت أحمل هاتفي المحمول منذ الساعة العاشرة صباحاً، وفي كل مرة أريد فيها الاتصال بعبده أتراجع بحجة أن الوقت غير مناسب لمتزوجين حديثين، فالمتزوجون حديثاً أكثر الناس حباً لليل، أنا التي لم أعرف وجه الصبح بعد زواجي إلا بعد مرور أسبوعين كاملين، كنا نقضي تلك الأيام سهراً ومتعة ليلاً، وننام إذا اقترب الفجر بعد أن يستولي حبيبي «حسن خبزة» على نصف تفكيري.

حسن خبزة الذي تقدّم لخطبتي بعد أن رآنا عبده، وهو يقبّلني في منزلهم حينما كان يسترق النظر للفتيات من فوق سطح المنزل، لم يشفع له نبله ووفاؤه، فألّب عبده أمي وأبي عليه، فهنا لا مكان للنبل والوفاء إطلاقاً، ألحّ على أبي – رحمه الله – وأمي بأنه غير أهل للزواج بي، لأنه يشرب الخمر. كنت أبكي في تلك الأيام حظي مع حسن، لكنني أتذكر حينما دخل عليّ عبده في يوم من الأيام، وقال لي:

ـ يا صالحة أعرف جيداً ما كان بينك وبين حسن، وأعرف كل ما فعلتماه، أنا لم أرفض حسن لأنني رأيتكما تقومان بأفعال غير لائقة، إنما لأنه عربيد لا يستحقك.

ـ لا تكذب، فأنت ترفضه لتنتصر لنفسك أمام صديقك يحيى الذي رآنا معاً!

خرج من باب الحجرة، ولم يفتح معي هذا الموضوع فيما بعد إطلاقاً.. حتى جاء حسين منخلي ابن خالتي من القرية، ليلتحق بالسلك العسكري في تبوك، فعرضني عليه عبده كسلعة رخيصة، فوافق على الزواج مني وتزوّجته، لكنني لم أنس حسن خبزة، ولن أنساه، فعندما جاء طفلي الأول أطلقت عليه اسم «حسن» ليبقى حسن خبزة حياً في داخلي لا يموت، فالحياة تعرف جيداً كيف تقتل الأحباب، وتنسي بعضهم بعضاً.

اقتربت الساعة من الواحدة ظهراً، وأنا لا أزال ممسكة بهاتفي المحمول، فتشجعت واتصلت بعبده، رن الهاتف مرتين وثلاثاً، وفي المرة الرابعة جاءني صوت عبده مرعباً، وخشناً، ومهيباً، كأنه لم يكن نائماً، فسألته:

ـ أرجو ألا أكون قد أيقظتك من نومك.

ـ أبداً، فأنا مستيقظ منذ أكثر من ساعتين.

ـ غريب أن تستيقظ مبكراً.

ثم أدركت بأنني لم أبارك له، فقلت:

ـ أنا آسفة، ألف مبروك، وأتمنى لك حياة سعيدة.

ـ الله يبارك فيك.

ـ كيف كانت ليلتك؟

ـ من يكون معه مثل «سحر بيّاض» سيكون سعيداً حتماً، كانت ليلة جميلة بكل تأكيد.

ـ أعتذر منك، لأنني لم أستطع الحضور.

ـ عفواً يا أختي عذرك مقبول، وأنا لم ألح عليكم في الحضور، لأنني لا أريد أن أتعبكم، وسأكون عندكم في غضون أيام. أخبريني عن صحة حسين والأولاد؟

ـ كلهم بخير، وتصل إلينا بالسلامة.

أغلقت خط الهاتف بعد أن تحدثنا قليلاً، وتذكرت بعدها بأنني لم أتحدث مع سحر، لكنني على ثقة بأنها ستصبح صديقتي حتماً فيما بعد. بقي الخزي يلاحقني كمتسول، وبقيت أحاول الهرب منه كجندي جبان، في تلك

اللحظات سمعت صوت باب المنزل يُفتح، ويدخل حسين عائداً من عمله، تذكرت بأنني لم أقم بطبخ الغداء، فلم يكن مني إلا أن استقبلت حسين باسمة بغنج لأنسيه هذا السهو غير المسوّغ، فحسين عادة لم يكن يتنازل عن أشيائه الضرورية مطلقاً كالأكل، فحين رآني ابتسم، واحتضنني، كانت رائحته مؤذية، ودوماً ما تكون رائحته مؤذية حينما يعود من عمله، فهو يعود بعد عمل مرهق في ظهيرة هذه البلاد التي لا تحابي أحداً، فقلت له بدلال واضح:

ـ لم أقم بطبخ الغداء، اذهب واشترِ لنا غداء من المطعم.

غمزت له بعيني بعد أن قمت بِعَضّ شفتي السفلى قليلاً، فرد عليّ ضاحكاً:

ـ هل تنتابك الغيرة من العروسين؟

ـ من هم العروسان؟

ـ عبده وزوجته.

فضحكت ولم أرد، لأنه لم يكن يعلم بأن الخزي في داخلي أكبر بكثير من رجل أعرف رائحته منذ سنوات عدة. لم أرد لأنني لا أريد أن يكتشف أنه صار في حياتي أشبه بأنبوبة غاز لا ندرك قيمتها إلا حينما تنتهي أو تنعدم. ذهب لشراء الغداء، ودخلت حجرتي لأبدل ثيابي، وأضع ما تدلي عليّ به ذائقتي من المساحيق، لأظهر في نظره بشكل جيد، كنت داخل الحجرة، وأصوات أطفالي في الخارج تصل إليّ لتحدث في داخلي اضطراباً مستفزاً. وبينما كنت أعبث بالمساحيق على وجهي سمعت صوت «آمنة» وهي تبكي، فخرجت مسرعة أريد سؤالها عن سبب بكائها، فوجدت حسناً ينهال عليها ضرباً، وحين رآني قال بصوت عال:

ـ لقد أخذت أقلامي وكراسة رسمي، وبدأت تشخبط في كل الصفحات.

ـ ابعد عنها وإلا سأكسر رأسك.

ذهب وهو يبكي، ويتوعدها بعينيه، لم تكن آمنة قد دخلت المدرسة بعد، فأخذتها في حضني، وربّت عليها، وحين رأيت الدموع تنهال من عينيها

أشفقت كثيراً عليها، فشعرت بأنها كانت عديمة الحيلة مثلما كنت عديمة الحيلة أمام عبده في زواجي من «حسن خبزة»، ففكرت أن أبكي، فهذا المجتمع ذكوري في المجمل، ذكوري بشكل لا يصدق ولا يطاق، فصرخت في حسن مرة أخرى، وهو بعيد عني وبصوت أعلى: «طيّب يا حسن، سأخبر أباك عما فعلته بأختك».

ما أدهشني فيما بعد أنني لم أنتصر لها في تلك اللحظة بالطريقة التي أثبت من خلالها قدرتي على الانتصار، فكنت أشعر دوماً بأن الذكر هنا لا يقتص منه إلا ذكر مثله، أو ربما لأنني لم أطق أن أقسو عليه في يوم ما، لأنني سأقسو على ذاكرتي وقلبي معه، فلم أتنبه بأنني وقعت في فخ عملاق بعدما أطلقت عليه هذا الاسم إلا بعد مرور زمن، حين شعرت بأنني سجنت نفسي من حيث لا أعلم، سجنت نفسي في التاريخ.

غسلت وجه آمنة، وبدأت في إرضائها، ولم أشعر إلا بدخول حسين وأنا مشغولة بآمنة، فقال حينما رآني أغسل وجه آمنة وهي تشهق:

ـ من ضربها؟

ـ حسن.

ـ أين هو هذا الكلب؟

وانطلق يريد البطش به، فلحقت به بعد أن تركت آمنة تشهق وحدها، وأنا أصرخ به قائلة:

ـ لا أرجوك، لا يزال طفلاً، فهو لا يعي إلى الآن.

ـ دعيني أريبه لكي لا يمد يده على أخته مرة أخرى.

ـ أتركه هذه المرة لأجلي.

أمسكت بيده، وحاولت أن ألفه جهتي، فنظر إليّ وأنا أتأمل الشهوة تنمو في داخله كجنين، وفجأة هدأ وكأن شيئاً لم يكن، فقبّلني على خدي، وقال: «الغداء في المطبخ، سأذهب لتبديل ملابسي. أعدّيه لنا». تركني وذهب إلى الحجرة، ذهب يجر وراءه شهوته وجوعه، وذهبت إلى المطبخ ببقايا

المساحيق التي لا تزال عالقة على وجهي كهذا الخزي العملاق الذي يتعلق بروحي، أخذت في إعداد الغداء، وأنا أسمع صوت حسين يقول لآمنة:

ـ خلاص يا ماما، سأضربه لكي لا يمد يده عليك مرة أخرى.

وحين ازداد نحيبها، قال:

ـ خلاص يا ماما، لا توقظي أخاك الصغير من النوم، وسترين ما سأفعل به.

كان يلاطفها ليخرجها من جو الرعب والخوف الذي أحدثه حسن في داخلها، وأنا أعرف بأنه لن يضرب حسناً؛ لأنه تركه بطلب مني، فحين ينصاع حسين لأمر ما بطلب مني فلن يعود إليه إطلاقاً لكنه نادراً ما ينصاع، فهو وحش لا يروضه إلا شهوته. أعددت الغداء، وناديت حسيناً، فحين استوى على جوعه قلت له: «تناولوا غداءكم بالعافية، وسأذهب إلى الحجرة لأرتاح قليلاً».

كان حسين يفهم ما كنت أريده بالتحديد. دلفت إلى الحجرة، وسمعته وهو في الصالة يتناول الغداء مع الأولاد يقول لحسن: «لماذا ضربت أختك؟ أنت من ينبغي أن تدافع عنها لا أن تقوم بضربها؟» حاول حسن أن يدافع عن نفسه، فقاطعه حسين: «هذي أختك الصغيرة، لا ينبغي أن تضربها، وهي لا تزال صغيرة، فيجب أن تهتم بها لا أن تضربها». كان حسين يتحدث مع حسن وكأنه رجل ناضج، لكنه كان بالمقابل يغرس في داخله تلك الفوقية المقيتة التي تتيح له هو الذكر أن يدافع عن أخته لأنها أنثى: فالأنثى هي الجهة الأضعف دوماً. جهزت نفسي جيداً، وما إن فرغت من ذلك حتى دخل حسين عليّ يسبقه لهاثه، كنت مستلقية على السرير أحدق في السقف كمريضة، وحين استوى على شهوته كانت إحدى عيني تحرسه، والأخرى تحرس عبده الصغير النائم بجانبي، فكنت أكتم أنفاسي وصراخي لكي لا أوقظه.

***

في المساء، وأنا أحاول أن أعيد ترتيب خزيي في داخلي اتصل بي عبده مرة أخرى، وقال:

ـ أريد أن أسألك: هل قام قاسم بتركيب المطبخ في منزلي الجديد؟

ـ لا، لم يقم بذلك فيما أعتقد لكنني سأتصل به الآن، وأطلب منه ذلك.

ـ جميل، لأنني سأكون عندكم خلال أيام.

انتهت المحادثة بعد أسئلة روتينية عن صحته، وصحة زوجته، وأحوال الطقس في دمشق، وتذكرت مرة أخرى أنني لم أتحدث مع «سحر بيّاض». اتصلت بقاسم لأسأله عن مطبخ عبده، فأخبرني بأنهم لن ينتهوا منه إلا بعد أربعة أيام تقريباً، واستطرد بأنه سيسافر بعد يومين أو ثلاثة إلى جدة بحثاً عن عمل، وربما يتأخر في العودة إلى تبوك، لذا طلب مني أن أتصرف في هذا الأمر. عندما أغلقت خط الهاتف منهية مكالمتي مع قاسم، نظرت إلى حسين بجانبي، فطلبت منه أن يذهب بعد أربعة أيام ليقف مع العمال وهم يقومون بتركيب مطبخ عبده، لأن قاسماً لن يكون متواجداً في تبوك، فسيسافر إلى جدة ليبحث فيها عن عمل كما يقول، فرد عليّ حسين قائلاً بابتسامة مدهونة خبثاً:

ـ إن أردتِ أن أذهب، فقومي وارقصي أمامي الآن.

فلم يكن منه إلا أن أخذ يقلّب القنوات الفضائية بين عينيه حتى استقر على قناة تبث أغنية خليجية رائعة، كنت أحب تلك الأغنية كثيراً، لأنها جزء من ذاكرتي وحنيني وخيبتي، فلم يكن مني إلا أن وقفت، ورقصت أمامه، رقصت أمامه بتفنن، وتذكرت حينما كنت أرقص في زواج حليمة العوراء، وحسن خبزة من فوق سطح منزلنا يتأملني بشغف ودهشة.

انتهت.

٢٠١١/١٢/٢٥

تبوك

المحتويات

الإهداء.. 7

تنبيه.. 9

أثر القُطن... 13

(اليوم الثلاثون) 15

(اليوم التاسع والعشرون) 26

(اليوم الثامن والعشرون) 37

(اليوم السابع والعشرون) 48

(اليوم السادس والعشرون) 59

(اليوم الخامس والعشرون)....................................... 69

(اليوم الرابع والعشرون).. 76

(اليوم الثالث والعشرون)....................................... 84

(اليوم الثاني والعشرون) 92

(اليوم الواحد والعشرون) 100

(اليوم العشرون) 107

رائحةُ الأسفلت.. 115

(اليوم التاسع عشر) 117

(اليوم الثامن عشر) 124

(اليوم السابع عشر) 132

(اليوم السادس عشر) 139
(اليوم الخامس عشر) 146
(اليوم الرابع عشر) 154
(اليوم الثالث عشر) 162
(اليوم الثاني عشر) 169
(اليوم الحادي عشر) 176

للخفافيش عيونٌ أيضاً 185

(اليوم العاشر) 187
(اليوم التاسع) 195
(اليوم الثامن) 202
(اليوم السابع) 209
(اليوم السادس) 216
(اليوم الخامس) 224
(اليوم الرابع) 232
(اليوم الثالث) 240
(اليوم الثاني) 247
(اليوم الأول) 256

سكتّ، فربما شعرتْ بأنني أقصدها لأنها في نهاية المطاف امرأة بيضاء، لكنني لا أستطيع أن أغفر لكل هؤلاء البيض الذين يشعرون بأنهم مثل الآلهة، فهل لأنني رجل أسود أستحق كل هذه القسوة؟.

إنه شيء قدري ورباني أن أحمل جلداً أسود، فبشرتك مثل العاهة لا دخل لك فيها، إنه اختيار الرب، لكن هؤلاء البيض لا يؤمنون بذلك: فكيف لي أن أناقشهم؟ أن أدافع عن نفسي أمامهم، وأنا أحمل شيئاً لم يكن لي فيه اختيار؟.

إن لوني ذائقة من السماء يجب احترامها.

علوان السهيمي: روائي وكاتب سعودي، من مواليد 1983م بمدينة تبوك.

صدر له:

الدود (رواية)، دار الفارابي، 2007.

الأرض لا تحابي أحداً (رواية)، دار الفارابي، 2009.

قبلة وأشياء أخرى، (مجموعة قصصية)، دار طوى، 2011.

ISBN 978-9953-71-814-9
9 789953 718149